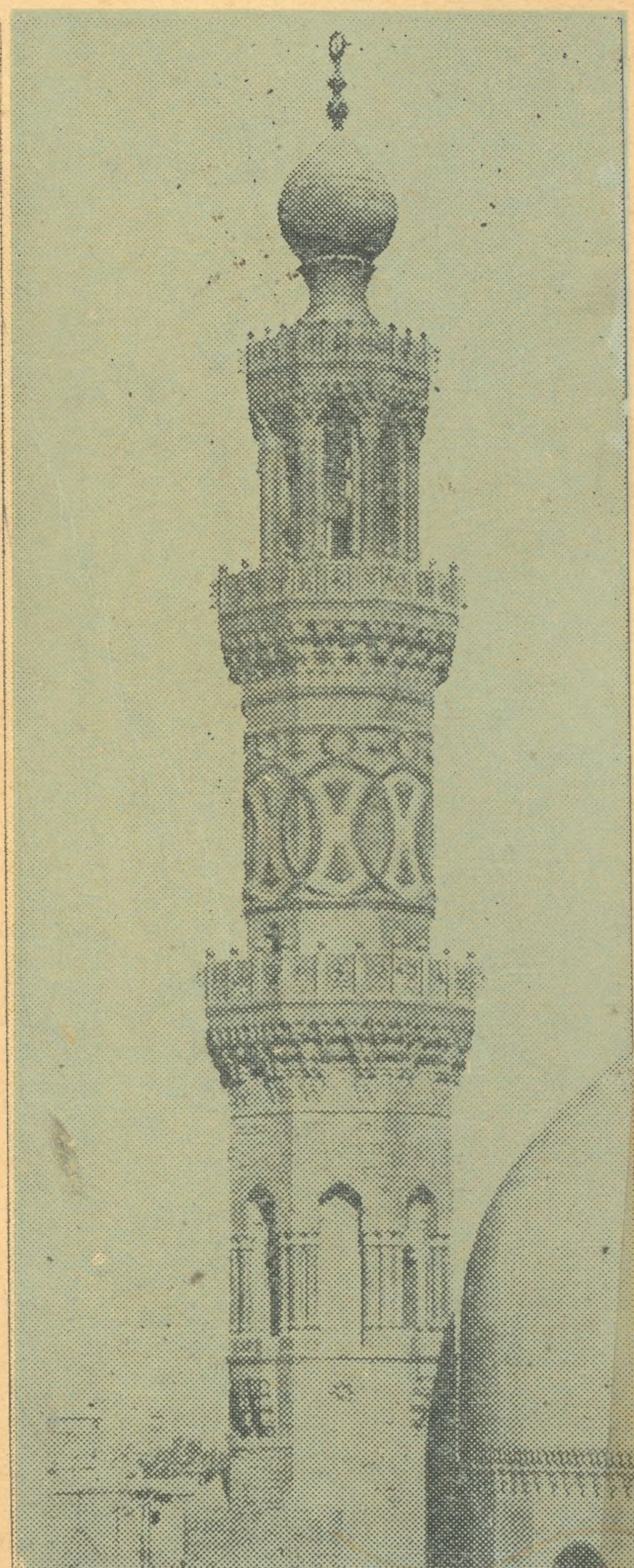
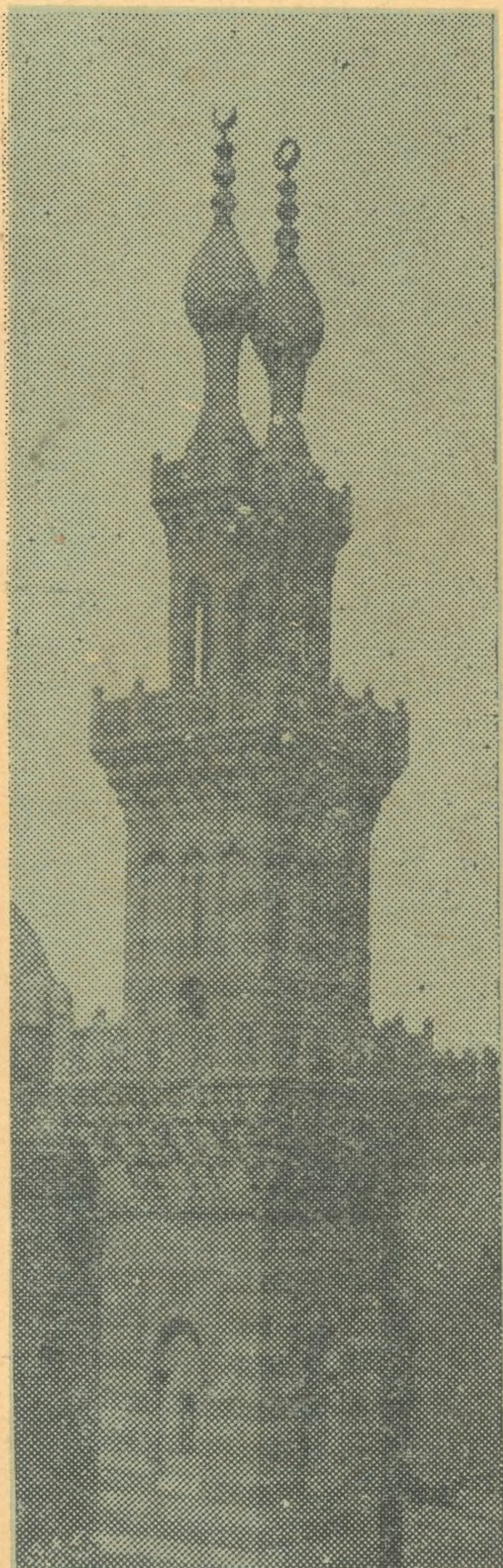
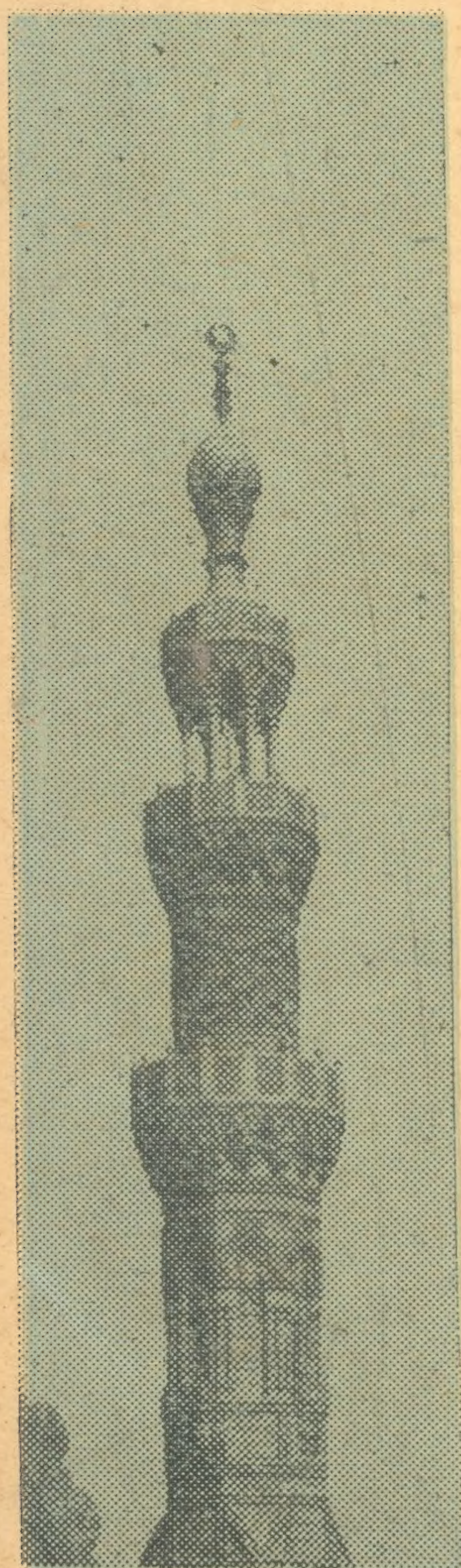


بيوت الله

ساجد ومعاله

الجزء الثاني



بيوت الله
تأجيل وتعليق

الجزء الثاني



من المسجد الحرام ...

... إلى المسجد الأقصى

السحب ، وتبدد من فوقه ضباب الأوهام ...
والأصنام

وفد ذكر القرآن ذلك وما يتصل بذلك حيث
يقول الله فيه : « ان أول بيت وضع للناس للذي
بنيكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام
ابراهيم ومن دخله كان آمنا . والله على الناس حجج
البيت من استطاع اليه سبيلا »

فهو على أنه أول معبد ومسجد لله ، حرم آمن
لا يفرع فيه أحد ، ولا يروع في حماه طير ،
ولا تنتهك فيه حرمت ... وهو الى ذلك مبارك
بكل ما تسع له كلمة البركة من معان دينية
ودنيوية ، وهو مصدر هداية عامة لجميع الناس .
ثم هو البيت المحجوج الذي يفد اليه الناس من كل
فج « رجالا وعلى كل ضامر » ... « ليشهدوا منافع
لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على
ما رزقهم من بهيمة الأنعام » .

وقد ولد النبي صلى الله عليه وسلم في عام
ظهرت فيه آية كبرى تقترن بهذا البيت ، وتكشف
عن مكائته ومنزلته عند الله ، ويعنى بها قصة أبرهة
ابن الصباح الأشرم ... فقد أقبل من اليمن بجيش
كبير ليهدم الكعبة ، ويحول أنظار الحجيج الى
المعبد الذي بناه بصنعاء . ولكن الفيل الذي أحضره
معه لم يطاوعه في التوجه الى الكعبة : فكان كلما

لا يعلم الا الله مدى ما كان يجيش به صدر
النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو بهم بأن يغادر مكة ،
ويهاجر منها الى المدينة . وكل ما لدينا من اثر
يمكن أن يستشف منه لون شعوره واتجاه تفكيره ،
هو هذه الكلمة التي أرسلها في سمع هذا البلد ،
وهو غارق في سبات عميق ، وبصره صلى الله عليه
وسلم معلق بالبيت العتيق : « والله انك لأحب
أرض الله الى ، وانك لأحب أرض الله الى الله .
ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت منك » !

فهذا كلام ينم عن شدة تأثره وتحصره لفراق
هذا البلد ، لا لأنه عرفه وألفه ، وأنفق صباه
وشبابه فيه ... بل لأنه فوق ذلك ، وقبل ذلك وبعد
ذلك ، أحب أرض الله الى الله . ولعل مما يؤكد
ذلك أن يسم به الله ، ومحمد بيه وصفيه يستحل
المشركون ابداءه فيه ، فيقول سبحانه : « لا أقسم
بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد » .

ثم ان لهذا البلد شأننا آخر أعظم وأفخر ، فقد
جعل الله فيه أول بيت وضع لعبادته في الأرض .
وهذا البيت هو المسجد الحرام الذي بزغت منه
شمس الاسلام ، ثم اختنقت أشعتها في سحب
الشرك وضباب الافك ، فتحولت عنه الى يثرب
لتعود اليه بسناها الغامر الباهر ، فتمزق من حوله

وجهوه الى الحرم برك ولم يبرح ، واذا وجهوه الى اليمن أو الى غيره من الجهات هروا . ثم أرسل الله عليهم أسرابا من الطير تقذفهم بحجارة صغيرة قاتلة حتى هلكوا ، وضل سعيهم ... وكان ما يحكيه القرآن بقوله : « ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .

فاذا اقترن مولد النبي صلى عليه وسلم بهذا العام الذي ظفر فيه العرب بالغنيمة من جيش أبرهة ، والسلامة من الشر الذي كان يراد بهذا البيت ... فلا غرابة في أن نرى - كما رأى غيرنا - في ذلك ارهاصا وتوطئة لمبعث محمد « بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » . ولا غرابة كذلك في أن نجد لفراق هذه الأرض ألما مضا في شعور النبي صلى عليه وسلم يعبر عنه بقوله : « والله انك لأحب أرض الله الى ، وانك لأحب أرض الله الى الله . ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت » .

ثم ان هذا البيت بناه ابراهيم واسماعيل عليهما السلام كما يفهم من قوله تعالى : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » ، وابراهيم هو أبو الألباء وامام الناس كما يفهم من قوله جل شأنه : « واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فآثبهن قال انى جاعلك للناس اماما » ، ومحمد عليه السلام كان يشبع ملة ابراهيم كما يفهم من قوله تعالى : « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

وقد تقبل الله دعاء ابراهيم واسماعيل ، فجعل هذا البيت « مثابة للناس وأمنا » ، وفرض عليهم حجه « من استطاع اليه سبيلا » ، وتقبل دعاءهما

وهما يرفعان قواعده ويقولان : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » .

فقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم في أمة أمية ، لا تقرأ ولا تكتب ولا تحسب ، فكان من فضل الله وآياته أن يتلو عليهم - وهو أمي مثلهم - آياته ، وأن يعلمهم - وهو أمي مثلهم - الكتاب والحكمة ، وأن يجمعهم على الهدى ودين الحق بعد أن مزقتهم الإحن والفتن ، وأصبحوا نهبا موزعا بين الفرس في الشرق ، والروم في الغرب ، والحبش في الجنوب ... فصاروا كما يقول الله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . وهذا ما يفهم من قوله تعالى في سورة الجمعة : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

ومن ثم نرى مكانة هذا البيت ، ورسالة محمد عليه السلام ، كأنهما صنوان يقومان على أصل واحد . ولعل في هذا ما يلقي مزيدا من الضوء على جوانب من قوله عليه السلام لمكة ، وبصره معلق بالمسجد الحرام : « والله انك لأحب أرض الله الى ، وانك لأحب أرض الله الى الله . ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت منك » .

هذا هو أول مسجد ظهر على الأرض ... سماه الله البيت العتيق ، ودعا الناس الى أن يطوفوا به

فقال : « ثم ليقتضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » ، وسماه المسجد الحرام فقال : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » ، ونسبه اليه جل شأنه فجعله بيته ، حين قال : « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » ، وسماه حرما آمنا فقال : « أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتحفظ الناس من حولهم » ، وقرن به الخير والأمن فقال : « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ... بل جعله قياما للناس بقوم به صلاح دينهم ودنياهم فقال : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس » .

ومن ثم كان تشوفه صلى الله عليه وسلم اليه ، وتأسفه على فراقه وفراق البلد الأمين الذي يقوم فيه ، وتعبيره عن ذلك كله بقوله لمكة : « والله انك لأحب أرض الله الى ، وانك لأحب أرض الله الى الله . ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت منك » .

الى المسجد الأقصى

وهناك مسجد آخر بلى هذا المسجد فى الرتبة ، ويقترن به فى القرآن وفى أذهان المسلمين والعرب كافة حتى الآن ، وهذا المسجد الأقصى الذى يقول الله فيه : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » . هذا المسجد ينسب بناؤه القديم أصلا الى سليمان عليه السلام ، كما ذكر ذلك الأستاذ محمد عبد الرحيم غنيمه فى كتابه تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى . وقد أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم

ليلا اليه ، ثم عاد الى قومه يتحدث اليهم فى الصباح بما رأى من آيات ربه الكبرى ، فارتد عن الاسلام بعض ممن آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك الى أبى بكر فقالوا : « هل لك فى صاحبك ... ؟ يزعم أنه أسرى به الليلة الى بيت المقدس ! » ، فقال رضى الله عنه : « أو قال ذلك ؟ » . قالوا : « نعم » قال : « لئن قال ذلك لقد صدق » . قالوا : « فتصدقه أنه ذهب الليلة الى بيت المقدس ، وجاء قبل أن يصبح ؟ » . قال : « نعم . انى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ... أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة » .. ولهذا سمي أبو بكر الصديق .

ولسنا بصدد عرض تفصيل قصة الاسراء والمعراج وما قيل حولهما ، وانما نشير اليها مجرد اشارة لنلفت النظر الى أهمية هذا المسجد ، وارتسام صورته فى ذهن النبی صلى الله عليه وسلم . فقد اجتمع حوله قومه ، كما يذكر ابن كثير وغيره ، ممن كتبوا فى التفسير والسيرة ، فقال : « انى أسرى بى الليلة » ، فقالوا : « الى أين ؟ » قال : « الى بيت المقدس » ، قالوا : « ثم أصبحت بين ظهرانينا ! ؟ » قال : « نعم » . فأخذتهم الدهشة ، وصاروا بين مصدق وبين واضح يده على رأسه متعجبا... قالوا : « وتستطيع أن تنعت المسجد ؟ » — وكان فيهم من سافر اليه ورآه — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت ، فجئء بالمسجد — وأنا أنظر اليه — حتى وضع دون دار عقيل — أو عقال — فنعتته وأنا أنظر اليه فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب فيه » .

هذه لمحة سريعة عن قصة الاسراء . وقد وقعت قبل هجرة النبی صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، وفيها ما يشعر بمصير هذا المسجد ومصير

« ايلياء » — وهى مدينة القدس — الى أيدي المسلمين وظل لواء الاسلام . وقد انتزع المسلمون فى عهد عمر هذا المسجد وهذه المدينة من أيدي الروم بعد حصار طويل ، أحكمه عمرو بن العاص حولها حتى يئس المدافعون عنها من النصر ، وكتبوا الى عمر رضى الله عنه برغبتهم فى الصلح على أن يكون هو المتولى لعقده . فحضر عمر رضى الله عنه ، وكتب لهم كتابا نذكر منه ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل « ايلياء » من الأمان ... أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيتها وبريئتها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود ... الخ »

ويذكر المؤرخون أنه ، رضى الله عنه ، شخص بعد ذلك الى بيت المقدس ، وسار حتى دخل كنيسة القيامة . ثم حان وقت الصلاة ، فقال للبطريق : « أريد الصلاة » ، فقال له : « صل موضعك » . فامتنع رضى الله عنه ، وصلى على الدرجة التى على باب الكنيسة منفردا . ولما قضى صلاته ، قال للبطريق : « لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدى ، وقالوا هنا صلى عمر » .

ثم كتب بالآلا يجمع على الدرجة للصلاة ، ولا يؤذن عليها ، ثم قال للبطريق : « أرنى موضعا أبني فيه مسجدا » ، فقال : « على الصخرة التى كلم الله عليها يعقوب » . فذهب اليها فوجد عليها رمادا كثيرا ، فشرع فى ازالته ، وتناوله بيده يرفعه فى ثوبه ، واقتدى به المسلمون كافة حتى

أزالوا التراب . ثم أمر ، رضى الله عنه ، ببناء المسجد . وهو لا يزال قائما يعرف باسم مسجد عمر فى المسجد الأقصى . ومن ثم يتبين أن اليهود لم يكن لهم ظل من سلطان فى هذا المكان .

وفى عهد عبد الملك بن مروان أنشئت قبة الصخرة ، وهى آية من آيات الفن الاسلامي الرفيع . ثم أدخلت على المسجد تعديلات وتجديدات عدة فى العصر العباسي . وفى العصر الأيوبي والعصر المملوكي أنشئت بداخله وحوله عدة مدارس ، أكدت صبغته العلمية ، وجعلت منه جامعة اسلامية .

القبلة

وهناك ظاهرة أخرى لا بد من الإشارة اليها ، ونحن نتحدث عن المسجد الأقصى ومكاته عند الله وفى قلوب المسلمين ، تلك هى أنه عليه السلام كان يتجه بصلاته فى المدينة نحو هذا المسجد وقد قيل كلام كثير فى تعليل ذلك ، كله صحيح أو محتمل للصحة ... فقد قيل انه عليه السلام أراد أن يتألف اليهود ، ويظهر لهم بواقع عمله أنه لا يعارضهم فيما صح عندهم من أمور شريعتهم .

وقد يكون عليه السلام آثر أن يتجه الى بيت المقدس ، وينصرف عن المسجد الحرام ريثما يتطهر من الأوثان التى تحيط به ، والأصنام التى تجثم فوقه . وقيل كذلك ان ذلك الاتجاه كان توجيهها من الله لتحقيق ما كان يجده اليهود فى كتبهم ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم سيصلى الى القبلتين ، كما ذكر فى تفسير قوله تعالى : « وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق » . وقد يكون ذلك — وهو أوضح وأصرح من كل ما قيل — ليحرص المسلمون على بيت المقدس ويضعوه فى المنزلة التالية للمسجد الحرام ، كما يفهم من اسراء النبى

اليه ، واقترائه بالمسجد الحرام في القرآن ، وفي اتجاه المسلمين اليه فترة من الزمان .

على أى حال . لقد كان عليه السلام على الحق والخير فيما كان منه من قبل ومن بعد ، ولم يكن الاتجاه الى بيت المقدس قبل أن يكمل الله دينه ويتم نعمته ... بل انه صلى الله عليه وسلم لم يكذب على اقامته في المدينة بضعة عشر شهرا يصلى فيها الى بيت المقدس حتى يشعر بالحنين يشده الى المسجد الحرام ، ويجذب قلبه اليه ... فكان اذا انتهى من صلاته رفع بصره الى السماء ، وقلب نظره فيها ، يتشوف ويستشرف ، ويستحضر في ذهنه وقلبه كل ما أشرنا اليه من اعتبارات تثير شوقه الى بيت الله الحرام ، وترضى نفسه النزاعة اليه ، وتجمع المسلمين حول هذا البيت الذى كان أول بيت وضع للناس في الأرض ... ومن ثم نزل قوله تعالى : « قد فرى قلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون . ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما ألت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين » .

والمتمعن في هاتين الآيتين يجدهما تشفان عن كل ما ذكرنا وكررنا في الحديث عن المسجد الحرام ... بل يجد أكثر مما ذكرنا . وقد روى ابن جريج ، عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي » . فهل كان عجيبا من محمد عليه السلام أن نجيش

نفسه ، وهو بهم بمغادرة مكة ، بهذه الاحساسات والميول والنزعات التى ترجم عنها أو عن بعضها بهذه الكلمة التى أرسلها في سمع مكة ، وهى غارقة في سبات عميق ، وبصره معلق بالبيت العتيق : « والله انك لأحب أرض الله الى ، وانك لأحب أرض الله الى الله . ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت منك » .

الى مسجد قباء

... ومضى النبی صلى الله عليه وسلم في طريقه الى الهجرة ، بعد أن ودع مكة بتلك الكلمات التى تقطر عبرات وتخفق زقرات ... ، ومضى معه صاحبه أبو بكر رضى الله عنه ، ومضى معهما دليلهما عبد الله بن أريقط ... ومضت عليهم الليالي والأيام يقطعون المفاوز والسهول ، حتى نزل عليه السلام في قباء على بنى عمرو بن عوف . فجلس عند كلثوم بن الهدم ، وقام أبو بكر يتلقى الناس الذين قدموا لرؤية رسول الله .

ثم أسس صلى الله عليه وسلم في هذا المكان أول مسجد بنى في الاسلام ، وهو مسجد « قباء » الذى يقول الله فيه : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » ، وهو — كما قال الحافظ — أول مسجد بنى في الاسلام ، وأول مسجد صلى فيه عليه السلام بأصحابه جماعة ظاهرا ، وأول مسجد بنى لجماعة المسلمين عامة .

وروى الترمذی عن أسيد بن ظهير ، عن النبی صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الصلاة في مسجد قباء ركعتين أحب الى من أن آتى بيت المقدس مرتين ... لو يعلمون ما في قباء لضربوا اليه أكباد الابل » . وأخرج الشيخان عن ابن عمر أنه قال : « كان صلى الله عليه وسلم يزور قباء أو يأتى قباء راكبا أو ماشيا » .

الى مسجد الجمعة

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم من قباء ، بعد أن أقام فيها ما أقام ، حين ارتفع النهار من صباح يوم الجمعة ، فأدركته الصلاة في أرض بنى سالم بن عوف ، فصلى بمن كان معه من المسلمين في مسجدهم ، وكان يطلق عليه اسم « غيب » (بضم الغين وفتح الباء وتسكين الياء) ، ثم سمى بعد ذلك مسجد الجمعة . وكان ، كما تذكر كتب السير ، مبنيًا بحجارة قدر نصف القامة على يمين السالك الى مسجد قباء .

الى المسجد النبوي

وبعد أن انتهت الصلاة ، ركب صلى الله عليه وسلم راحلته ، وأردف خلفه أبا بكر ، ثم اتجه الى المدينة ... فكان كلما مر على دار من دور الأنصار دعوه الى المقام عندهم ، وقالوا : « يا رسول الله هلم الى القوة والمنعة » ، ثم يحارلون وقف ناقته فيقول : « خلوا سبيلها فانها مأمورة » .

وكانت هذه الناقة تدعى القصواء ، فلم تنزل تسير به حتى بركت في مريد ، وهو — كما روى البخاري عن عائشة — مكان ، « كالجرن » يجفف فيه التمر ، وكان يملكه يتيمان هما سهل وسهيل ابنا عمرو . ثم ثارت الناقة ، وعليها رسول الله ، ومشت حتى بركت على باب أبي أيوب الأنصاري . ثم ثارت وعادت فبركت في مبركها الأول ، وألقت جرائنها — وهو باطن عنقها — على الأرض ، وأرزمت (صوتت دون أن تفتح فاهها) ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم عنها ، وقال : « هذا المنزل ان شاء الله » ، فاستأذنه أبو أيوب الأنصاري وحمل رحله الى بيته . وكان من بنى النجار أخوال عبدالمطلب جد النبي عليه الصلاة والسلام .

هذا المكان الذي بركت فيه الناقة ، أقيم عليه المسجد النبوي الشريف بعد أن اشتراه صلى الله عليه وسلم بعشرة دنانير ، وأبى أن يقبل ما عرضه عليه بنو النجار من أخذه دون ثمن . ويذكر الرواة أن أبا بكر رضى الله عنه دفع هذا الثمن من ماله . وقد سويت الأرض ، وقطع ما كان فيها من نخل ، ثم أقيم البناء من اللبن — وهو الطوب النيء — أو من الجريد المطين أولا كما ذكر بعض الرواة ، وجعلت عمدته من جذوع النخل ، وسقف بالجريد ، وجعل له ثلاثة أبواب ، وخصص مكان مظلل فيه للنساكين يلجأون اليه ، أطلق عليه اسم الصفة وأطلق على اللاجئين اليه اسم أهل الصفة ... ثم بنيت بيوته صلى الله عليه وسلم الى جنب هذا المسجد .

مساجد .. ومعاهد ..

هذه هي المساجد الأولى التي لمعت أسماؤها في أول عهد العرب بالاسلام . ثم تتابع انشاء المساجد في كل مكان يرتفع فوقه علم التوحيد ، حتى أصبح من العسير احصاؤها واستقصاؤها .

وقد ذكر السهيلي أن مساجد المدينة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، كانت تسعة سوى مسجده عليه السلام ، منها : مسجد رائج ، ومسجد بنى عبد الأشهل ، ومسجد بنى عمرو بن مبدول .

وإذا كان المسجد النبوي آخر ما تحدثنا عنه ، فإنه — من حيث صفته العلمية — أول معهد علمي أنشئ في الاسلام . وقد أدخل على هذا المسجد ما أدخل من تجديدات وتوسعة حتى صار تحفة فنية رائعة . ولكن العالم كله مدين له — رهو من الطوب والجريد وجذوع النخل — بما وصل اليه من حضارة فكرية ومبادئ انسانية ..

بل ان البشرية في مختلف أطوارها وأدوارها لم تعرف أجمل ولا أمثل من الرسالة الإسلامية التي حمل لواءها محمد عليه السلام ، وحمل العسرب أمالة الدعوة إليها في كل البقاع والأصقاع ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

كانت حلقات الدرس تعقد في هذا المسجد ، فيقبل عليها الرجال والنساء . ثم شكا النساء من مزاحمة الرجال فطلبن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهن يوما غير يوم الرجال ، فأجابهن الى ما طلبن . وبهذه الدروس التي كان يلقيها أستاذ البشرية ورسول الرحمة الى الانسانية ، كما يقول الله : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ، صنع صلى الله عليه وسلم ممن كانوا يأخذون عنه ، ويتلقون منه ، كواكب تتألق في سماء هذه الدنيا بالعلم والحكمة والخلق العالى الرفيع .

وكان المحور الذى تقوم عليه رسالته ودعوته « هو هذا الكتاب الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ، ثم بيانه لهذا الكتاب بما كان يفعله أو يلقى أو يقصره ... ثم كان التراث الفكرى الذى لم تظفر بمثله أمة من الأمم ، هو ثمرات يانعة لدراسة الكتاب والسنة وكان مجد هذه الأمة الذى قام على العلم والخلق والأدب والقوة والعدل والاخاء ، هو التفسير العملى لقوله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » وآخرين منهم لما بلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

وحسبنا في هذا المقام أن نذكر قوله صلى الله

عليه وسلم : « من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه ، ووضعها في غير منزلته التي وضعه الله بها حيث يقول : وما أوتيتم من العلم الا قليلا ... » . وأن نذكر قول ابن شهاب ، شيخ مالك ابن أنس : « جمعنا العلم من رجال في هذه الروضة » ، ويعنى بها ما بين قبره صلى الله عليه وسلم ومنبره . وناهيك بمالك صاحب الموطأ والمدونة ، وامام المذهب الذى اقتبست منه فرنسا كثيرا من قوانينها ... بل حسبنا أن نذكر قوله تعالى في محمد والذين معه : « ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .

وكان مسجده صلى الله عليه وسلم جامعة يلتقى فيها الناس من جميع الأجناس والقوميات ... فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وكثيرون غيرهم من قريش ، وأبو ذر من تهامة من قبيلة غفار ، وأبو هريرة من أوس احدى قبائل اليمن ، وأبو موسى الأشعرى من قبيلة أخرى من اليمن ، وضمار بن ثعلبة من قحطان من قبيلة الأزد ، وخباب بن الأرت أخو بنى تميم ، ومنقذ ابن حبان بن عائذ من البحرين ، وفردة بن معاذ من الشام ، وبلال من الحبشة ، وصهيب من الروم ، وسلمان من فارس ، وفيروز الديلمى .

وهكذا ، كما نقول الدكتور محمد يوسف موسى فى كتابه العظيم « الاسلام وحاجة الانسانية اليه » : « نرى المدرسة المحمدية مفتحة للواردين اليها من كل أمة ، ومن شتى طوائف البشر . وبعد هذا وذاك كله كان خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلى الله وسلم عليهم جميعا ، بشخصه الكريم العظيم ،

وبما جمع الله له من نبيل الخلائق والسجايا ، مثلاً
أعلى لكل ما تفرق في اخوانه الأنبياء من المثل
العليا للخير والحق » .

عود على بدء

ونعود الى المسجد الحرام الذي ابتدأ منه
حديثنا ، فنجد عبد الله ابن عباس صاحب حلقة
الفتيا فيه ، ثم صارت من بعده لعطاء بن رباح ،
ثم من بعده لابن جريج ، ثم من بعده لمسلم ابن
خالد الزنجي ، ثم من بعده لسعيد بن سالم
القداح ، ثم لمحمد بن ادريس الشافعي . وقد كان
التدريس ، ولا يزال ، قائماً فيه حتى الآن .

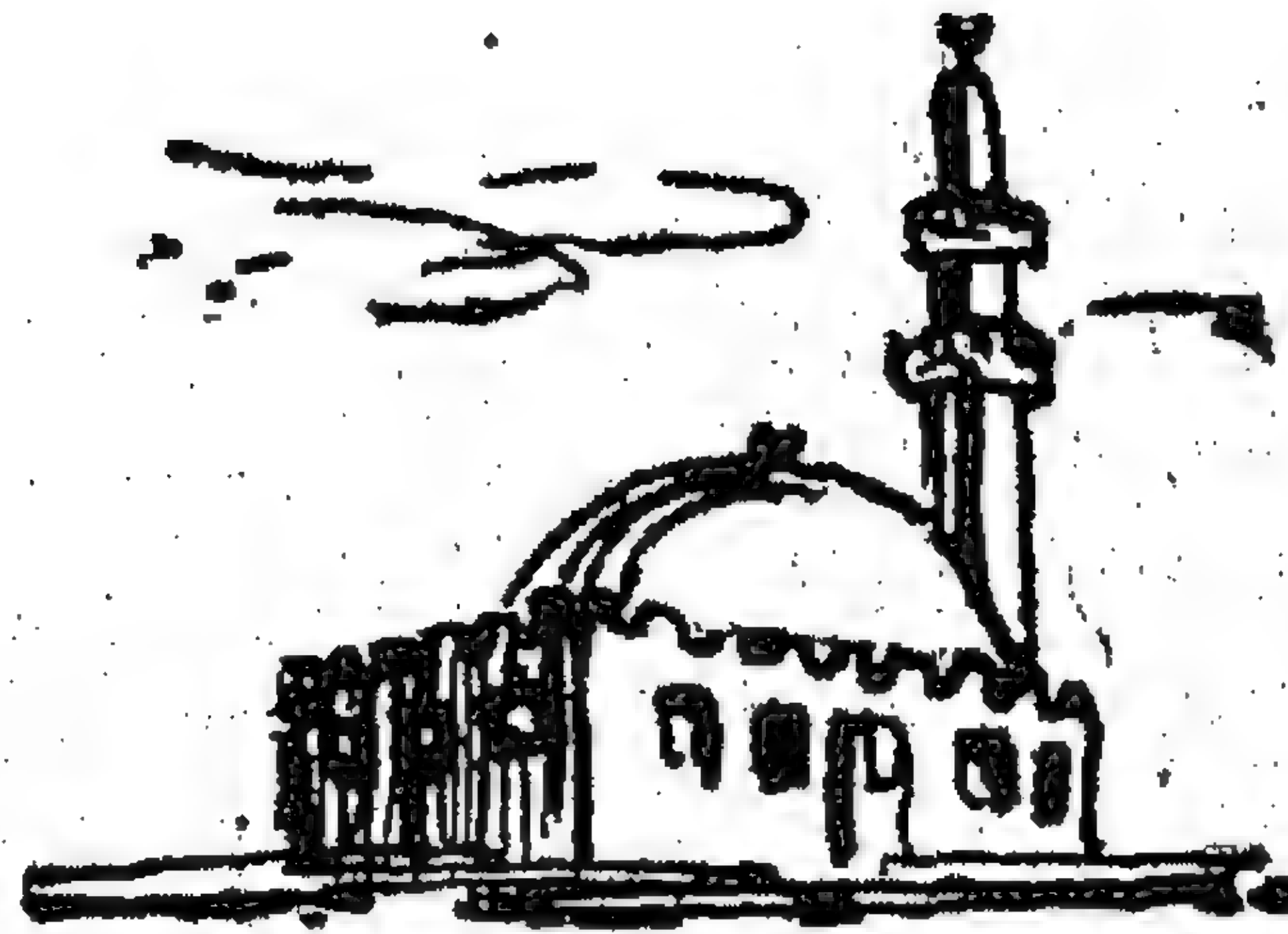
أما المسجد الأقصى فكان كذلك جامعة اسلامية
كبرى . وقد أنشئت فيه وحوله عدة مدارس في
العصرين الأيوبي والمملوكي ، منها : المدرسة الشريفة
السلطانية الأشرفية ، وهي بداخله بالقرب من باب
السلسلة ، والمدرسة الناصرية وهي من المدارس
التي أنشئت حول هذا المسجد ، وقد سميت فيما
بعد بالغزالية لأن الامام أبا حامد الغزالي أقام
فيها . وقد أعاد انشاءها الملك عيسى الأيوبي ،
وجعلها زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو ،
ووقف عليها كتباً منها اصلاح المنطق لابن
السكيت . ومنها المدرسة النحوية ، وهي على
طرف صحن الصخرة من جهة القبلة الى الغرب ،

وقد بناها أيضاً الملك عيسى الأيوبي . وإذا كان
اقتران اسم أبي حامد الغزالي بهذه الجامعة من
الشارات العلمية المميزة ، فإن المحدث الكبير
المعروف باسم « ابن الصلاح » من الأعلام التي
اشتهرت ، واقترن اسمها بهذا المسجد العظيم .

ولا يتسع المقام لذكر المسجد الجامع بالبصرة ،
والمسجد الجامع بالكوفة ، والمسجد الجامع
بالفسطاط ، والجامع الأموي بدمشق ، وجامع
الزيتونة بتونس ، والمسجد الجامع بالقيروان ،
وجامع المنصور ببغداد ، والجامع الأعظم في قرطبة
بالأندلس ، وجامع القرويين بفاس ، وجامع ابن
طولون في مدينة القطائع بمصر ... فهذه الجوامع
كلها كانت ولا يزال بعضها جامعات علمية اسلامية
عربية قامت بنصيبها الوافر وقنسطها المقدور
المشكور في خدمة الثقافة العربية ، وتنمية التراث
الاسلامي ، وامداد العقل البشري بما قواه ونماه
وكشف له طريق المعرفة في أطباق الأرض وآفاق
السماء .

وإذا كانت المساجد معابد ، فانها الى ذلك —
ويجب أن تكون كذلك — معاهد كما كانت في
عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفي عهود
ازدهار الاسلام .

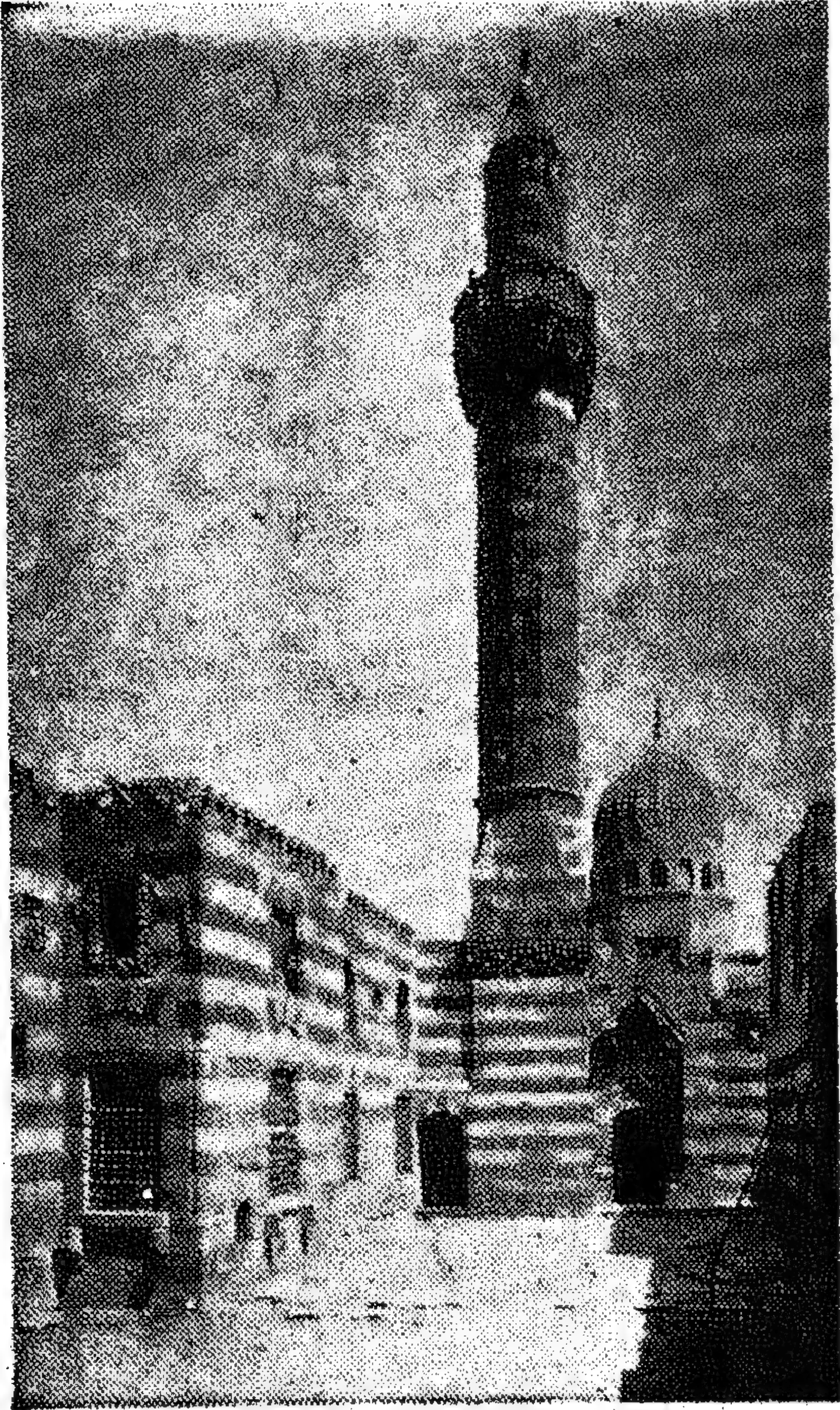
هيد الرحيم فوده



مسجد عقبة بن عامر

عمرو بن العاص ، ثم عين والياً عليها من قبل معاوية ابن أبي سفيان في ذي الحجة عام ٤٤ هـ (٦٦٥ م) ، وظل والياً عليها الى أن صرف عنها في شهر ربيع الأول عام ٤٧ هـ (٦٦٧ م) .

وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر ، ثم أقام بمصر الى أن توفي سنة ٥٨ هـ (٦٧٨ م) . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين منهم : ابن عباس ، وأبو أمامة



مسجد عقبة بن عامر

هذا المسجد في الطرف القبلي الشرقي لقرافة الامام الشافعي ، وفي نقطة هامة من القرافة الكبرى تضم رفات أعلام أجلاء ، في مقدمتهم عقبة بن عامر بالتحقيق ، وعمرو بن العاص على ما قاله غير واحد من المؤرخين .

والمنطقة التي تضم هذا الجامع هي قرية صغيرة كانت تحدها الى عهد قريب من الخارج ، بوابة كبيرة تؤدي الى فضاء كبير به قبور كثير من الأعلام ، منهم : الشيخ الصالح الزاهد أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم المصري الذي توفي عام ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ، والشيخ عثمان الزيلعي شارح كتاب الكنز في فقه الحنفية المتوفى عام ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م) ، ثم باب آخر يؤدي الى طرقة تنتهي الى حوش كبير يصدره جامع عقبة وملحقاته .

عقبة بن عامر

هو السيد عقبة بن عامر بن عيس بن غنم بن عدي ابن عمرو بن رفاعة بن جهينة الجهني الصحابي ، من أعلام الصحابة ، ومن خدام النبي صلى الله عليه وسلم . كان رحمة الله محدثاً ، عالماً بالفرائض والفقه ، كاتباً شاعراً ، وهو آخر من جمع القرآن ، وأول من نشر الرايات على السفن . قال أبو سعيد ابن يونس : رأيت مصحفه بمصر . وفي آخره « كتبه عقبة بن عامر بيده » .

اشترك رضي الله عنه في الفتوح الاسلامية ، وكان رائد عمر بن الخطاب عند فتح دمشق ، كما شهد فتح صفين مع معاوية ، وشهد فتح مصر مع

وغيرهما ، ولأهل مصر فيه اعتقاد عظيم ، ولهم عنه نحو مائة حديث .

وقال الشيخ الموفق بن عثمان في تاريخه المرشد :
ناقلا عن حرملة من أصحاب الشافعي : « ان البقعة
التي دفن فيها عقبة بها أيضا قبر عمرو بن العاص ،
وقبر أبي بصرة الصحابيين » .

وكان قبر عقبة موضع رعاية المصريين يقصدونه
للزيارة والتبرك ، كما كان يقصد اليه زائرو مصر
ورحالتها . وكان ملحقا به متحف حربى صغير يضم
سيفه وترسه . ولقد حرص كثير من أجلة العلماء
على أن يدفنوا بجواره تبركا به حتى غدت بقعته
مقبرة للعظماء .

ظل قبره موضع عناية ملوك مصر وولاتها وكان
أول من عنى به ملك مصر صلاح الدين يوسف
ابن أيوب ، فقد هدم القبة التي كانت على قبره ،
وأنشأ غيرها قبة عظيمة . وكذلك جده ملك مصر
الكامل محمد بن الملك العادل .

وفي عام ١٠٦٦ هـ (١٦٥٥ م) عنى بتجديده
المسجد والبلوغ به الى ما هو عليه الآن ، والى مصر
الوزير محمد باشا سلحدار ، الملقب بأبى النور ،
وألحق به زاوية لتعليم الأطفال وميلا ، كما أنشأ
حوله مساكن للموظفين ، ورصد عليه وعلى غيره
من منشآته الخيرية أوقافا كثيرة ومن طريف ما
تضمنته وقفه تعيين أربعة « سيمانية » من رماة
البندق برسم الحراسة والمحافظة على المسجد
وملحقاته (باعتباره في منطقة نائية قليلة العمران) .

وهو مسجد صغير بسيط البناء ، وتشتمل
واجهته الغربية على الباب العام ، وتقوم على
يساره قاعدة مربعة تنتهى بمقرص ، تحمل منارة
مرتفعة ذات دورة واحدة ويتصل بهذه الواجهة
السييل ، ويؤدى الباب الى دركاة مربعة تحتوى

على سلم يؤدى الى المنارة ، كما تضم قبور مشايخ
المسجد ... منهم الشيخ ابراهيم المتوفى عام
١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) وتتصل هذه الدركاة
بمسجد مستطيل يشتمل على رواقين يتوسطهما صف
من العقود المحمولة على عمد حجرية مشنة . وقد
حلى سقفه بنقوش ملونة ، ومكتوب بازار سقف
الرواق الشرقى أبيات من قصيدة البردة . ويحيط
بجدران المسجد مجموعة من الشبايك الجصية
المحلاة بالزجاج الملون . ويشرف بناء المسجد من
الجهة الشمالية على قبر وجيه الدين عيد الوهاب
البهتسى ، قاضى قضاة مصر في القرن السابع
للهجرة (الثالث عشر للميلاد) ، وعلى قبر نوح
أفندى مصطفى ، من علماء الحنفية المتوفى عام
١٠٧٥ هـ (١٦٥٩ م) ، والشيخ أحمد بن الشيخ
محمد الامام ، راوية سيدنا عقبة المتوفى عام
١١٧٣ هـ .

ومن الأعلام الذين دفنوا في الجهة القبلىة للقبة
العلامة عبد الرحمن بن عبد الملك الشافعى . فقد
عثر على شاهد قبره مطمورا . وقامت ادارة حفظ
الآثار العربية بتثيته على الواجهة القبلىة للقبة
ونصه : « الحمد لله الباقى بعد فناء خلقه هذا قبر
الفقير الى رحمة ربه ، المستقيل من جريمته
وذنبه ، عبد الرحمن بن عبد الملك بن عبد المحسن ،
القرشى سبا ، الشافعى مذهبيا ، الأشعرى معتقدا .
تغمده الله برضوانه ، وأسكنه فى دار أمانه . توفى
الى رحمة الله تعالى فى ليلة يسفر صباحها عن يوم
الخميس رابع شهر رمضان المعظم سنة سبع
 وخمسين وستمائة ، رحمه الله وعفا عنه وعن جميع
المسلمين » . والى جانبه قبر ولده ، وفى غربيهم قبر
شهاب الدين بن أبى حجلة وولده .

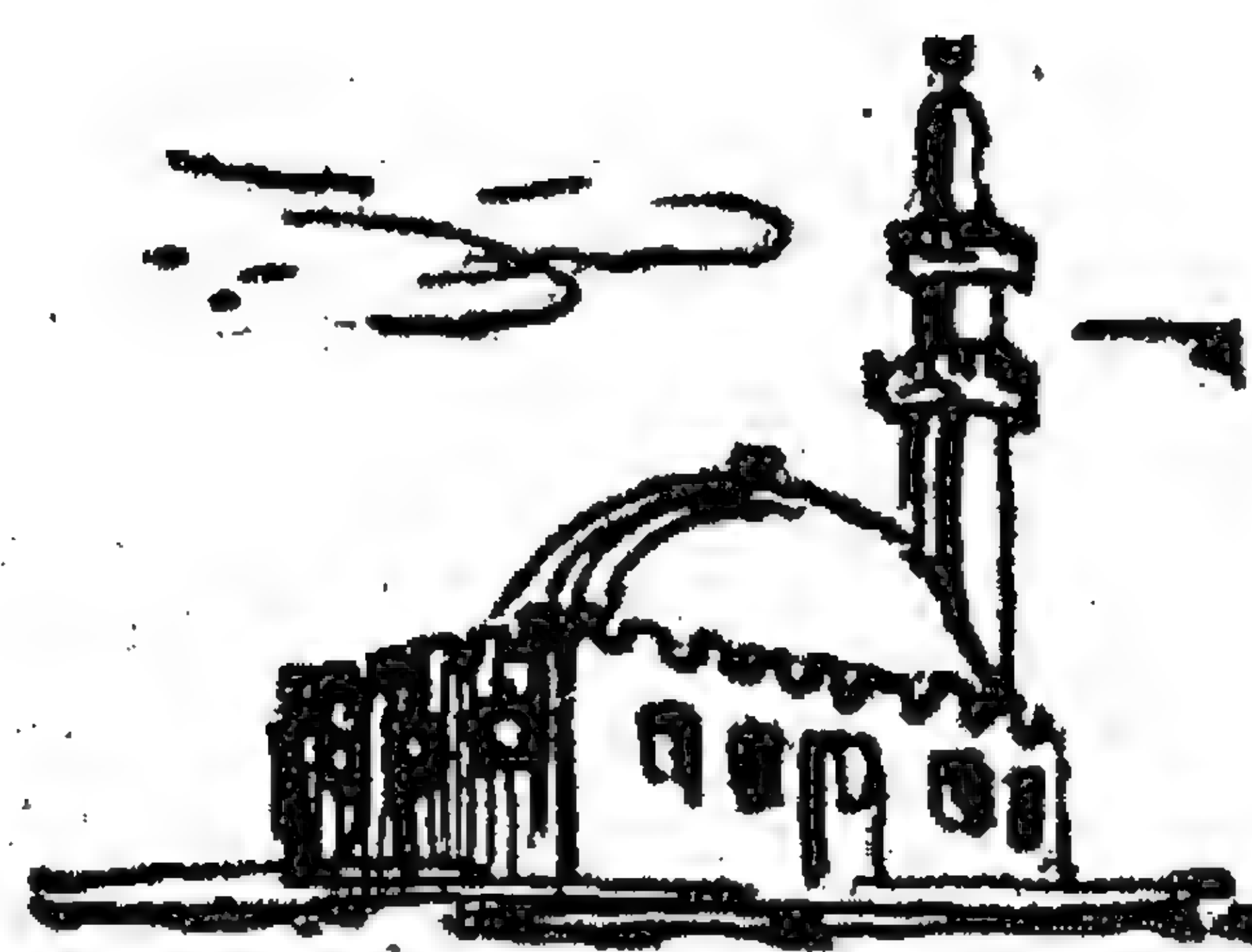
والقبة — وبها قبر عقبة رضى الله عنه — فى

(١٥٤٤ م) بحوش برسباى البجاسى ، وهى أجمل
قبة أنشئت فى العصر العثمانى .

وتكسية رقاب القباب بالقاشانى ظهرت بمصر فى
أول القرن الثامن للهجرة ، فى قبة سبيل الناصر
محمد بن قلاوون ، لصق المدرسة المنصورية . وفى
قباب طشتمر حص أخضر ، وأم آنوك ، وأصلم
السلحدار ، وابن غراب .

ثم تطورت الى تكسية القبة كلها بالقاشانى فى
القرنين : الثامن والتاسع للهجرة (الرابع عشر
والخامس عشر للميلاد) مثل قباب الناصر محمد بن
قلاوون بالقلعة والامام الشافعى والغورى بالغورية
وسليمان باشا بالقلعة والشيخ سعود بشارع سوق
السلاح . والتكية السليمانية بشارع السروجية .
حسن عبد الوهاب

الركن الغربى القبلى للمسجد ، عليها مقصورة
خشبية . وهى منقوشة من الداخل نقوشا تحاكي
القاشانى ، ومكتوب على طراز مربعها آية
الكرسى ، بها من الداخل قطعة رخام سوداء لها
بريق . وأمام القبر شاهد من الرخام مكتوب على
أحد وجهيه آية الكرى ، وعلى الوجه الآخر
ما نصه : « هذا مقام العارف بالله تعالى الشيخ
عقبة بن عامر الجهنى الصحابى ، رضى الله تعالى
عنه . جدد هذا المكان المبارك الوزير محمد باشا
سلحدار ، دام بقاءه فى سنة ست وستين وألف » .
والقبة من الخارج مضلعة ، وبرقتها كسوة من
القاشانى ميزتها على قباب عصرها . وهى ثمانية
القباب العثمانية التى كسيت رقتها بالقاشانى ،
والأولى قبة الأمير سليمان أغا عام ٩٥١ هـ



مسجد الرفاعي

موقع المسجد قبل انشائه

كان يشغل جزءا من أرض هذا المسجد مسجد الذخيرة الذي وصفه المقرئى بأنه كان تجاه شبايك مدرسة السلطان حسن التى تلى بابها الكبير . أنشأه ذخيرة الملك جعفر ، متولى الشرطة ووالى القاهرة ومحتسبها ، حوالى عام ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) . وكان هناك أيضا زاوية ، عرفت بالزاوية البيضاء وبزاوية الرفاعي ، اشتملت على قبور المشايخ : على أبى شباك ، ويحيى الأنصارى وآخرين ، ثم عدة منازل .

وفى كتاب « وصف مصر » للحملة الفرنسية لوحة تمثل زاوية الرفاعي فى نهاية القرن الثامن عشر للميلاد وما جاورها من أبنية يظهر بها مسجد المحمودية حتى شارع سوق السلاح . كما عثر على لوحة ملونة عملت عام ١٨٦٤ بريشة المصور « فرنك ديللون » الذى قدم مصر عام ١٨٥٤ — ١٨٥٥ م . وهى تمثل هذه المنطقة وزاوية الرفاعي وسبيل تركيا واجهته مستديرة وأبنية أخرى .

وفى عام ١٢٨٦ هـ (١٨٩٦) أمرت « دولتو » خشيار هانم ، والددة « الخديو اسماعيل » ، بتجديد زاوية الرفاعي . فاشترت الأماكن المجاورة لها وهدمت . وعهدت الى المرحوم حسين باشا فهمى المعمار باعداد مشروع لبناء مسجد كبير يلحق به مدافن لها ولأسرتها ، وقبتان للشيخين على أبى شباك ويحيى الأنصارى . فصدع بالأمر ، وأعد

مشروعا كبيرا عرض عليها ، فوافقت عليه ، وشرع فى العمل . واستمر العمل سائرا حتى ارتفع على وجه الأرض نحو مترين . وفى الوقت نفسه كان العمل سائرا فى القصر العالى فى أعمال النجارة ، كما أجرى تشغيل الأبسطة اللازمة لفرش المسجد .

وحوالى عام ١٨٨٠ م ، أوقفت العمارة . ثم توفيت المنشأة عام ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) ، وظل العمل موقوفا نحو ربع قرن . وفى عام ١٩٠٥ عهد الخديو عباس حلمى الثانى الى أحمد خيرى باشا ، مدير الأوقاف الخصوصية . باتمام المسجد . وكلف هرتس بك (باشا) باشمهندس الآثار العربية وقتئذ باعداد مشروع لأصلاح المسجد وتكملته . وأعد المشروع ، وعرضه فقال القبول ، وصدر اليه الأمر فى ١٢ من يونيه عام ١٩٠٦ بالشروع فى العمل .

ويقول هرتس باشا : ان تصميم حسين باشا لهذا المسجد من أحسن وأجمل المساجد المنشأة فى عصره ... أغراه على وضع تصميمه بهذه العظمة وجود مسجد السلطان حسن أمامه . ورغم وجود أخطاء فيه ، وحدوث تصدع فى عمده وجدرانه ، فان هذا لا يقلل من قيمة عمله العظيم . ولذلك فانه حرص كل الحرص على ألا يغير كثيرا فى مشروع حسين باشا المعمار ، لدرجة أنه لو كان حاضرا لرضى بهذه التعديلات .

ثم أخذ فى تقوية الجدران ، وتغيير التالف من الأبنية والعقود ، مما يحفظ المسجد من الانهيار ،

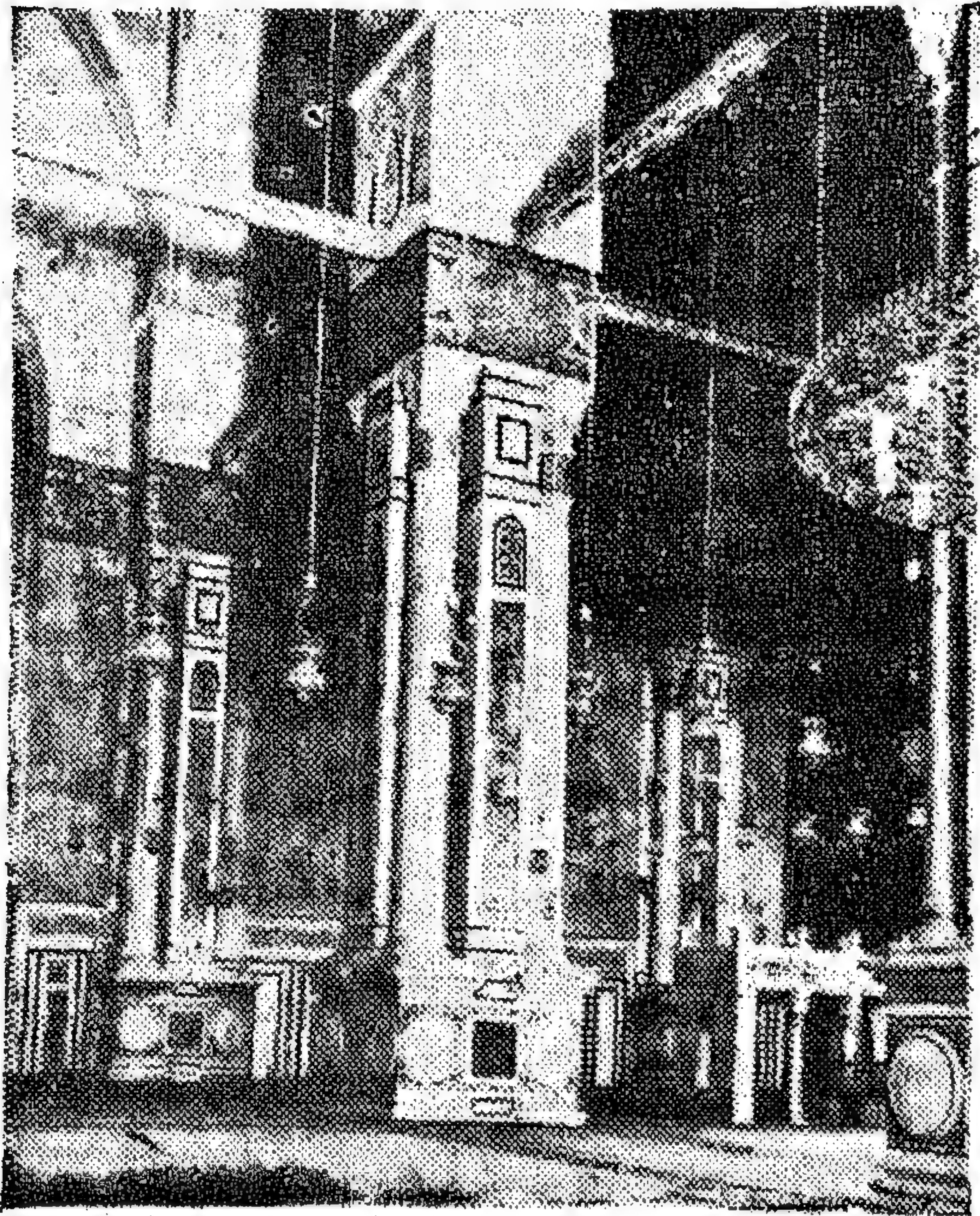
بمساجد مصر في القرنين الثامن والتاسع للهجرة
(الرابع عشر والخامس عشر للميلاد) . ومنها
نحو ٤٢٠ مشكاة مطلية بالميناء عملت في بوهيميا ،
وعليها كتابات قرآنية وتاريخية .

وفي ختام عام ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) تم العمل ،
وافتح المسجد بصلاة الجمعة في غرة المحرم عام
١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) .

الرفاعي

هذا المسجد — وان سمي بمسجد الرفاعي —
لم يدفن فيه الرفاعي ، بل انه لم يدفن في مصر ،
لأن السيد أحمد الرفاعي الكبير لما توفي عام
٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) دفن بأم عبيدة من أعمال
واسط بالعراق .

وهذه التسمية لازمت الزاوية أولاً ، ثم المسجد
نسبة الى الشيخ المدفون به على أبي شباك من ذرية
الرفاعي ، ومن أصحاب الشهرة والاعتقاد .



داخل مسجد الرفاعي



واجهة مسجد الرفاعي

ويساعد على المقاومة . وهذه التعديلات استلزمت
بعض التحوير في المشروع القديم ، واستنفد
مجهوداً جباراً كي يحافظ على الوضع الذي كان
حسين باشا يحب أن يكون عليه المسجد . وقد
أدخل في عمارة المسجد ما كان موضوعاً في مخازنه
على ذمة عمارته منذ عام ١٨٨٠ . فانتفع بالذهب
الذي كان مستورداً من اسلامبول ، وبالنجارة
التي تم عملها ، وبيع بعض الكتابات التي كان أعدها
الخطاط المشهور عبد الله بك زهدى . وقام بتكملة
الناقص من الكتابات المرحوم الشيخ مصطفى
الحريري الخطاط .

وكانت التكاليف الأصلية المقدرة لهذا الجامع
خمسمائة ألف جنيه ، فاستنفد هذا المبلغ في الأعمال
التي أنجزت حتى عام ١٨٨٠ . أما ما صرف بعد
ذلك فبلغ ١٣٢٥٠٠ جنيه ، مضافاً اليه مصاريف
قليلة أخرى . ويدخل في هذا المبلغ الأبسطة
الجديدة التي عملت في حركة بتركيا ، والمشكاوات
الزجاجية التي عملت على مثال المشكاوات الأثرية

وصف المسجد

حقا ان مسجد السلطان حسن أغرى مهندس هذا الجامع بأن يجاريه في العظمة والارتفاع ، ولكن مع الأسف لم يوفق في تصميم الواجهات ، كما أنه لم يوفق في اختيار الأحجار .

وهذا ما لاحظته المرحوم على باشا مبارك ، غير أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأنه من خيرة المساجد التي أنشئت في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد وأوائل القرن العشرين ، وأحفلها زخرفا وأتقنها صناعة .

وقد نجح كل النجاح في محاكاته لمدرسة السلطان حسن في ضخامتها وارتفاعها ... فالمداخل تبدو عليها العظمة ، فقد بيت شاهقة تكتنفها العمدة الحجرية والرخامية بتيجانها العربية ، وحليت أعتابها بمزرات الرخام ، وغطيت بسقف أحسن اختيارها وصاحب التوفيق تلوينها وتذهيبها . وقد امتازت مناراته بالرشاقة والجمال وأقيمتا على بدن مستدير مثل منارتى مدرسة السلطان حسن . والشبابيك النحاسية وضع لها تصميم خاص بزت به ما سبقها من قديم وحديث .

والمسجد من الداخل تبلغ مساحته ٦٥٠٠ متر : منها الجزء المخصص للصلاة ، ومساحته ١٧٦٧ مترا ، وخصت المدافن وملحقاتها ببقية المساحة .

ويتوسط الواجهة الغربية الباب ، وهو باب رائع جميل حافل بأنواع الرخام والمقرنصات ، ويؤدي الى مؤخر الجامع ، وقد كسيت جدرانه بالرخام المختلف الألوان والكتابات الجميلة وعلى يمين الداخل من هذا الباب قبر الملك فؤاد الأول ، وجدرانه مكسوة بأنواع الرخام الملون ، وعليه تركيبة رخامية حليت بزخارف مذهبة . والى جواره قبر والدته الأميرة فريال المتوفاة عام

١٣٢٠ هـ . وسقف هذا الجناح وكراديسه نقشت باللونين الأزرق والأبيض تقليدا لسقف الخانقاه الشيخونية ، وحليت الجدران بنقوش فكرت أرضيتها باللون الأزرق .

ويقابل الداخل من الباب المذكور حجرة طعمت مصاريعها بالسن ، وحليت أعتابها وما حولها بنقوش ملونة وتطعيم بالرخام ، بها قبر الشيخ على أبو شباك ، وقد أقيمت فوقه قبة حليت مقرنصاتها بالذهب والألوان ، تتوسطها مقصورة خشبية مطعمة بالسن والأبنوس ذات عمد رشيقة ، وبها خرط دقيق . ولا شك أنها من أرقى أنواع المقاصير . ويسترعى النظر في هذه القبة أن قطبها مفرغ بأشكال هندسية غطيت بالزجاج الملون، وفتح بأجنحتها الأربعة أبواب تؤدي الى الجامع . وبين البابين القبليين حجرة بسيطة يتوسطها تابوت خشبي ، بها قبر سيدى يحيى الأنصارى ، تعلوها قبة حجرية عارية من الزخرف ، وهى التى تظهر بين المنارتين .

وقد ارتفعت جدران المسجد وسقوفه ، وحليت جميعها بمزرات رخامية مختلفة الألوان ، كما اشتملت الأسقف على ألوان براقة تأخذ بالأبصار ، أحسن اختيارها ، وتنوعت أشكالها وبعضها مفرغ ومغطى بالزجاج .

وان الزائر لهذا المسجد يؤخذ بما حواه من فنون جميلة وصناعات دقيقة . وقد وفق هرتس باشا فى أن يختار له من كل أثر أحسنه ، حتى كون منه درة بين المساجد الحديثة تنقل العين فيه من حسن الى أحسن . ويتوسط الجدار الشرقى المحراب ، وهو محراب كبير يكتنف كلا من جانبيه عمودان : أحدهما أبيض ، والآخر أسود . وقد حلى باطنه برخام دقيق ، كما حلى عقده بمزرات رخامية ملونة ، ويحيط به افريز يعلوه سطر مكتوب فيه

قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك في السماء
فلنولينك قبلة ترضاها » .

وعلى جوانب المسجد وفي وسطه أقيمت أكتاف
خلقت بنواصيها عمدا رخامية ، وكسيت بالرخام
الدقيق كما كسيت قواعدها بدوائر رخامية تنوعت
أشكال زخارفها . ويقوم على جانب المحراب منبر
كبير طعمت حشواته بالسبن والأبنوس وخشب
الجوز ، ونقشت خوذته ومقرنصات مقدمه بالذهب
والألوان . وكرسى المصحف من نوع صناعة

المنبر ، وكلاهما على جانب عظيم من الأهمية . ودكة
المبلغ مقامة على عمد رخامية وقد حفلت بالنقوش
المذهبة .

أما الجانب البحرى للمسجد ، فقد شرعت فيه
خمسة أبواب : منها ثلاثة توصل الى المدافن ،
واثنان يوصلان الى رحبتين بين تلك المدافن ، وقد
دفن في تلك المدافن المنشئة وابنها الخديو اسماعيل
وزوجاته وأولاده ، كما دفن فيها السلطان حسين .
وقد أقيمت عليها قباب حفلت بأنواع الزخرف .
حسن ميد الوهاب



مسجد أبي العلا

حجرية رشيقة مكونة من ثلاث دورات ، لا تقل أهمية عن المنارات المنشأة في عصرها الزاهر ... فقد حلى بدن الدورة الأولى بحفوت وعقود ، كما حلى بدن الدورة الثانية بخطوط متقاطعة على هيئة شرفات ، وقامت الدورة الثالثة على عمد رشيقة .

وتقوم القبة في مقدمة الواجهة الشرقية ، وهي قبة مبنية بالطوب تغلب عليها البساطة من الخارج ، بخلاف قباب عصرها التي امتازت بجمال نقوشها .

وأهم ما يسترعى النظر بداخل هذه القبة كتابة تاريخية فوق المحراب نصها : « أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى نور الدين علي ابن المرحوم ... الدين محمد ابن القنيش ، غفر الله لهم ، لسيدنا ومولانا الشيخ حسين أبي علي نفعا الله ببركاته ، والمسلمين في الدنيا والآخرة » .

أما نجارته فقد كانت على جانب عظيم من الأهمية ، ولم يبق منها الا المبر الذي لاشك في أنه فخر المنابر الاسلامية في دولة المماليك الجراكسة ... فقد طعنت حشواته بالسن والزرنيشان ، وامتازت جوانبه بتقاسيم فريدة ، وخاصة في دائرته الكبرى التي تتوسط ريشتي جانبيه فانها لم توجد في منبر آخر . وما زاد في أهميته اشتماله على اسم صانعه المكتوب على باب المقدم بما نصه :

« نجارة العبد الفقير الى الله تعالى ، الراجي عفو ربه الكريم ، علي بن طنين ، بمقام سيدي حسين أبي علي ... نفعا الله .. » .

نسب هذا المسجد الى الشيخ الصالح حسين أبي علي ، المكنى بابي العلا ، الولي المعتقد ، صاحب الكرامات والمكاشفات ، كما وصقه الصوفيون الذين أطبوا في كراماته ، وبالعوا

سكن هذا الشيخ خلوة في زاوية بالقرب من النيل في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وكان للناس فيه اعتقاد ، فكثر مرادوه ومعتقدو كراماته وكان من بينهم التاجر الكبير نور الدين علي ابن المرحوم نور الدين محمد بن القنيش البرنسي ، فطلب منه الشيخ أن يبنى له مسجدا بجوار خلوة التي كان شعبد فيها ، فصدمع بالأمر ، وأنشأ هذا المسجد ، وألحق به قبة دهن فيها الشيخ أبو العلا حينما توفي عام ٨٩١ للهجرة (١٤٨٦ م) .

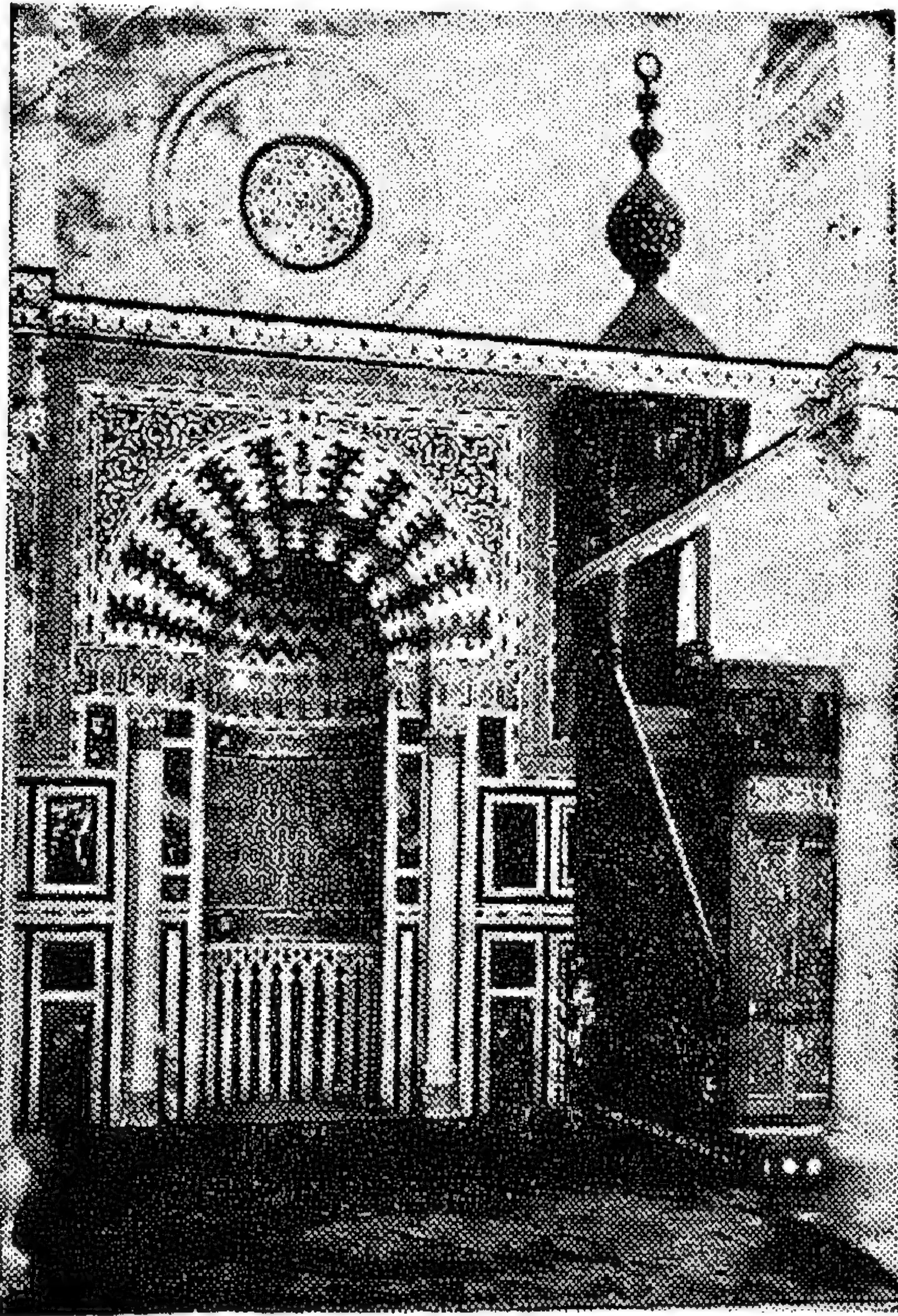
وكان انشاء المسجد حوالي عام ٨٩٠ للهجرة (١٤٨٥ م) . وهو عصر ازدهرت فيه العمارة الاسلامية . والغالب على تصميمه وقتئذ أنه كان على طراز مدرسة ذات أربعة ابواب ، متعامدة ، غنية بالنقوش والكتابات ، كما تنبىء بقاياها القديمة ، وتتحصر في الباب البحري مع قسم من الواجهتين البحرية والشرقية ، والقبة والمنارة ، والمنبر .

والباب العمومي مبني بالحجر ، وله عقد مدائني بطاقية مقرنصة ، ومكتوب عليه قوله تعالى « وما تفعلوا من خير فان الله به عليم » .

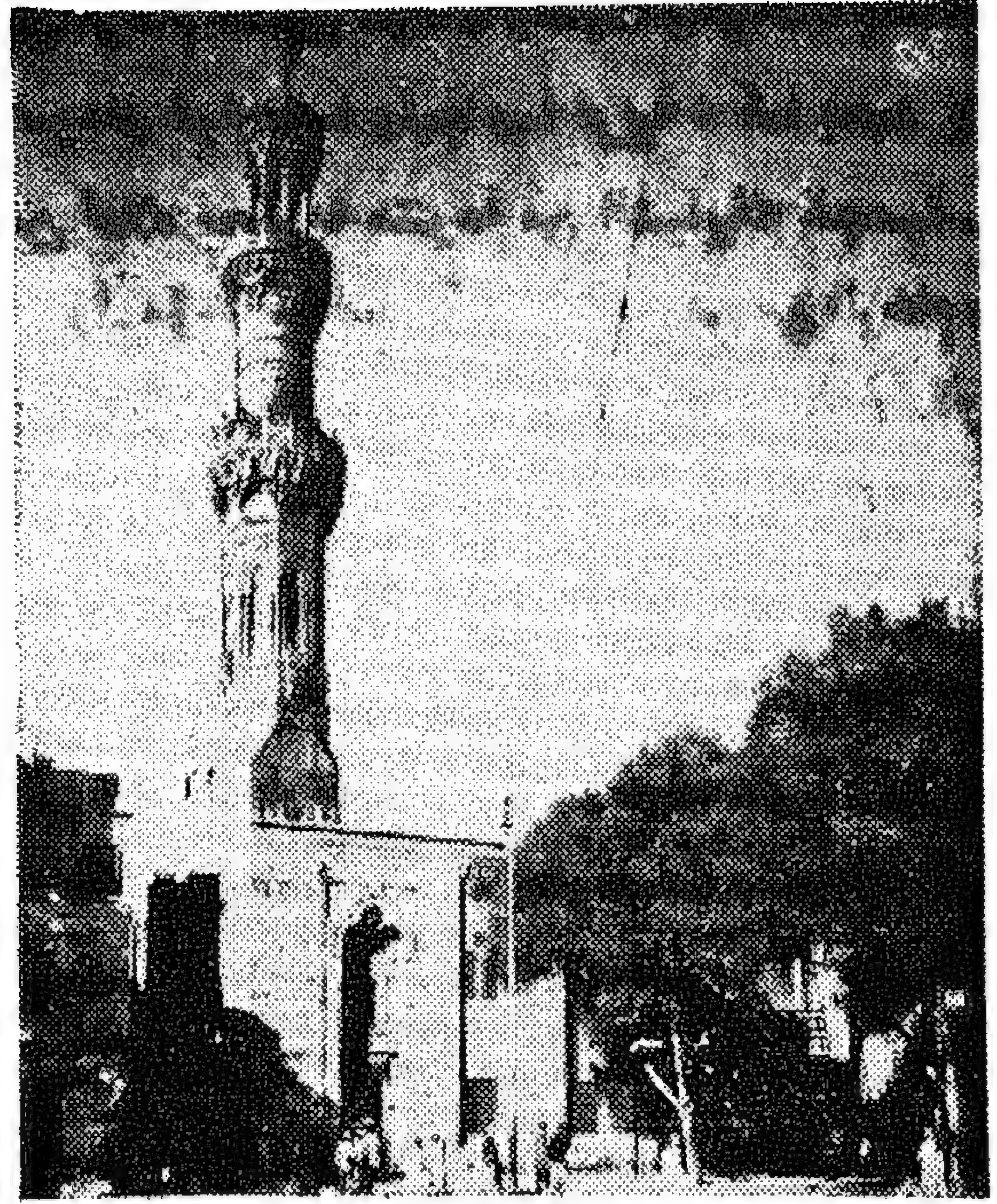
وتقوم المنارة على يسار الباب ، وهي منارة

بها لجنة حفظ الآثار العربية في المدة من سنة ١٩١٥ — ١٩٢٠ . فقد أجرت به اصلاحات شاملة ، وأنشأت في النهاية الغربية للواجهة البحرية سيلا يعلوه كتاب ، اقتبست تفاصيله من لماذج عصره ، وفكت مباني المنارة ، وأعادت بناءها ، وأكملت قمتها طبقا لمناورات عصرها .

وقد بقى المسجد موضع الرعاية ، باعتباره حرم حتى بولاق الحبيب الى قلوب سكانه ، الى أن سقط سقف ايوانه الشرقي في أحد موالده ، فتعطلت اقامة الشعائر فيه الى أن صدرت الأوامر بتجديده وتوسيعه في عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) . فقامت وزارة الأوقاف بنزع ملكية الأماكن التي اقتضاها التوسيع ، ثم عهدت الى ادارة حفظ الآثار العربية وضع تصميم جديد لتجديده . فوضعت تصميما للمسجد راعت فيه المحافظة على الأجزاء القديمة ، وادماجها فيه ، وأن تكون جميع



المحراب والتبر بمسجد ابي العلاء



الواجهة البحرية لجامع ابي العلاء

هذه هي الأجزاء القديمة الباقية من هذا المسجد ، لأن اصلاحات كثيرة قد أدخلت عليه ... فأجريت به عمارة عام ١١٥٤ هـ (١٧٤١ م) ، وأخرى عام ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ م) .

وقد دفن به غير واحد من العلماء ، منهم : الشيخ أحمد الكعكي المتوفى عام ١٢٧١ هـ (١٨٥٤ م) ، والشيخ مصطفى البولاقى المتوفى عام ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ م) .

وقد ترتب على هذه الأعمال تغيير في المسجد أدركه المغفور له على باشا مبارك ، ووصفه بأنه جامع عامر ، ومقامة فيه الشعائر ، له ثلاثة أبواب : أحدها على الشارع — وهو الباب الكبير — والثاني تجاه المقام ، غربى الجامع ، موصل لعطفة ضيقة ، والثالث للميضأة ، ويشتمل على أيوانين وثمانية أعمدة من الرخام . ومنبره من الخشب النقي المطعم بالعاج ، ومحرابه مكسو بالرخام .

وأعقبت هذه العمارات ، العمارة التي قامت

تفصيلاته مقتبسة من منشآت القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) . وانتهت من توسيعه وتجديده فى عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) . والمسجد - كما هو الآن - تبلغ مساحته ١٢٦٤ مترا ، وقد كان قبل ذلك ٨٤٣ مترا ، وروعى فيه أيضا أن تكون أبوابه الثلاثة كما كانت . ووضع تصميمه مكونا من أربعة ابوابات سقوفها مرفوعة على عقود من الحجر الأحمر والأبيض ، وترتكز على عمد رخامية تحدد بصحن غطى بسقف مذهب على عمد رخامية تحدد بصحن غطى بستف مذهب .

وقد ابتكرت طريقة لعمل الأسقف الأثرية بالأسمنت المسلح ، زيادة فى متانتها ، وقسمت على هيئة الأسقف الخشبية القديمة ، ثم نقشت وزهبت تذهيبا متقنا لا يدع مجالا للشك فى أنها من الخشب . وقد تنوعت تلك النفوش . فالايوانان الشرقى والغربى متماثلان ، ويختلف عنهما الايوانان القبلى والبحرى .

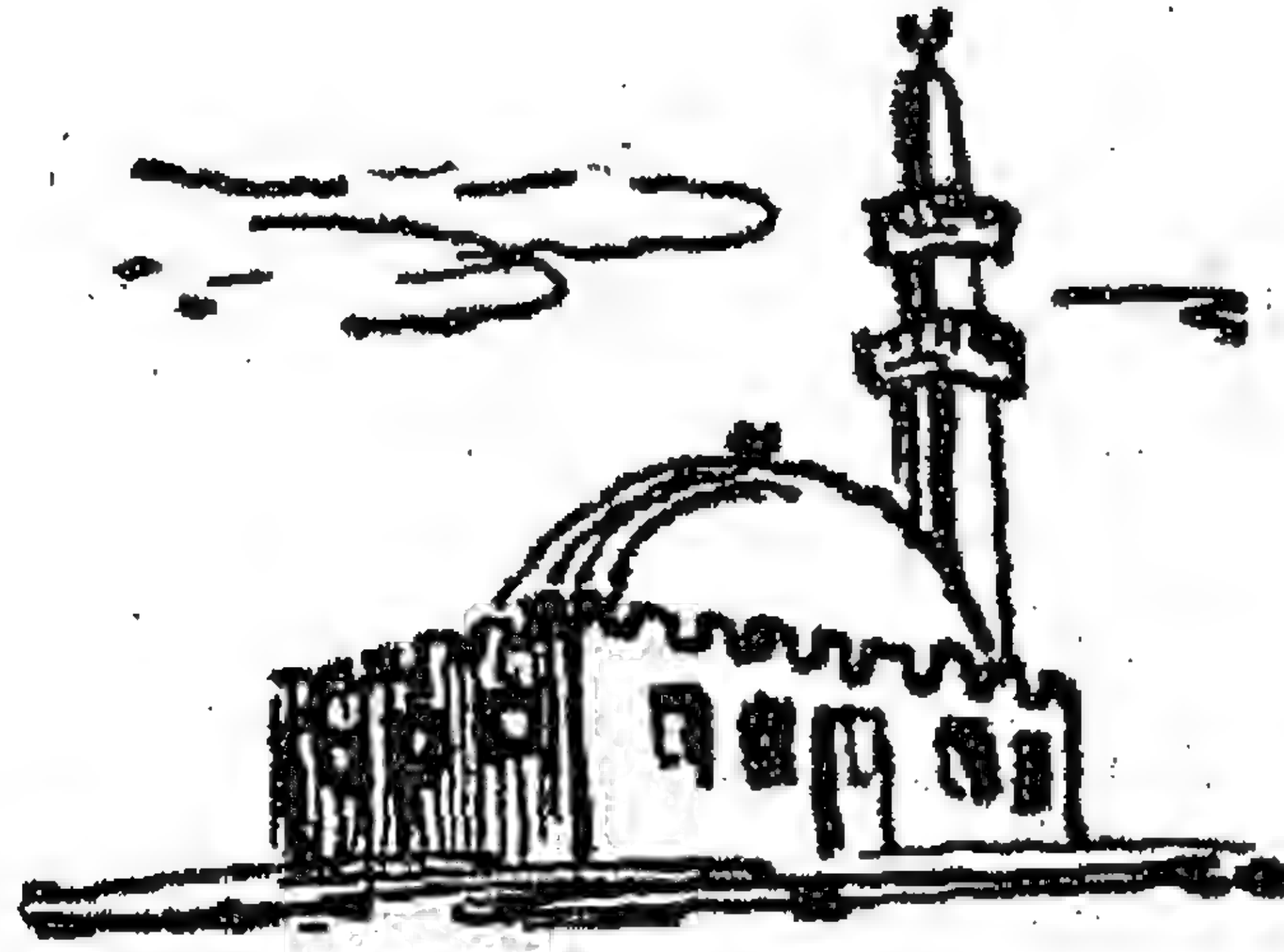
وكسيت جدران ايوان المحراب بوزرة رخامية انتهت فى أعلاها بأفريز رخامى دقيق ، وبه محراب

من الرخام الدقيق تنوعت زخارفه وألوانه ، بكتنفه عمودان قواعدهما وتيجانهما عربية ، كما يحيط به من أعلاه مجموعة متنوعة من الشبايك الجصية . وفى مؤخر الجامع دكة المبلغ ، وهى من الرخام ، وقد حليت بزخارف عربية مذهبة ، ونقشت الأوتار الرابطة للعقود ، كما أضيئت أضواء خاصة .

وقد تناول التجديد واجهاته الثلاث الشرقية والقبلىة والعربية ، إذ بنيت بالحجر الأبيض والأحمر على التعاقب بارتفاع ١٣ مترا ونصف متر ، وغطيت صنف شبايك الواجهات بمقرنصات متنوعة ، كما حليت الأبواب أيضا ... فالباب الغربى المؤدى الى الميضأة اقتصرت زخارفه على الحجر الملون ، وغطى بمقرنص ، أما الباب القبلى فقد حليت موزراته وجانباه بالرخام الملون ، وغطى بالمقرنص .

ولا شك فى أن تجديد هذا المسجد كان طبقا لأساليب العمارة الإسلامية الصحيحة . وقد بلغت نفقات تجديده ١٧٠٠٠٠ جنيه ، وافتتح بأداء فريضة الجمعة فى ١٠ من ربيع الأول عام ١٣٥٥ (٥ يولية سنة ١٩٣٦ م) .

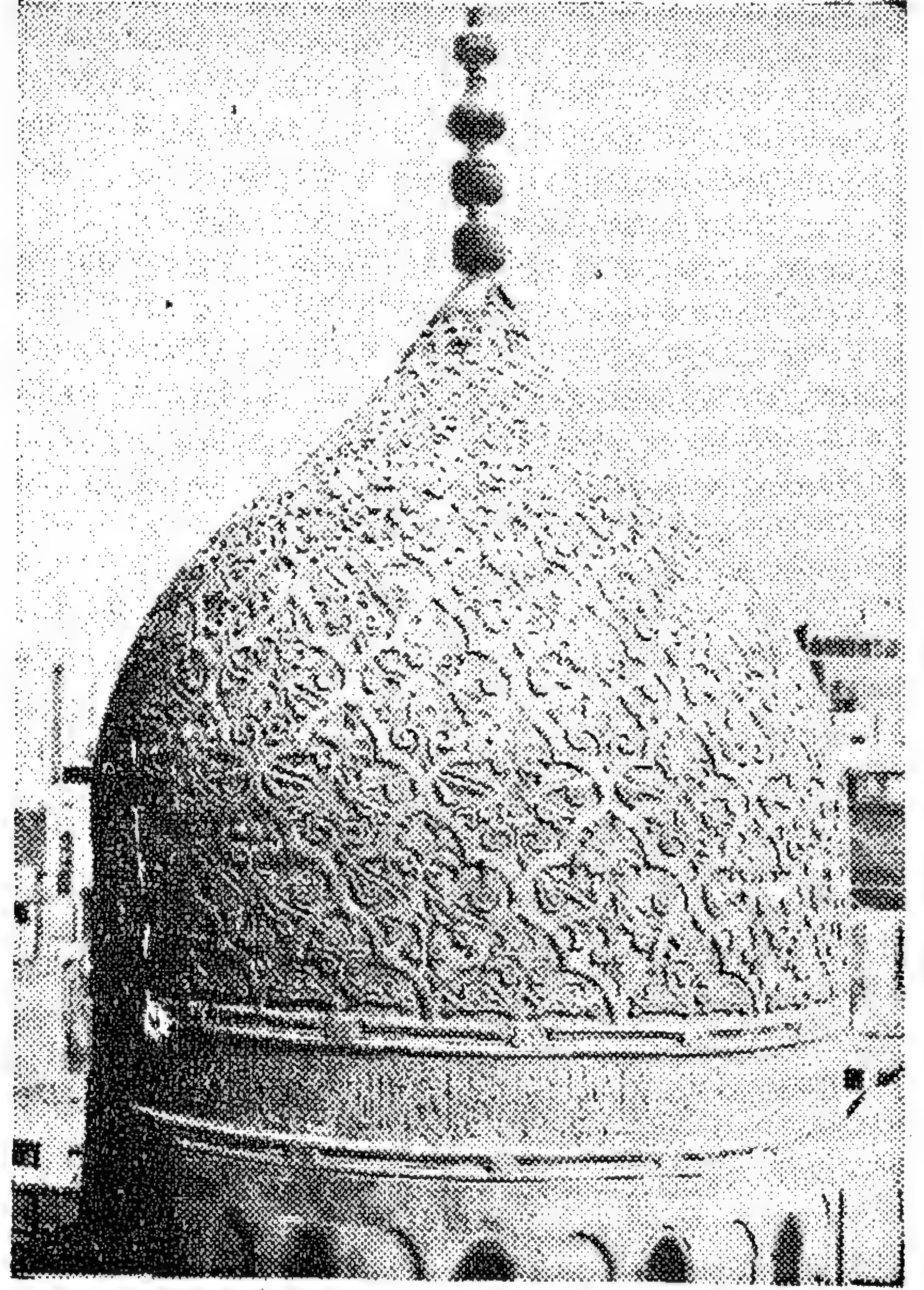
حسن عبد الوهاب



مسجد قاني باي الرماح

الأمير قاني باي

قاني باي قرا كان مملوكا للملك الأشرف قايتباي ، فأعتقه وعينه في جملة وظائف ، الى أن رقيه أمير عشرة في عام ٨٩٨ هـ « ١٤٩٢ م » ، ثم عينه نائبا لصهيون ، فأميرا لحلب . ثم عاد الى مصر ، وتزوج ابنة الأمير يشبك بن مهدي .



قبة مسجد قاني باي الرماح

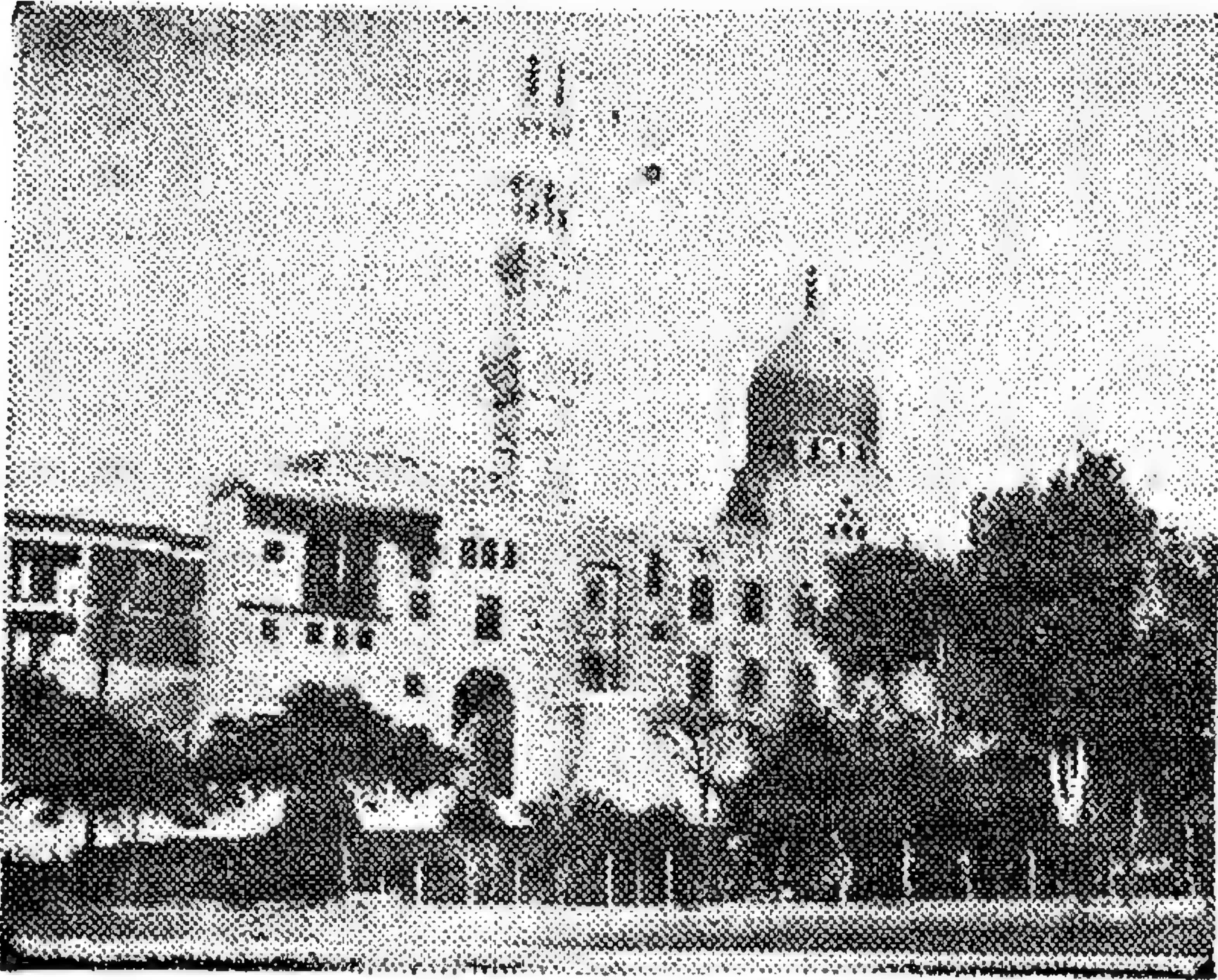
وفي دولة الناصر محمد بن قايتباي رقي الى مقدم ألف ، ثم أمير آخور كبير . وكان مشهورا بالشجاعة والفروسية ، مجيدا للعب بالرمح ، فعرف بالرمح .

وقد أنشأ مسجدا في الناصرية ، كما أنشأ هذا المسجد . توفي الى رحمة الله يوم الجمعة ٢٦ من ربيع الأول عام ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) ودفن بقبة هذا المسجد .

وهذا المسجد ببيدان صلاح الدين بحري مسجد الحمودية ، وهو مبنى على شرف عال ، وله واجهتان : احدهما شرقية ، وبها واجهة الايوان الشرقي والقبة . والثانية قبلية ، وبها واجهة القبة والمدخل الرئيسي والمنارة ، فسبيل وكتاب .

والمسجد بعد من المساجد المعلقة . فهو قائم على عقود مصلبة ، تحملها أكتاف حجرية مربعة تكون حجرات واستطراقات أسفل المسجد ، لها واجهة أسفل الايوان الغربي ، وللحجرات مزاغل بالواجهة القبلية .

ويتوصل الى باب المسجد بوضع درجات تؤدي الى باب لبس عتبه الحجري برخام ملون ،



مسجد قاني باي الرماح

ومكتوب على جانبيه : « أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة ، من فضل الله ، المقر الأشرف العالى المولوى السيفى قانى باى أمير آخور كبير ، أعزه الله تعالى » .

وقد حلى الباب بزخارف حجرية ، ويغطيه عقد له أرجل مخصصة . وهو يؤدي الى دركاة مربعة لها سقف حلى بالذهب والألوان ، وله ازار مقرنص ، ثم طرقة مغطاة بمصليتين ، على يسارها باب المنارة ، ثم ينثنى الى طرقة أخرى معقودة تنتهى الى الصحن .

والمسجد منشأ عام ٩٠٨ هـ (١٥٠٢ م) ، على طراز المدارس المشتغل على أربعة ايوانات متعامدة ، تنوعت عقودها . وهذا المسجد لم تستعمل فيه السقف الخشبية ، فيما عدا دركاة المدخل ، فهو مغطى بعقود تنوعت أشكالها ... فالايوانان القبلى والبحرى عقودهما مديبة وهما صغيران . وقد حلى وجهاهما بالنقوش والكتابات والايوان الغربى معقود بقبو مصلب ، وحليت تواشيح وجه عقده بزخارف نباتية .

وأهم هذه الايوانات الايوان الشرقى ، وقد غطى بقبو كرى يكتنفه من الجانبين قبوان دائران . وقد نقشت أركان هذا القبو بنقوش مذهبة ، ومكتوب بدائرته اسم المنشئ والقباه . وكانت هذه الكتابة مذهبة .

والمحراب حجرى حلى بعقده وطاقيته بجفوت متقاطعة . ومكتوب به ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . صدق الله العظيم » . ويحيط بهذه الكتابة من أعلى ومن أسفل زخارف على هيئة شرفات بها أثر تلوين وتذهيب .

ويجاور المحراب منبر صغير ، طعنت حشواته

بالسن ، يكتنفه دولابان حلى شعاعهما بزخارف نباتية مورقة .

وعلى جانبى هذا الايوان شبابيك حليت أعتابها بزخارف دقت فى الحجر ، ويعم الزخرف أحجار هذا المسجد كما كان يعما التذهيب ، شأن مساجد ذلك العصر . ومكتوب أعلى الأبواب حول الصحن « أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة المقر الأشرف الكريم العالى السيفى قانى باى أمير آخور كبير الملكى الأشرفى ، أعز الله أنصاره » .

والباب الشرقى القبلى من هذه الأبواب يؤدي الى حجرة مستطيلة مغطاة بعقود مصلبة لها أرجل مخصصة ، وذات شبابيك تطل على الواجهة القبلىة ، وأخرى تطل على طرقة المدخل ، وبجدارها الشرقى باب القبلة ، وهو مغطى بمقرنصات ومكتوب بجانبه قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم . ادخلوها بسلام آمنين » . ويعلوه سطر مكتوب فيه « اللهم انا نسألك العفو والعافية والمعافة الدائمة فى الدارين » .

وهذه القبلة من النماذج القيمة التى تتجلى فيها عظمة القباب المملوكية ... فهى بارزة عن واجهة المسجد الشرقية ، وقد حليت نواصيها بعقد حجرية منقوشة ، ونقش سطحها بزخارف مورقة جميلة ، ومكتوب برقبته : « بسم الله الرحمن الرحيم . الله لا اله الا هو الحى القيوم ... الآية . أمر بإنشاء هذه القبلة المباركة ، المقر الأشرف الكريم العالى السيفى : قانى باى أمير آخور كبير الملكى الأشرفى » . وقد أحيطت جدرانها من الداخل بوزرة رخامية انتهت بأفريز لبست فيه زخارف بالمعجون الملون . كما حلى عقد محرابها وطاقيته بجفوت متقاطعة مثل محراب المسجد ، وكتب أعلاه : « بسم الله الرحمن الرحيم . قد نرى تقلب وجهك فى السماء » ويحيط بمربعها ، تحت رجل المقرنص ، أفريز كبير مكتوب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ... الآية
صدق الله العظيم . أمر بإنشاء هذه القبة المباركة ،
المقر الأشرف الكريم العالى المولوى الأميرى
الكبرى السيدى السندى الذخرى العضى
المالكى المخدمى السيفى : قانى باى أمير آخور
كبير الملكى الأشرفى بتاريخ مستهل شعبان المكرم
عام ثمان وتسعمائة .

وبجانبها القبلى شباك يشرف على الواجهة ،
وبالبحرى شباك كان يشرفان على الابوان الشرقى ،
والثالث يشرف على الحارة ، وبه عالج المهندس
شطرة بها . وأمام المحراب قبران : أحدهما
للمنشىء .

المنارة

وتقوم المنارة على يسار الباب العمومى ، وهى
مبنية بالحجر ، ومكونة من دورتين مربعتين حليت
جلساتهما بمقرنصات . ويعلو الدورة الثانية
مربعان حليا بالمقرنصات تعلو كلا منهما خوذة .

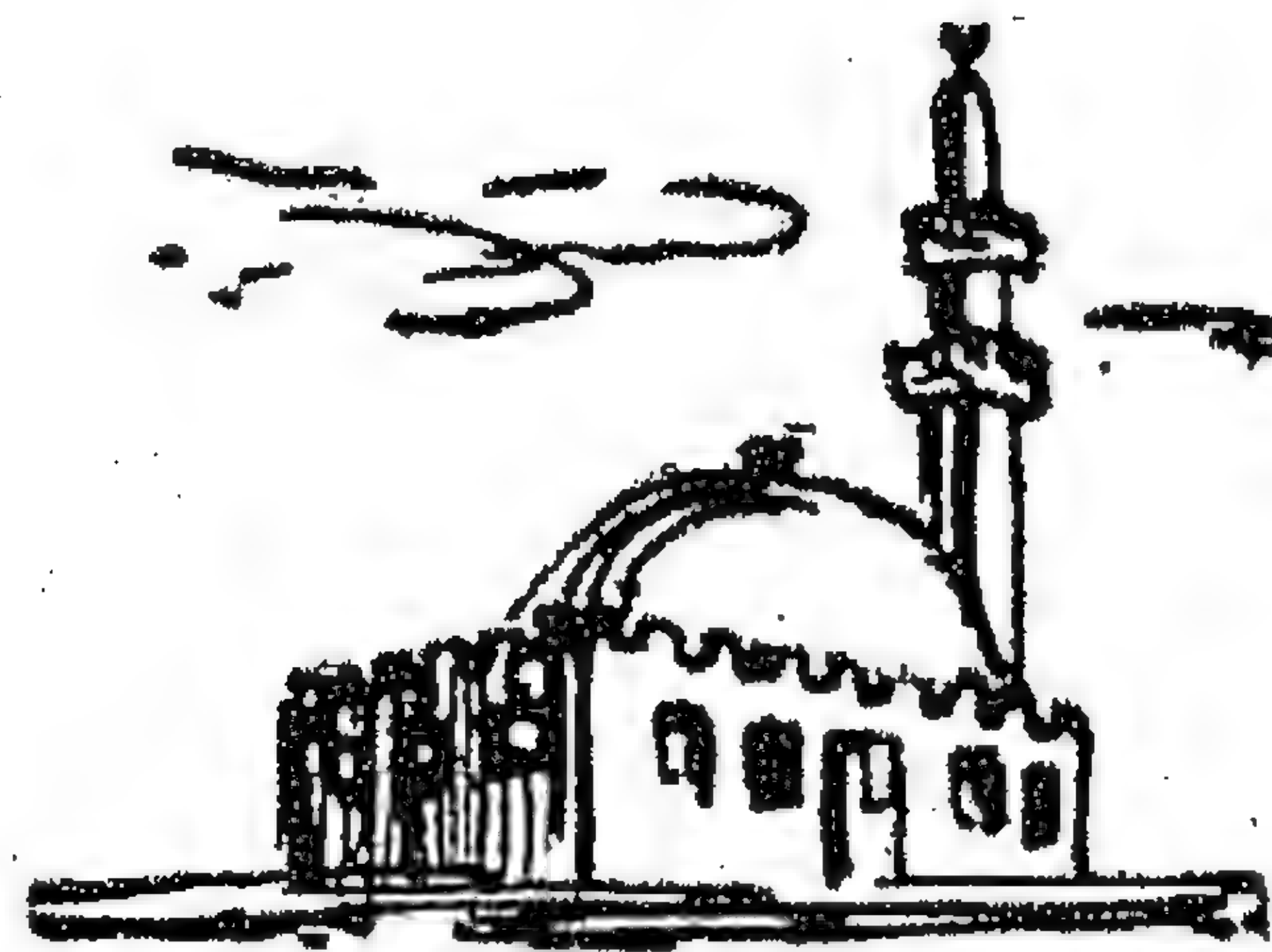
والمنارات ذات الرؤوس المزدوجة ظهرت بمصر
فى منتصف القرن الثامن للهجرة ، وشاعت فى نهاية
القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر) . رأيناها
فى منارة الغمري بميت غمر ، كما كانت كذلك

منارة مسجد جان بلاط بجوار باب النصر التى
هدمت عام ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م) ، فمنارتا الغورى
بمسجده والأزهر ، ثم منارة مسجد العمري
بالمنيا . وقد أنشأ الأمير قانى باى منارة مسجده
بالناصرية على هذا الطراز أيضا .

بقيت منارة المسجد الى أن هدمت حوالى عام
١٨٧٠ م لخلل بها . ومنذ ذلك الحين طرأ تغيير
كبير على المسجد ، فأنشئت بواجهته دكاكين
شوهدت جماله . وقد عنت لجنة حفظ الآثار
العربية بإصلاح المسجد ، فأزالت الدكاكين من
الواجهة ، وأصلحتها فى عام ١٣٣٣ هـ (١٩١٤ م) ،
كما أزالَت السقف الحادث الذى كان يغطى
الصحن ، وأزالَت البياض الذى كان يحجب
الزخارف الملونة والمذهبة ، وأعادت بناء الابوان
الغربى ، وأصلحت قاعدة المنارة وذلك فى عام
١٣٣٥ هـ (١٩١٦ م) . وكذلك قامت بتقوية المبنى
الحاملة للمسجد بالدور الأرضى .

على أن أهم عمارة أجريت به ، هى إعادة بناء
المنارة والسبيل بجوارها طبقا لصورة فوتوغرافية
قديمة مع الاقتباس من منارته بالناصرية . وقد
تمت هذه العمارة فى عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) .
وكان لها أحسن الأثر فى تجميل الميدان .

حسن عبد الوهاب



مدرسة قايتباى

وربما آخر تجاه المدرسة خصصه لاقامة الصوفية...
هذا عدا ملحقات المدرسة .
ودرة منشآت تلك المنطقة مدرسته ومدفنه .

السلطان قايتباى

والسلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى ،
الجركى المحمودى الأشرفى ، ثم الظاهرى ، ولد
عام ٨٢٦ للهجرة (١٤٢٣ م) ، ثم اتصل بالملك
الظاهر جقمق فأعتقه ، ولم يزل يترقى الى أن وصل
الى وظيفة أتابك . ثم آل أمره الى أن بُويع له
بالسلطنة يوم الاثنين ٣ من رجب عام ٨٧٢ هـ
(١٤٦٨ م)

وكان ملكا جليلا صالحا من خيرة ملوك
البراكسة وأطولهم حكما . فقد ظل ملكا لمصر
نحو ٢٩ سنة ، كان فيها مثال الملك العادل
الصالح .. ، فقد عنى بسياسة مصر الخارجية ،
كما كان كثير العطف على مسلمى أسبانيا ، فحاول
حمايتهم مما هم فيه من خطر ، وكان محبا
للسفر ، مغرما بالعمارة ، واهتم اهتماما كبيرا
بالأراضى المقدسة ، وله منشآت معمارية خيرية
كثيرة بمكة والمدينة والقدس . وقل أن يخلو حى
من أحياء القاهرة أو اقليم من أقاليمها ، أو قطر
من الأقطار الاسلامية الا وله فيه أثر .

ومن منشآته فى مصر طائفة من المساجد والمدارس
والوكالات والمنازل والأسبلة والقناطر — كما عنى
بالحصون ، فأنشأ قلعة بالاسكندرية ، وأخرى
برشيد ... وكلها منشآت امتازت بالروعة ، ودقة
الصناعة .

صحراء قايتباى (القرافة الشرقية)

كانت المنطقة الممتدة من قلعة الجبل الى
العباسية ، حتى أوائل القرن الثامن للهجرة (الرابع
عشر للميلاد) ، ميدانا فسيحا أعد للعب الكرة ،
يعرف بميدان القبق ، أو ميدان العبد .

وفى النصف الأول من القرن الثامن للهجرة
(الرابع عشر للميلاد) ، بدأ ملوك مصر وامراؤها
فى انشاء المساجد والخوانق بهذه المنطقة ، وألحقوا
بها مدافن لهم . وقد تباروا فى هذا المضمار الخيرى
حتى ازدحمت هذه المنطقة بالمساجد والمدارس ،
تطاول السماء بمناراتها الرشيقة وقبابها المزخرفة .

وما انتهى القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر
للميلاد) حتى كانت بها مجموعة من المنشآت ثم
تجتمع فى صعيد واحد مثل ما اجتمعت فى هذه
المنطقة . وفى آثارها بجد الفنان والمهندس خير الهام
له ، ويرى بدائع الفن ، ما بين غنى ومتوسط . ومع
ما أصاب كثيرا منها من ضياع وتخریب ، بقيت
بها آثار معمارية على جانب عظيم من الأهمية .

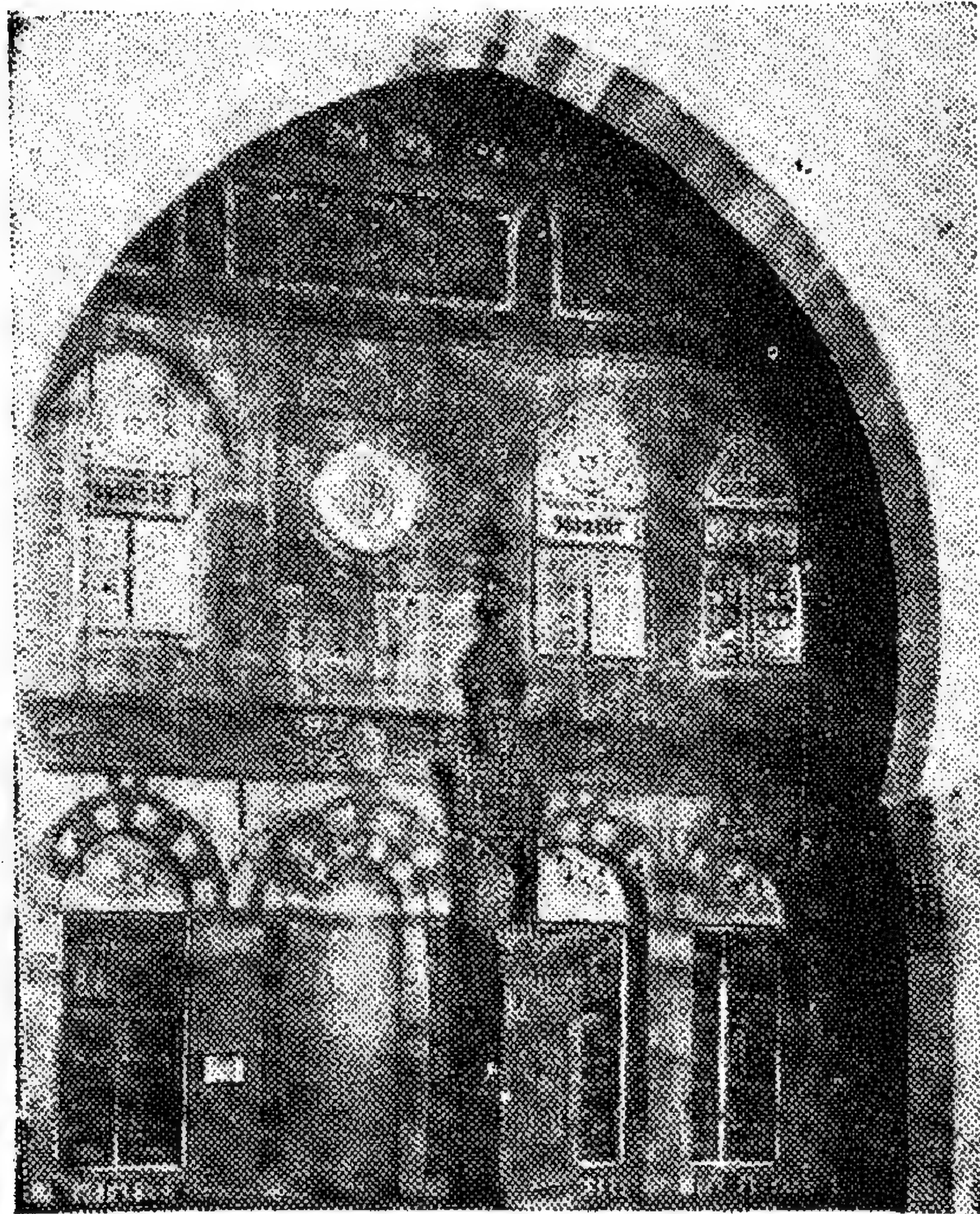
وقد عرفت هذه المنطقة بقرافة الخلفاء ، وهى
تسمية غير صحيحة ، فالأولى أن تسمى قرافة
المماليك .

وأكثر من عنى بإنشاء المباني بها الملك الأشرف
أبو النصر قايتباى ... فقد أنشأ بها ربعا كبيرا
وحوضا لشرب الدواب ، وسبيلا ومقعدا ، ومدفنا
لأسرته ، ومدرسة ، وقبة للشيخ عبد الله المنوفى ،

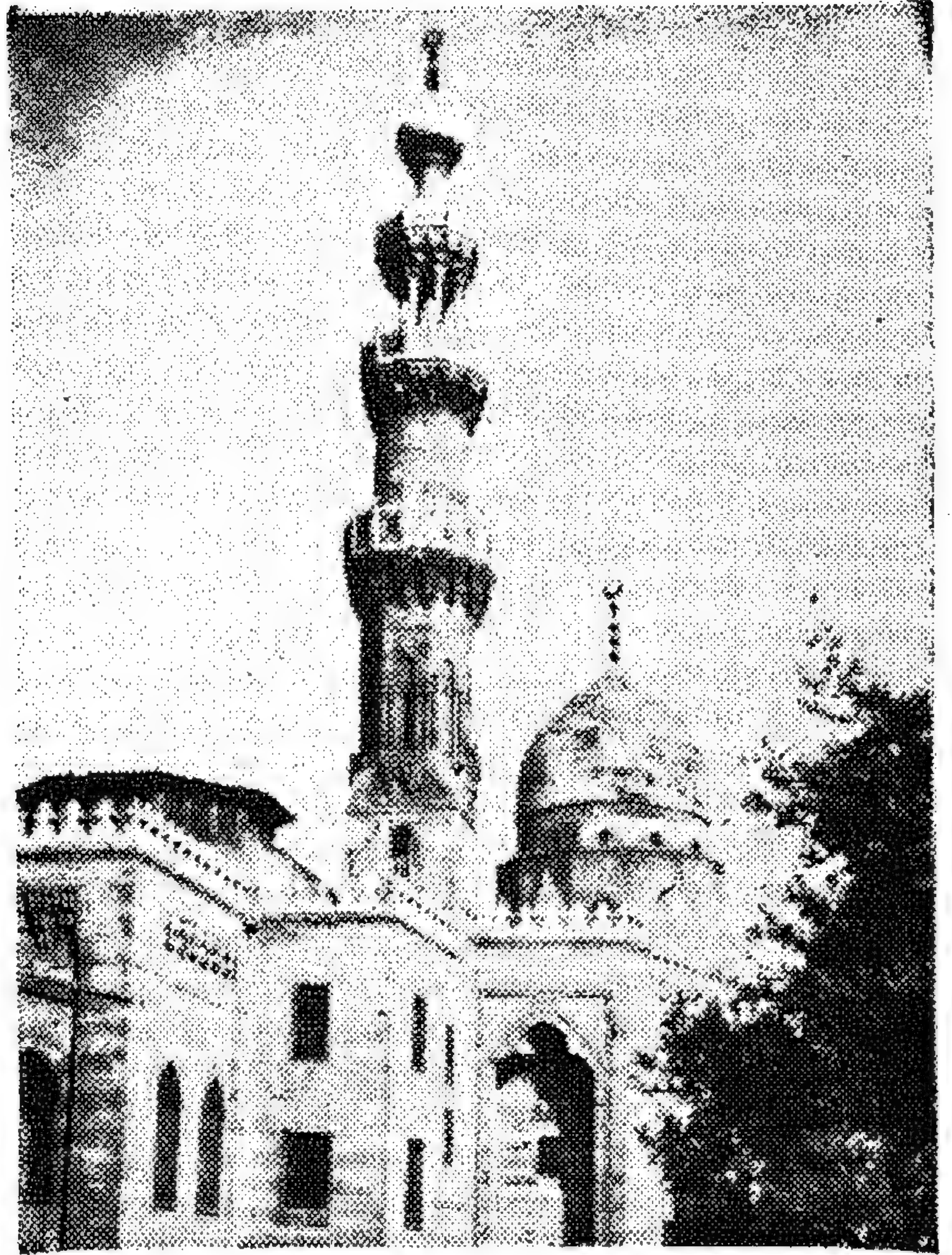
دائرتان رخاميتان كتب فيهما : « عز لمولانا
السلطان الملك الأشرف قايتباي ... عز نصره » .
وعلى يسار الباب سبيل يعلوه كتاب له
واجهتان : أحدهما من عقدين - وهي الغربية -
والثانية من ثلاثة عقود ، تحملها عمد منقوشة ،
وهي الشرقية .

وتنتهي الواجهة الشرقية من الجهة القبلىة بقبة
عالية ، حلى سطحها بنقوش هندسية ومورقة ،
وتعد هذه القبة من أجل القباب .
وعلى يمين الباب منارة رشيقة من ثلاث
دورات ، حلى بدن دورتها الأولى بنقوش
وكتابات ، أما بدن الدورة الثانية فقد حلى
بنقوش مورقة . وتقوم الدورة الثالثة على عمد
رشيقة .

وهذا الباب يؤدي الى طرقة مربعة بصدرها
مسطبة مفروشة ، مؤزرة بالرخام الملون ، على
جانبيها دولابان بكل منهما أربعة مصاريع ،
طعنت حشواتها بالسن المدقوق بأويمة دقيقة ،



القبلة والمنبر بجامع قايتباي



مسجد قايتباي

وقد ظل متوليسا ملك مصر الى أن توفي عام
٩٠١ هـ (١٤٩٦ م) وترك اسمه مسطورا على
مايزيد على سبعين أثرا اسلاميا ما بين انشاء
وتجديد .

تاريخ انشاء المدرسة

بدىء فى انشاء المدرسة عام ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م)
وفرج منها فى شهر رجب عام ٨٧٩ هـ (١٤٧٤ م) .
وهى مجموعة مكونة من مدرسة وملحقاتها ،
وتربة ، وسبيل ، وكتاب . والزائر لها يستهويه
جمالها وروعيتها . ولا غرو أن تكون موضع اهتمام
زائري مصر ، فقد جمعت أرقى ما وصل اليه فن
المعمار فى عصر المماليك الجراكسة .

وواجهتها الرئيسية هى الواجهة البحرية ، وبها
الباب ، وقد حلى بالرخام الملون والكتابات ،
وكسى مصراعه بالنحاس ، وكتب على جانبيه
اسم قايتباي ، وتاريخ عام ٨٧٧ هـ ... كما تعلوه

وعلى يمينها ويسارها بابان : الأيسر منهما هو باب السبيل ، وقد كتب في دائرة فوق عقده بزخرفة بارزة : « قل كل يعمل على شاكلته » .
والباب الأيمن يؤدي الى طرقة مستطيلة بصدرها باب المنارة ، تجاوره مزيرة على وجهها حجاب من الخشب المخروط ، مكتوب عليه بالكوفي المربع : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » ومكتوب على بابها : « بسم الله الرحمن الرحيم . يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

وتنتهى هذه الطرقة الى صحن المدرسة . وقد فرشت أرضية هذا الصحن برخام ملون ، كما فرش كل قسم من أرضيات الايوانات والمداخل برخام يغاير رخام القسم الآخر . ويغشى الصحن سقف يتوسطه منور نقش بزخارف ملونة ومذهبة .

ويحيط بالصحن أربعة ايوانات معقودة يأخذ بالأبصار ما حوته من نقوش وشبائيك جصية زجاجها ذو ألوان جذابة .

وقد حليت أرجل عقود الايوانات بمقرنصات مزخرفة مذهب . وقد حرص المهندس على المضاهاة ، فلم يترك بابا الا فتح أمامه بابا أو دولابا على هيئة باب .

وأكبر هذه الايوانات ايوان المحراب ، وقد أحيط بكتابة مذهب ، وغشى بسقف ملون مذهب . والمحراب ، وان كان عاريا من الزخرف ، الا أن به عمودين مشننين ، بدناهما وقاعدتهما وتاجاهما بنقوش جميلة ... كما لبست طاقيته بحجر أحمر على هيئة شرفات . وبجوار المحراب منبر دقيق ذو حشوات من السن المدقوق « أويمة » وقد ذهبت قوائمه .

أما الايوان الغربى فقد قسم أقساما ثلاثة

تعلوها أسقف ملونة مذهب . وفي القسم القبلى منه حجرة المكتبة : لا تزال رفوفها موجودة بعد أن نقل ما بقى فيها من كتب الى دار الكتب .
والقبة تلاصق الايوان الشرقى من قبله ، وهى قبة عالية جدا ، وقد نقشت من الخارج فى الحجر ، كما نقشت من الداخل بزخارف مذهب ملونة ، وبها مجموعة من الشبائيك الجصية الدقيقة ، وأحيطت جدرانها بوزرة رخامية تنتهى بافريز مكتوب فيه اسم المنشىء ، وتاريخ الفراغ من القبة .

وبها كرسى للمصحف مطعم بالسن المدقوق « أويمة » ، مثل المنبر ، ومكتوب عليه « أمر بإنشاء هذا الكرسى الملك الأشرف قايتباى بتاريخ شهر ربيع سنة ثمان وسبعين وثمانمائة » .
وبالقبة محراب حجرى كسى أسفله بأشرطة رخامية ، وبقيته وطاقته وعقده حليت بزخارف مدقوقة بالحجر وملونة ، وأمامه مقصورة خشبية بداخلها قبر المنشىء . وقد فرشت أرضيتها بالرخام الدقيق .

وقد دفن فى هذه القبة أيضا ابنه الملك الناصر محمد ، وابنا عمه جانم وجانى بك .
ويجاور قبر قايتباى قبة نحاسية مذهب تحتها حجر أسود به أثر قدمين ، يقال انهما للنبي صلى الله عليه وسلم ! كما يوجد بجوار قبر ابنه قبة أخرى خشبية تشبه المسلة ، بها حجر به أثر قدم يقال انه قدم الخليل ابراهيم عليه السلام ! وكلاهما غير صحيح . . لأنه يوجد بمصر أقدام أخرى متفاوتة المقاس ، كما توجد أقدام فى قبة الصخرة بالقدس ، والطائف ، والقسطنطينية ، وكذلك فى الأقطار الاسلامية أقدام منسوبة الى آدم بالهند ، والخليل بالحرم المكى ، وموسى بظاهر دمشق ، وعيسى ببيت المقدس .

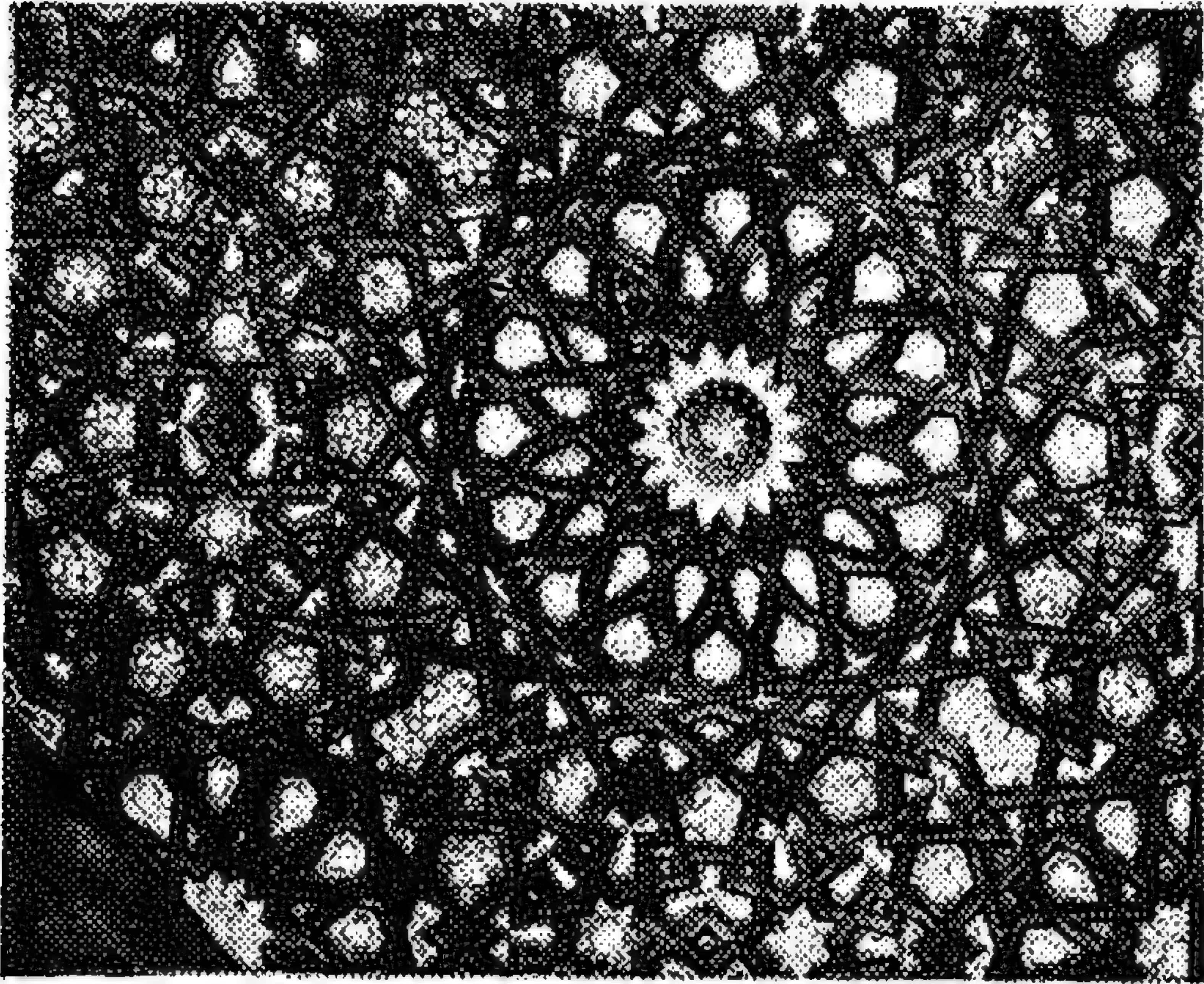
حسن عبد الوهاب

مدرسة قجماش الاسحاقى

تاريخ المدرسة ووصفها

لم تحدد النصوص التاريخية تاريخ البدء في انشاء هذه المدرسة ، بل حددت كلها تاريخ الفراغ منها في سنى ٨٨٥ و ٨٨٦ و ٨٨٧ للهجرة . ولما كنا نعرف انه عين واليا على الشام في أواخر عام ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م) . فاننا نستنتج أنه شرع في بنائها عام ٨٨٤ هـ (١٤٧٩ م) ، أو قبل ذلك ... لأن النصوص التاريخية الداخلية بالمدرسة ، المؤرخة عام ٨٨٥ هـ ، تضمنت ذكر وظيفة « أمير آخور » ، وكتابة المدخل العمومى ، المؤرخة ٨٨٦ هـ ، خالية من ذكر الوظيفة . وهذا يؤكد أن أعمال البناء ظلت سائرة في المدرسة بعد سفره الى الشام . كما أن أعمال التجارة لم تنته الا في سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٣ م) .

وتقع هذه المدرسة بشارع الدرب الأحمر ، وهى مرتفعة عن مستوى الشارع ، وتحت واجهاتها الأربع حوانيت ، وكانت من أخفل مدارس دولة



رشة مبنى مسجد قجماش الاسحاقى

الأمير قجماس الاسحاقى ، لشأ في خدمة أستاذه « جقمق » الذى عنى بتعليمه وتجويده الخط ، فنبح فيه ، ثم رقاہ الى جملة وظائف ، وفى دولة الظاهر خشدقم عينه خازندارا ١ ، ثم رقى في دولة الظاهر بلباى أمير عشره .

ولما ولى ملك مصر الملك الأشرف قايتباى ، كان من المقربين اليه ، فعينه نائبا للاسكندرية في عام ٨٧٥ هـ (١٤٧٠ م) ، فأنشأ بها مسجدا خارج باب رشيد وأنشأ بجانبه تربة وخانا ، وجدد جامع الصوارى خارج باب سدره ، كما أنشأ خارج باب البحر رباطا ٢ .

وفى عام ٨٨٠ هـ (١٤٧٥ م) عينه أمير آخور ٣ كبيرا لمصر . وفى أثناء توليته هذه الوظيفة سافر الى الاسكندرية للاشراف على عمارة قلعة قايتباى هناك .

وفى عام ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م) عينه نائبا للشام ، فأنشأ بها مدرسة ، وبقي بها الى أن توفى في شوال عام ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) ، ودفن هناك .

كان حسن السيرة مؤدبا ، متواضعا محبا للعلماء والصالحين . ولم يبق من منشآته المعمارية التى أنشأها بمصر والاسكندرية سوى هذه المدرسة . ولم يدفن بقبته التى أعدها لنفسه ، بل دفن فيها أحد الصالحين ، وهو الشيخ أحمد أبو حريه ، المتوفى عام ١٢٦٨ هـ (١٨٥١ م) فعرفت به .

(١) خازندار : وظيفة لمن يشرف على خزائن السلطان أو الأمير .

(٢) الرباط : هو سكن الصوفية والنقطعين من الفقراء .

(٣) أمير آخور كبير : المشرف على الاصطبلات الخاصة والبريد والهجن .

الممالك الجراكسة ... بل تعد نموذجا كاملا لكثير منها . والمدرسة غنية بثتى الفنون الاسلامية ، وتكون مجموعة أثرية هامة ، فقد ألحق بها سبيل ، ثم سابط يؤدي الى الميضاة تعلوه مشربية ، فحوض لشرب الدواب يعلوه كتاب لتعليم الأطفال ،

وهى منسجمة متناسقة ، تنتقل العين فيها من حسن الى أحسن : فالباب العمومى ، وأعتاب الشباييك محلاة بالرخام الملون ، وجلسات الشباييك وأعتابها وأعتاب الأبواب ، وعمد النواصى محلاة بنقوش فى الحجر متنوعة .

ويقوم على يسار الباب منارة رشيقة من ثلاث دورات : دورتها الأولى مثنىة ، ثم بدن مستدير ، فالدورة الثالثة محمولة على عمد رخامية . كما يجاوره سبيل صغير فرشت أرضيته بالرخام الدقيق ، وله سلسبيل رخامى سقفه الخشبى محلى بنقوش مذهبة ملونة .

وركب على الباب مصراعان غشيا بالنحاس المفرغ ، ومكتوب بالرأس العلوى اسم المنشئ بما نصه : « المقر الأشرف العالى السيفى قجماس أمير آخور كبير الملكى الأشرفى ، أعز الله أنصاره » ، وله سحاحتان رأساهما على هيئة حيوان مكتوب على جانبيه ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا صدق الله العظيم . وكان الفراغ من الجامع فى شهر الله المحرم عام ست وثمانين وثمانمائة » .

ويؤدى الباب الى طريقة مربعة ، على يمينها صفة بها باب صغير يؤدي الى منور عليه باب للقبه ، وهو أحد ابتكارات المهندس التى تغلب بها على ما صادفه من شطرات فى الأرض ، وعلى يمينها باب كبير له مصاريع جرارة تسير فى مجرارة ، وتدخل فى سمك الجدار .

وطريقة الأبواب والشباييك الجرارة كان

المظنون أنها من المبتكرات الحديثة ، ولكنها وجدت فى هذه المدرسة ، وفى مدرسة أبى بكر مزهر المعاصرة لها ، ثم رأيناها بعد ذلك فى شباييك الدور فى العصر التركى .

ومن الطريقة الثانية يتوصل الى صحن المدرسة المفروش بالرخام ، وقد أهدت به أربعة ايوانات : اثنان كبيران — هما الشرقى والغربى — واثنان صغيران — هما القبلى والبحرى — كما يشرف على هذا الصحن أبواب تؤدي الى حجرات علوية ، ومنها ما يؤدي الى السابط الموصل الى دورات المياه .

وأينما اتجهت العين فى داخل هذه المدرسة ، فانها لا ترى الا صناعة دقيقة ، والوانا زاهية ... فالأرضيات بالصحن ، والايوانات فرشت برخام ملون تنوعت أشكاله ، وأسقف الايوانات والشخشيخة ملونة مذهبة ، والجدران بها نقوش وكتابات ، كما تنوعت أشكال الشباييك الجصية . وان ايوان المحراب ليستهى الناظر اليه بما حواه من صناعات دقيقة وألوان أخاذة ، فقد كسى صدره بوزرة رخامية ارتفاعها نحو أربعة أمتار ، وحليت خواصر العقود وتواشيحها برخام مطعم بالمعجون ، ومكون بأشكال زخرفيه . وهذا نوع من الزخرف شاع فى دولة الممالك الجراكسة ، استغنى به عن تجميع الرخام الخردة ، أو تلبيس القطع الملونة فى الرخام الأبيض .

والمحراب — وهو يتوسط الايوان — يجمع بين أشرطة رخامية ورخام مطعم بالمعجون الملبس ، الى طاقية من رخام دقيق معدودة من النماذج النادرة ، وكتب بتجويفته بالخط الكوفى قوله تعالى : « قد نرى قلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » .

وقد اعتز الصانع بعمله هذا ، فكتب اسمه بشكل زخرفى فى تجويفه المحراب وأحجار الشبايك بما نصه : « عمل عبد القادر النقاش » . وسواء آكان نقاشا أو مرخما فهو صانع ماهر ، وهو الذى قام أيضا بأعمال النقش فى المحراب بآيوان المدرسة المزهرية ببحارة برجوان ، المنشأة عام ٨٨٤ هـ (١٤٧٩ م) ، وهى من طرائف العمارة الإسلامية .

وجميل أن نعثر على اسم هذا الصانع مدونا على أعمال تشرفه ونحن فقراء فى أسماء الصانع ، فلا يوجد لدينا منها الا القليل — بنماذج معدودة — لنجارين ومرخين ، أحصيت وصورته ما عثرت عليه منها منقوشا على الآثار الثابتة والمنقولة فى الآثار الإسلامية بمصر والاقاليم

ويجاور المحراب منبر خشبى جمعت حشواته فى صور دقيقة ، وطعمت بالسن والزرنشان وهو من النماذج المعدودة فى دقة الصناعة وتنوعها ، ومكتوب عليه « أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك ، المقر الأشرف ، العالى السيفى ، قجماس ، أمير آخور كبير ، الملكى الأشرفى ، عز نصره » .

وفى الجانب القبلى للآيوان الشرقى باب يؤدى الى القبة ، تكتنفه زخارف حجرية مذهبة وهى قبة شاهقة مبنية بالطوب ، عارية من الزخرف . ولا شك فى أنها أبسط جزء فى هذا الأثر فقد ألفنا أن نرى قباب هذا العصر مبنية بالحجر ، وسطوحها الخارجية فى هيئة دالات أو شرفات موزقة ، كما ينقش داخلها بالبوية أحيانا ... كما فى قباب قايتباى ، وقانصوه أبى سعيد ، والكلشنى وغيرها .

ويكتنف عقود الآيوانين البحرى والقبلى عقود

محارية بتواشيحها ، وأعلاها زخارف حجرية . ويحيط بجدران الآيوان الغربى افرز مكتوب فيه ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . فى بيوت آذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » . الى قوله تعالى : « يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . وكان الفراغ من هذا الجامع فى شهر رمضان المعظم قدره ، سنة خمس وثمانين وثمانمائة من الهجرة » ومكتوب على كرسى السورة : « أمر بإنشاء هذا الكرسى المبارك المقر السيفى قجماس ، كافل المملكة الشامية ، سنة سبع وثمانين وثمانمائة » .

ومع أن هذه المدرسة توافرت فيها كل مميزات المدارس ، فقد رأينا نصوصها التاريخية تنعتها بالجامع وهذا يوضح أن الرغبة الأولى لمنشئها هى اعدادها لاقامة الشعائر ، ثم الحاق مدافن لهم بها ولما كان تصميم المدرسة هو الشائع فى هذا الوقت ، فقد غلب على تصميم المسجد ، بصرف النظر عما اذا كان المكان أعد للتدريس أو لم يعد له ، ودون أن تقيد بنعته مدرسة أو جامعا

وما ان تم بناء المدرسة حتى أمر قجماس بتعيين مدرس لها ، وقارى للبحارى ، ونقل ما كان قرره من النصوص بجامع الأزهر اليها

وقد عنت ادارة حفظ الآثار العربية باصلاح هذه المدرسة اصلاحا شاملا منذ عام ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م) فكشفت عن جوانبها ، وأكملت المنارة ، وأصلحت المنبر والرخام والسقوف والأرضيات الرخامية ، حتى أعادت اليها رونقها بالمينا .

حسن عبد الوهاب

جامع قرطبة

والاحكام ، والجامع الذى ليس فى بلاد الأندلس
والاسلام أكبر منه » .

أما الحميرى فيقول فى كتابه الروض المعطار :
« ... وفيها المسجد الجامع المشهور أمره ، الشائع
ذكره ، من أجل مصانع الدنيا كبر مساحة ، واحكام
صنعة ، وجمال هيئة ، واتقان بنية ... تهتم به
الخلفاء المروانيون ، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة ،
وتتيمما اثر تتميم ، حتى بلغ الغاية فى الاتقان ،
فصار يحار فيه الطرف ، ويعجز عن حسنه
الوصف » .

ويقول الشريف الادريسي فى كتابه « نزهة
المشتاق فى اختراق الآفاق » :

« ... وفيها المسجد الجامع الذى ليس بمسجد
المسلمين مثله بنية وتنسيقا وطولا وعرضا » .

وكان جامع قرطبة احدى روائع أربع ، اشتهرت
بها حاضرة الخلافة الأموية فى الأندلس ، وفى ذلك
يقول أحد الشعراء :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة

منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة

والعلم أعظم شيء ، وهو رابعها

وقد بالغ مؤرخو العرب فى المغرب والأندلس فى
وصف هذا المسجد ، وصوروه تصويرا أقرب الى
الخيال ، واختصوه بعنايتهم ، وعظموه وأجلوه ،
وكتبوا فى تاريخه ووصفه فصولا طويلة تعد من
أهم المصادر عن هذا الأثر الخالد الجليل .

كانت قرطبة قاعدة الأندلس وقطبها ، وأم مدائنها
ومستقر خلفائها . وكانت — على حد قول
الحجارى فى المسهب — قرارة أولى الفضل والتقى ،
ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الاقليم ، وينبوع
متفجر العلوم ، وقبة الاسلام ، وحضرة الأنام ،
ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر
درر القرائح . ومن أفقها طلعت نجوم الأرض ،
وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت
التأليفات الرائقة ، وصنفت التصنيفات الفائقة .

اشتهرت قرطبة ، منذ أن افتتحها المسلمون ،
بتفوقها الثقافى وسوها العلمى . وكان يضرب
بأهلها المثل فى اقتناء الكتب ، والاقبال على العلوم
والأدب ، حتى أصبح ذلك شرطا لازما من شروط
التعيين والرياسة . وذاعت شهرتها فى العالم أجمع
فى العصور الوسطى ، حتى أصبحت بحق حلية
الدنيا ومفخرة العالم .

وكان الفضل الأعظم فى شهرتها يرجع قبل كل
شئ الى جامعها الأعظم الذى يعد من الوجهة
الفنية أروع أمثلة العمارة الاسلامية والمسيحية
على السواء فى العصر الوسيط ، ومن الوجهة
العلمية أعظم جامعة اسلامية تدرس فيها علوم
الدين واللغة ، ويفد اليها طلاب المسلمين
والمسيحيين للدرس والتحصيل .

ويقول الرازى فى جملة ما قاله عن قرطبة :
« قرطبة أم المدائن ، وسرة الأندلس ، وقرارة الملك
فى القديم والحديث والجاهلية والاسلام ... وبها
القنطرة التى هى احدى غرائب الأرض فى الصنعة

ويرجع هذا التعظيم والاحلال لجامع قرطبة الى أن حنش بن عبد الله الصنعاني وأبا عبد الرحمن الحبلي التابعين ، قد توليا تأسيسه بأيديهما ، وقوما محرابه . وقد احتفظ الأمير عبد الرحمن الأوسط بهذا المحراب النفيس عند زيارته لبيت الصلاة ، فنقله من موضعه القديم ، وركزه في القبلة الجديدة . كذلك احتفظ المسجد الجامع في سائر زياداته باتجاه القبلة الذي حدده حنش الصنعاني رغم انحراف هذا الاتجاه عن الاتجاه الصحيح .

وذكر بن سعيد المغربي في « المغرب » ، حضور الخليفة الحكم المستنصر بالله عند توليه الخلافة لمشاورة العلماء « في تحريف القبلة الى نحو الشرق حسبما فعله والده الناصر في قبلة جامع الزهراء ... » لأن أهل التعديل يقولون بانحراف قبلة الجامع القديمة نحو الغرب . فقال له الفقيه أبو ابراهيم : يا أمير المؤمنين ، انه قد صلى الى هذه القبلة خيار هذه الأمة من أجدادك الأئمة ، وصلحاء المسلمين وعلمائهم ، منذ افتتحت الأندلس الى هذا الوقت ، متأسين بأول من نصبها من التابعين كموسى بن نصير وحنش الصنعاني وأمثالهم رحمهم الله تعالى . وانما فضل من فضل بالاتباع ، وهلك من هلك بالابتداع ... فأخذ الخليفة برأيه وقال : نعم ما قلت ، وانما مذهبنا الاتباع .

ومن مظاهر اجلال المسلمين وتعظيمهم لهذا الجامع ما نعت به مؤرخو العرب ، فقد سماه عبد الواحد المراكشي ، ولسان الدين بن الخطيب ، وابن بشكوال ، الجامع الأعظم . وقد بلغ من اجلال أهل الأندلس ، وتعظيمهم لمسجدهم بقرطبة ، أن جعلوه مركزا دينيا يحجون اليه . وفي ذلك يقول ابن المثنى ، شاعر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، من قصيدة :

بنيت لله خير بيت يخرس عن وصفه الأنام
حج اليه بكل أوب كأنه المسجد الحرام
كأن محرابه ، اذا ما ح ف به ، الركن والمقام !
وقارنه أحد الشعراء بالمسجد الحرام في قوله :
بنى مسجدا لله لم يك مثله
ولا مثله لله في الأرض مسجدا
سوى ما ابتنى الرحمن والمسجد الذي

بناه نبي المسلمين محمد
وكان تعظيم جامع قرطبة عند المسلمين في المشرق والمغرب ، سببا في قدومهم لزيارته ، والاحتفال بالمناسبات الدينية الاسلامية في بيت صلاته ، باعتباره أكبر مساجد المغرب والأندلس قاطبة وأعظمها .

وقد حفظ لنا المقرئ نصاً لأبي محمد ابراهيم بن صاحب الصلاة الولبني يصف فيه المسجد ، عندما جاء الى قرطبة لحضور الاحتفال بليلة القدر فيه ، فيقول : « واني شخست الى حضرة قرطبة — حرسها الله — منشرح الصدر لحضور ليلة القدر ، والجامع — قدس الله بقعته ومكانه ، وثبتت أساسه وأركانه — قد كسى ببردة الازدهاء ، وجلى في معرض البهاء ... كأن شرفاته ١ فلول في سنان أو أشرف في أسنان ، وكأنما ضربت على سمائه كلال ، أو خلعت على أرجائه حلال .. وكأن الشمس خلعت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطاره أفياءها ، فترى نهارا قد أحدق به ليل ، كما أحدق ببروة سيل ، ليل دامس ونهار شامس ..

« وللدبال ٢ تألق كنضضة الحيات ، أو اشارة السبابات في التحيات ... قد أترعت من السليط ٣

(١) يقصد الشرفات الهرمية التي تشبه اسنة المنشار ، والتي تعلو جدران الجامع .

(٢) الدبال هو الفتيلة التي توضع في الصباح .

(٣) السليط هو نوع من الزيوت التي تستخدم في المصابيح

« وظهر القباب مؤلفة ١ ، وبطونها مهالة ٢ ... »
 كأنها تيجان رصع فيها باقوت ومرجان ، قد قوس
 محرابها أحكم تقويس ، ووشم بمثل ريش
 الطواويس ، حتى كأنه بالمجرة مقرطق ، وبفوس
 قزح منطلق . وكأن الازورد حول وشومه وبين
 رسومه تنف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلل
 الغمام ... »

ثم ينتقل من وصفه للجامع الى وصف المصلين
 في داخله ، وهم راكعون أو وهم قائمون ، فقول :
 « والناس أخيف في دواعيهم ، وأوزاع في أغراضهم
 ومراميم . بين ركع سجد ، وأيقاظ وهجد ،
 ومزحم على الرقاب يتخطاها ، ومقتحم على
 الظهر يتطأها ، كأنهم برد خلال قطر ، أو حروف
 في عرض سطر ... حتى اذا ما قرعت أسماعهم روعة
 التسليم تبادروا بالتكليم ، وتجادبوا الأثواب ،
 وتساقوا بالأكواب ، كأنهم حضور طال عليهم
 غياب ، أو سفر أتيح لهم اباب . »

ثم يختم قوله بوصف حلقات الدرس والعلم
 داخل المسجد ، فيقول : « وصفك مع اخوان
 صدق تنسكب العلوم بينهم انسكاب الودق ...
 نسمع سور التنزيل كيف تتلى ، وتطلع صور
 التفصيل كيف تجلى . »

هذا الوصف الرائع البليغ الذي سجله قلم أحد
 كتاب الأندلس في عصر الموحدين ، يصور لنا المكانة
 التي كان يشغلها جامع قرطبة عند المسلمين ، ومدى
 تعظيمهم لبنائه ، واعجابهم بزخارفه ونقوشه ،
 واقبالهم على الدروس الدينية التي كانت تعقد بين
 بلاطاته وحول أساطينه ، وهو منطبق بصورة لا تدع
 مجالاً للشك على جامع قرطبة في الوقت الحالي .

كذلك وصف هذا الجامع جمهرة من مؤرخي

(١) مسنمة الشكل أو عرمية .

(٢) تشبه الأهلة ويعنى بها الاقواس المتقاطعة داخل القبة .

كتوسها ، ووصلت بمحاجن الحديد رءوسها ،
 ونيطت بسلاسل كالجدوع القائمة ، أو كالشعابين
 القائمة ، عصبت بها تفاح ١ من الصفر ٢ ، كاللقاح
 الصفر ، بولغ في صقلها وجلأئها ، حتى بهرت
 بحسنها ولألائها ، كأنها جلجت باللهب وأشرت ماء
 الذهب ... ان سمتها طولاً ٣ وأيت منها سبائك
 عسجد أو قلأند زبرجد ، وان أتيته عرضاً رأيت
 أفلاكاً ولكنها غير دائرة ، ونجوماً ولكنها ليست
 بسائرة ، تتعلق تعلق القرط من الذفرى ٤ ، وتبسط
 شعاعها بسط الأديم حين يفرى ... »

« والشمع قد رفعت على المنار ٥ رفع البتود »
 وعرضت عليها عرض الجنود ، ليجتلى طلاقة روائها
 القريب والبعيد ، ويستوى في هداية ضيائها
 الشقى والسعيد . وقد قوبل منها مبيض بمحمر ،
 وعورض مخضر بمصفر ... تضحك بيكائها
 وتبكي بضحكها ، وتهلك بحياتها ، وتحى
 بهلكها . »

ثم يصف ابن صاحب الصلاة رائحة البخور
 وهو يتصاعد من المجامر ، فيقول : « والطيب
 تفعم أفواحه وتنسم أرواحه ، وقرار الألنجوج
 والند ٦ يسترجع من الحياة ما ند ٧ . وكلما تصاعد
 وهو محاصر ، أطال من العمر ما كان قد تقاصر ،
 في صفوف مجامر ، ككعوب مقامر ... »

ثم يصف قباب المسجد من الداخل والخارج
 ويصف زخارفها التي تكسو الضلوع البارزة
 والمحراب وما يحيطه من نقوش وزخارف ، فيقول :

(١) يقصد بالتفاح كرات مستديرة .

(٢) نوع من النحاس الأصفر أو اللاتون .

(٣) يقصد ان ذهب إليها أو قصدتها .

(٤) شعبة الاذن .

(٥) المذنة .

(٦) البخور .

(٧) ما ذهب .

العرب وجغرافيتهم ، وأصبح ذكر الجامع لا يخلو من جميع تواليهم . ولولا أن هذا الأثر العظيم لا يزال راسخا في مكانه حتى اليوم ، تشهد عناصره بصدق أقوالهم ، لكننا قد اعتبرنا هذه الأوصاف ضربا من الخرافة ، أو نوعا من المبالغة الخيالية .

ولسنا نقصد من ذلك أن ما قيل عن جامع قرطبة كله حقيقى يجب تصديقه والأخذ به ، فان أقوال بعض المؤرخين ، عند وصفهم لروائع الآثار ، تشوبها في بعض الأحيان الروح الأسطورية ... فبعضهم ينسج من محض خياله قصصا تمتزج فيها الخرافة بالحقيقة ، وذلك مبالغة منهم في تعظيم الجامع . مثال ذلك ما ذكره عبد الواحد المراكشى من أنه لما دخل ألفونسو الأول ، ملك أرغون ، مدينة قرطبة في عام ٥٠٣ هـ « دخل النصراني في هذا المسجد بخيلهم ، فأقاموا به يومين لم تبسل دوابهم ، ولم ترث حتى خرجوا منه » . ويضيف المراكشى قائلا : « وهذه الحكاية مما تواتر عندهم ، واستفاض بقرطبة » .

كما ذكر ابن بشكوال في رواية أن « موضع الجامع الأعظم بقرطبة كان حفرة عظيمة بطرح فيها أهل قرطبة قمامتهم وغيرها ، فلما قدم سليمان ابن داود — صلى الله عليهما — ودخل قرطبة ، قال للجن : ارموا هذا الموضع وعدلوا مكانه ، فسيكون فيه بيت يعبد الله فيه ... ففعلوا ما أمرهم به . وبنى فيه بعد ذلك الجامع المذكور » .

وقال المقرئ : « قد شاع وذاع على ألسنة الجهم الغفير من الناس في هذه البلاد الشرقية وغيرها ، أن في جامع قرطبة ثلثمائة ونحو ستين طاقا على عدد أيام السنة ، وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق الى أن يتم الدور ثم تعود » . وذكر

أبو حامد الغرناطى الأندلسى في كتابه عجائب المخلوقات^١ أن « بهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر مكتوب على الواحد اسم محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى الثانى صفة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الآخر صورة غراب نوح ... الثلاثة خلقة ربانية » .

هذا كله يؤلف موضوعا من موضوعات القصص الشعبى الأندلسى الذى تواتر على مر العصور ، فأورده المؤرخون نقلا عن السنة العامة ، ومع ذلك فقد أوضحوا في كثير من الأحيان أنه مما شاع بين الناس ، حتى يميزوا بين ما يقولونه هم أنفسهم طبقا لما شاهدوه في رحلاتهم ، وبين ما قاله عامة الناس .

ولم يكن جامع قرطبة موضع اجلال المسلمين فحسب ... بل كان يتردد عليه عدد كبير من النصراني ، اذ كان ينظر اليه باعتباره أروع الآثار المعمارية في وقت كانت أوروبا تنغمس فيه في ظلمات الجهل والانحطاط . وقد زاره كثيرون من سفراء ملوك أسبانيا المسيحية وألمانيا وفرنسا ضمن الروائع الفنية التى يزهى بها الاسلام في الأندلس ، وقد نقلوا عند عودتهم كثيرا من عناصره الزخرفية في كنائسهم وقصورهم .

ثم ان جامع قرطبة كان يعد أعظم جامعة غربية في أوروبا في العصر الوسيط . وقد قيل ان الراهب جيرير ، الذى أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثانى ، أتم دراسته في جامع قرطبة . ولا نشك في أن كثيرين من نصارى الأندلس الذين كانوا يعيشون تحت ظل المسلمين ، قد تعلموا فيه علوم العربية ، واستعربوا — أى تثقفوا بالثقافة

(١) مخطوطة محفوظة اليوم بمكتبة جامعة أكسفورد تحت رقم Hunt 565.

العربية — اذ وجدوا أنفسهم مضطرين الى مشاركة المسلمين في حياتهم ، رغبة في تقلد المناصب الكبرى في الادارة ودواوين الحكومة . وقد نبغ بعضهم في آداب اللغة العربية ، وظهر منهم الشعراء والكتاب .

وكان النصارى ، في المقاطعات الاسبانية الشمالية ، يعظمون جامع قرطبة ، ويجلون بقعته « لكنيسة كانت في الجانب الغربى منه معظمة عندهم ، عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم » . ولذلك رغب ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون ، حوالى عام ١٠٧٥ م ، في ارسال زوجته الى جامع قرطبة — وكانت حاملا — لتلد فيه ، لما أشار عليه القسيسون بذلك تبركا بمكانه .

وعلى الرغم من العدد الهائل من الأبحاث التى كتبها علماء الآثار الغربيون عن هذا الأثر ، ما زالت هناك مشكلات قائمة تتعلق أكثرها بتاريخ الجامع وبنائه . منها مشكلة تحديد عدد بلاطات الجامع فى بداية بنائه ، ومشكلة تفسير وجود أسلوبين زخرفيين مختلفين فى هذا المسجد الأول ، ومشكلة تفسير وجود طرازين مختلفين لكوابيل فى بيت الصلاة فيه ، ومشكلة الدور الذى لعبه الأمير محمد فى هذا المسجد ، وكيف وصل المسجد الى مساحته الحالية ، ومشكلة الأسقف التى كانت تعلوه ... الى آخره .

وهذه كلها مشكلات شائكة لم يتوصل اليها علماء بعد الى حلها . وقد قمت بمحاولات كثيرة فى هذا السبيل أدت الى الوصول الى نتائج طيبة ، وافقنى عليها مؤرخو الفن الاسبانى : أمثال الأستاذ لاميير ، والأستاذ جاستون قيث ، والمرحوم الأستاذ ليقى بروفنسال ، والسنور تودىس بلباس ،

والسنور فيلت هرناندث ، والسنور جيريرو لوفيو^١ .

وقد اضطرت الى التوسل بالمدونات العربية التاريخية التى كتبت عن تاريخ الجامع ، والتى تعد المصدر الأول لتاريخه ، وقمت بدراستها بالتفصيل ، وطبقت النصوص التاريخية وما قرأته من نقوش كتابية داخل الجامع على الحقائق الأثرية التى أسفرت عنها الحفائر فى أرضية بيت الصلاة والصحن .

المسجد الجامع فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل
ذكر ابن عذارى المراكشى فى كتابه « البيان المغرب » ، نصا للرازى عن الفقيه محمد ابن عيسى ، نستنتج منه أن المسلمين ، عند افتتاحهم قرطبة ، امتثلوا ما فعله أبو عبيدة ابن الجراح وخالد بن الوليد ، عن رأى عمر ابن الخطاب ، من مشاطرة المسيحيين فى كنائسهم مثل كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق وغيرها مما أخذوه صلحا ... اذ أن الفن الاسلامى فى هذا العصر المبكر لم يكن قد نبت بذوره بعد وكان المسلمون حديثى عهد بالبلاد المفتوحة ، فكان من الطبيعى أن يجهلوا مصادر استخراج الرخام والحجر والخشب وغيرها من مواد البناء ، فاضطروا الى استغلال الأبنية المسيحية فى اقامة مساجدهم ... والمسجد بحق هو أساس العمران الاسلامى فى العصور الوسطى ، والمركز الدينى

(١) نشرت اولى هذه المحاولات فى مجلة Al-Andalus الاسبانية تحت عنوان :
(Cronologia de la mezquita de Cordoba levantada por Abd er-Rahman.I Revista Al-Andalus. vol XIX, fasc. 2, 1954.

تم ذكرت النتائج التى وصلت اليها فى رسالتى بالفرنسية
Textes Arabes relatifs à la grande mosquée de Cordoue

ونحن فى سبيل ترجمة هذه الرسالة الى اللغة العربية .

الذى تلتف حوله بقية المراكز العمرانية للمدينة الإسلامية ، والقلب الذى ينبض بحياتها .

وهكذا شاطر المسلمون فى قرطبة النصارى كنيستهم العظمى التى كانت تقع داخل مدينة قرطبة نفسها ، بالقرب من السور الجنوبى الذى يحيط بها ، وفى مقابل باب القنطرة — وكانت تعرف بشنت بنجنت Saint Vincent — وابتنوا فى ذلك الشطر جامعا بسيطا البناء ، غير منتظم التخطيط ، أسس حنش الصنعانى وأبو عبد الرحمن الحبلى التابعان قبلته بأيديهما ، وتركوا النصف الآخر للنصارى يقيمون فيه شعائرهم الدينية ، بعد أن هدموا كنائسهم الأخرى بقرطبة .

وقنع المسلمون الفاتحون بمسجدهم البسيط حينما من الدهر ، حتى كثر عددهم بوصول الطلائع العربية المتتابعة الى الأندلس . ونزل قرطبة أمراء العرب من جند الشام فى عصر الولاة (٧١٤ — ٧٥٥ م) ، وأصبح مسطح بيت الصلاة بجامع قرطبة ، على ضيقه ، لايفى بعددهم الكبير ، فجعلوا يعلقون فيه سقيفة اثر سقيفة ليقيموا ظللا يستكنون تحتها . وكان ارتفاع هذه السقائف يقل تدريجا لارتفاع مستوى سطح الأرض كلما اتجهنا نحو الوادى ، مما سبب مضايقات كثيرة للمصلين ، اذ كانوا يجدون صعوبة فى القيام لتلاصق تلك السقائف ، وقصر أبوابها ، وتطامن سقوفها ... حتى كان أكثرهم لا يستطيع القيام معتدلا لتقارب السقف من الأرض .

ولم تزل هذه حال المسجد الى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المروانى أرض الأندلس ، وجعل قرطبة دار امارته ... فنظر فى تجميلها بالأبنية العظيمة ، والمنشآت الجليلة التى تتناسب وفخامة دولته . ونظر فى أمر الجامع وذهب الى

توسعته واتقان بنيته ، وأحضر رؤساء النصارى بقرطبة ، وسامهم فى بيع ما بقى فى حوزتهم من كنيسة « شنت بنجنت » ليدخله فى المسجد ، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه ... فأبوا أول الأمر بيع ما بأيديهم ، وطلبوا منه — بعد الجدل بهم — أن يباحوا بناء كنيستهم شنت أجلح San Asciclo التى هدمت خارج أسوار مدينة قرطبة ، بالقرب من باب العطارين ، على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به . فتم الأمر على ذلك فى عام ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) ، وخرجوا له عن كنيستهم ، فأدخلها فى بناء الجامع الأعظم .

وكان شروع عبد الرحمن الداخل فى هدم الكنيسة والمسجد القديم ، وبناء جامع قرطبة ، عام ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) . وتم بناؤه ، واكتملت أسواره فى عام ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) . وأتفق عبد الرحمن فى بناء هذا المسجد الجديد نحو ثمانين ألف دينار . وفى ذلك يقول البلوى الشاعر :

وأبرز فى ذات الاله ووجهه

ثمانين ألفا من لجين وعسجد

توزعها فى مسجد أبه التقى

ومنهجه دين النبى محمد

ترى الذهب النارى فوق سموكه

يلوح كبرق العارض المتوقد

وينقسم الجامع الجديد الذى بناه الأمير الداخل

— شأنه فى ذلك شأن المساجد الجامعة الأولى —

قسمين : قسما مسقوفا هو بيت الصلاة ، وقسما

مكشوفا هو الفناء أو الصحن . ويتألف بيت

الصلاة من تسعة بلاطات عمودية على جدار القبلة ،

تمتد على اثنى عشر عقدا (قوسا) . تقوم على

عمد من الرخام . والبلاط الأوسط أوسع من

البلاطات الأخرى وأكثر ارتفاعا . وسقف الجامع

كله كان يتألف من لوحات خشبية مسطحة مصفوفة عرضا (مساوات) ، ومثبتة في عوارض خشبية طولية (جوائز) . وتكسو هذه اللوحات والعوارض الطولية زخارف هندسية ملونة ومنقوشة من دوائر وفصوص ومسدسات ومثلثات ١ . وكان يعلو هذا السقف المسطح هياكل مسنمة هرمية الشكل ، تمتد على امتداد البلاطات ، تاركة فيما بينها قنوات مقعرة لتجري فيها مياه الأمطار . ويحيط بالأسقف من الداخل ازار خشبي منقوش بالآيات القرآنية .

وقد عثر المهندس الأثري « بوسكو » على بعض هذه اللوحات الخشبية المسطحة والعوارض الطولية بين الهياكل الهرمية ، وبين القبوات الجصية التي أقيمت بدل الأسقف المسطحة في القرن السابع عشر . ونجح « بوسكو » في إعادة تركيب جزء منها في سقف البلاط الأوسط بالمسجد كما كان في عهده الأول .

وعقدت بين العمود الرخامية ، على أعلى رءوسها ، عقود أو أقواس متجاوزة نصف دائرية تقوم مقام الأوتار الخشبية ، وظيفتها ربط الأعمدة فيما بينها ... كما أقيمت فوقها عقود مثابا تحمل الجدران التي تتكئ عليها الأسقف ، وتزيد في الوقت ذاته من ارتفاع السقف . وتستند هذه العقود العليا على دعائم من الحجر المنجور ، تتكئ بدورها على كوابيل مؤلفة من ثلاثة أو أربعة فصوص متراكبة الواحد فوق الآخر . ويتناوب في

(١) في ذلك يقول الشريف الإدريسي : « وسقفه كله مساوات مسمرة في جوائز سقفه ... والسماوات التي ذكرناها هي كلها فصوص الصنائع المنشأة من الضروب المسدسة والمزببة ، وهي صنع الفص وصنع الدوائر والمدامن ، لا يشبه بعضها بعضا ، بل كل سماء منها مكتف بما فيه من صنائع قد أحكم ترتيبها ، وأبدع تلويثها بأنواع الحمرة الزنجفورية والبياض الاسفيداجي والورقة اللازوردية والزرزقون الباروقي والخضرة الزنجارية والتكميل النقشي ، تروق العيون ، وتستميل النفوس بانقسان ترسيمها ، ومختلفات ألوانها وتقسيمها » .

جميع العقود العليا والسفلى اللونان الأصفر الشاحب والأحمر ، نتيجة لتناوب كتل الحجارة وقوالب الآجر في سنجاتها ... وبذلك استطاع مهندس عبد الرحمن الداخل أن يخلق تأثيرا زخرفيا ، ويكسب الجامع حلية بسيطة .

ويتألف كل عمود من أعمدة المسجد من تاج رخامي (رأس) وبدن وقاعدة رخامين أيضا ... وكل هذه الأعمدة قديمة استغلها بناء المسجد من الكنائس الخربة ، وأعادوا استخدامها في المسجد الجامع . وتمثل هذه الأعمدة جميعا غابة من النخيل ، وتوحى عقودها المتتابعة بالطبيعة الحية ، ويتسلل الضوء من شبكات النوافذ الخارجية ، فيصل ضعيفا باهتا داخل مسطح بيت الصلاة ، ويحدث تأثيرا قسويا في النفس ، فيستشعر المرء نفسه بعيدا عن نطاق الحقيقة ، ويظل مستغرقا مهيا للتطلع الى ما وراء الحس في صلاة خاشعة ، مؤديا لله فرضه ، مقرا له بعبوديته حياله .

وقد بحث مؤرخو الفن الاسباني في أصل فكرة ازدواج العقود بجامع عبد الرحمن الداخل ، وأرجعوها الى عقود الجسور الرومانية التي تقوم على طابقين ، وقارنوا نظام عقود جامع قرطبة بعقود الجسر الروماني بباردة ، وهو الجسر المعروف بلوس ميلاجروس أو جسر المعجزات . وإذا بحثنا عن وظيفة كل من هذين النوعين من العقود ، وجدنا أنهما تختلفان . ولا شك أن عقود قرطبة ابتكرها مهندس عبد الرحمن ، وأملت صورتها عناصر البناء ومواده التي كانت في متناول يده ، وبخاصة الأعمدة القصيرة التي جمعها من الخرائب .

وعهد عبد الرحمن الداخل الى عبد الله صمصعة بن سلام (توفي في عام ١٩٢ هـ) ، صاحب الصلاة بالمسجد ، بغرس صحن المسجد بالأشجار .

واتبع أمراء الأندلس وخلفاؤها هذه التقاليد بعد ذلك ، فطبقت في بقية مساجد الأندلس . وقنع الأمير عبد الرحمن بأحد أبراج قصر الامارة المجاور للمسجد ، من جهته الغربية ، ليقوم مقام المئذنة ، وترك مشكلة بناء المئذنة الى ابنه هشام من بعده (٧٨٨ - ٧٩٦ م) .

ويغلب على الظن أن عبد الرحمن الداخل أرجأ بناء مئذنة الجامع الى ما بعد زخرفته وتنسيقه ، ولكن الموت أدركه وهو يتأهب لبناء المئذنة ، فأقامها ابنه هشام من خمس فيء أربونة . وقد عثر المهندس الأثرى « فيلث هرناندث » على موضعها الذي كانت تقوم عليه ، وكشف عن أساس قاعدتها المربعة وطولها ستة أمتار . وكان ارتفاع المئذنة — وفقا لروايات المؤرخين العرب — أربعين ذراعا ، أى ما يقرب من عشرين مترا ... كذلك أقام هشام ميضأة شرقي الجامع ، وبني سقائف أو أروقة لصلاة النساء .

جامع قرطبة في عهد عبد الرحمن الأوسط ومن خلفه من الأمراء

ولما تولى عبد الرحمن بن الحكم الامارة ، بعد وفاة أبيه الحكم بن هشام (٨٢٢ - ٨٥٢ م) ، رفع من شأن قرطبة ، وجعلها عاصمة تليق بالامارة . وفي عهده تكاثرت الناس في قرطبة ، وتوافدوا اليها ، واتسبوا من كل أوب ، حتى ضاق عنهم بيت الصلاة بالجامع . فاضطر عبد الرحمن الأوسط الى توسعة الجامع ، وأنشأ عام ٨٣٤ م بلاطين جديدين على جانبي بيت الصلاة ، أضافهما الى البلاطات التسعة القديمة ، فأصبح عدد بلاطات المسجد جميعا أحد عشر بلاطا ، وبذلك اتسع مسطح بيت الصلاة اتساعا قليلا ، ثم مد هذين البلاطين الزائدين في فناء الجامع ، ووصلهما

بسقيفة تمتد بجذاء الجدار الشمالي للجامع ، أعدها لصلاة النساء .

ثم أضاف عبد الرحمن الأوسط الى بيت الصلاة اضافة جديدة في عام ٨٤٨ م ، فمد جميع بلاطات الجامع نحو الجنوب ما يقرب من ستة وعشرين مترا ، أى أنه مد الصفوف العشرة للعقود على ثمانية عقود جوفية ، ونقل المحراب القديم الى نهاية جدار القبلة الجديد الذي وصلت اليه الزيادة . وقد استخدم عبد الرحمن في هذه الزيادة عددا كبيرا من أمهر مهندسيه ، وكان المشرف على البنيان أكبر فتيانه الحصيان نصرا ومسرورا ، كما أشرف عليه قاضي قرطبة محمد بن زياد .

وسايرت زيادة عبد الرحمن الأوسط أسلوب عبد الرحمن الداخل في بنائه ، ولم تشذ عنه الا في الكواويل التي اقتصرت هذه المرة على بروز محدب . وفتح في بيت الصلاة بايين في جانبي المسجد الشرقي والغربي ، بالاضافة الى البابين القديمين ، فأصبح للجامع أربعة أبواب : اثنان منها في الجهة الغربية ، واثنان في الجهة الشرقية ، ولم يتبق منها سوى بابي الجدار الغربي ، وهما : سان استبان (باب الوزراء) ، ودي لوس ديانيس (باب الأمير) . أما البابان الآخران فقد هدمهما المنصور بن أبى عامر في زيادته التي أضافها شرقي بيت الصلاة .

ثم مات الأمير عبد الرحمن الأوسط قبل أن يتم زخرفة المسجد ، وخلفه ابنه محمد ، فأمر عام ٢٤١ هـ باتقان طرز الجامع وتنسيق نقوشه . ثم أقام عام ٢٥٠ هـ مقصورة خشبية حول المحراب ، وجعل لها ثلاثة أبواب ... فلما كمل ما أمر به في الجامع ، دخله وصلى فيه ركعات خضع فيها ، فقال في ذلك موسى بن سعيد :

لعمري لقد أبدى الامام التواضعا
فأصبح للدنيا وللدين جامعا
بنى مسجدا لم يبن في الأرض مثله
وصلى به شكرا لذي العرش راكعا
قطوبى لمن كان الأمير محمد
له ، اذ دعا فيه الى الله شافعا

وما زالت تزين عقد باب سان استبان كتابة
كوفية تسجل أعمال الأمير محمد في الجامع نصها :
« بسم الله الرحمن الرحيم ... أمر الأمير ، أكرمه
الله ، محمد بن عبد الرحمن ببناء ما حكم به من
هذا المسجد واتقانه ، رجاء ثواب الله عليه وذخره
به ، فتم ذلك في سنة احدى وأربعين ومائتين على
بركة الله وعونه . مسرور ونصر فتياه . »

ثم زاد الأمير المنذر بن محمد البيت المعروف
ببيت المال ، فأقامه في صحن الجامع على غرار بيوت
المال في مساجد دمشق وحماة وحمص وعمرو بن
العاص بالقسطنطين ، وأمر بتجديد السقاية واصلاح
السقائف . ثم زاد أخوه الأمير عبد الله بن محمد
ساباطا (ممرا علويا) معقودا على حنايا ، أوصل
به ما بين القصر والجامع من جهة الغرب ، ثم أمر
بستارة من آخر هذا الساباط الى أن أوصلها
بالمحراب ، وفتح الى المقصورة بابا كان يخرج منه
الى الصلاة . وهو أول من اتخذ ذلك من أمراء
بنى أمية بالأندلس ، وتابعه في ذلك من خلفه منهم .

المسجد الجامع في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر

كانت المئذنة التي أقامها الأمير هشام بن عبد
الرحمن الداخل قد تصدعت ، كما كان بيت الصلاة
قد ازداد اتساعا منذ زيادة عبد الرحمن الأوسط ،
وأصبح الصحن بالنسبة لبيت الصلاة ضيقا جدا
لا يتناسب مع تخطيط الجامع . وكان في مقبرة
الخليفة عبد الرحمن الناصر أن يقوم باصلاح
ما تصدع من المئذنة ، ويعدل بناءها — كما فعل في

واجهة بيت الصلاة المطل على الصحن — غير أنه
رأى ضآلتها بالنسبة لمسجد سقفه فسيح ... ثم
انه كان قد أعلن في عام ٣١٩ للهجرة أحقيته
للخلافة ، وشرع في تنفيذ برنامج حافل لتجميل
عاصمة خلافته بالأبنية العظيمة والقصور السامقة ،
والمنشآت الجليلة التي تليق بجلال الخلافة وبهائها ،
وكان يقول :

هم الملوك اذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبالسن البنيان

أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان

ان البناء اذا تعظم قدره

أضحى يدل على عظيم الشأن

لذلك كله رأى الخليفة عبد الرحمن الناصر أن
يقيم مئذنة جديدة تسمو على سائر العمران بقرطبة،
ويراها القادمون من بعيد كأنها المنار يهذى السفن
الضالة في مياه البحر . وأمر عام ٣٤٠ للهجرة
(٩٥٠ م) ببناء مئذنة جديدة ، فجمع لها عرفاء
المهندسين من كل مكان ، وأحضر لها الأحجار
الضخمة على عجل . وشرع المهندسون في بنائها
بعد أن هدموا مئذنة هشام الى قواعدها ، وهدموا
الصور الشمالي للمسجد وحفروا أساسها حتى
بلغ الماء ، وأتموا بناءها في ثلاثة عشر شهرا ...
فجاءت رائعة البناء .

وكانت مئذنة هشام ذات مطلع واحد ، فجعلوا
لمئذنة الناصر مطلعين ، وفصلوا بينهما بالبناء ، فلا
يلتقى الراقون فيها الا بأعلاها . وكان لكل مطلع
منهما مائة وسبع درجات ، وبلغ ارتفاعها ثمانين
ذراعا حتى مكان المؤذن ، أى ضعف ارتفاع المئذنة
الأولى ، ومن مكان المؤذن الى أعلاها عشرين
ذراعا ... ثم نصب بأعلى المئذنة سفود بارز ركبت
فيه ثلاث تفاحات من الذهب والفضة .

وبلغ طول كل جانب من المئذنة نحو ثمانية أمتار ونصف متر ، وجدرانها مبطنة جميعها بنوع من الحجر الجيري يعرف باسم الكذان اللكى ، ومنقوشة — من أسفلها الى أعلاها — بنقوش متنوعة وزخارف ملونة .

وكانت الأوجه الأربعة للصومعة تزدان بثلاثة صفوف من النوافذ المزدوجة ، تحيط بها عقود تشبه حدوة الفرس ، قائمة على عمد من الرخام . وكانت هذه الجدران تنتهى من أعلى بأفريز من عقود صماء قائمة على عمد صغيرة ، ويعلو الأفريز شرفات مسننة تشبه شرفات الجامع نفسه . وقد اتخذت مئذنة الناصر أنموذجا للمآذن الأندلسية ، مثل مئذنة جامع اشبيلية ، ومئذنة جامع الكتبية ، ومئذنة جامع رباط .

ولقد أصيبت هذه المئذنة عام ١٥٨٩ بأضرار جسيمة اثر زلزال عنيف سبب تصدعا فى جزئها الأعلى المعروف ببيت المؤذن ، وأوشكت المئذنة على الانهيار ، فقام المهندس القرطبى « هرنان رويث » ، فيما بين عامى ١٥٩٣ — ١٦٥٣ ، بملء الفراغ الداخلى بالبناء ، ثم أحاط الجدران الخارجية للمئذنة بغلاف من الحجارة لتقوى القاعدة على حمل الجسم العلوى الذى توجه بها . وقد نجح مهندس الجامع « السنيور فيلت هرناندث » فى الكشف عن بقايا جدران مئذنة عبد الرحمن الناصر حتى ارتفاع ما يقرب من ٢٢ مترا ، كما اكتشف من الدعامتين المركزيتين ما يبلغ ارتفاعه نحو ٢٦ مترا ، وعثر بفضل أبحاثه على بعض النوافذ التى كانت تطل على فناء المسجد بعقودها المتجاوزة وسنجاتها الملونة .

ولم تقف أعمال عبد الرحمن الناصر عند هذا الحد ، فقد قام بترميم واجهة بيت الصلاة المطل على الصحن ، وكانت قد تصدعت بسبب الدفع

المستمر للعقود الداخلية ... ثم أصلح باب سان استبان ، وأقام عليه ظلة تستند على كوابيل على نمط كوابيل واجهة بيت الصلاة .

وقد سجل عبد الرحمن الناصر أعماله هذه على لوحة بجوار المدخل الى البلاط الأوسط نقرأ فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ... أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله — أطال الله بقاءه — ببناء هذا الوجه واحكام اتقانه ، تعظيما لشعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته التى أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ... ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر وجزيل الذخر ، مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر . فتم ذلك بعون الله فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلثمائة ، على يدى مولاه ووزيره وصاحب مبادئه عبد الله بن بدر ... عمل سعيد بن أيوب » .

زيادة الخليفة الحكم المستنصر

افتتح الخليفة الحكم المستنصر خلافته بالنظر فى زيادة المسجد الجامع بقرطبة ... اذ تضاعف عدد سكان قرطبة فى ذلك الوقت ، وضاحت المدينة بمن وفد اليها من بربر العدو من قبيلة زناتة الذين حالفوا الأمويين فى الأندلس ضد الفاطميين ، ولم يعد المسجد الجامع يتسع لجموعهم الغفيرة ، ونال الناس ضرر كبير من جراء ازدحامهم . فاضطر الحكم الى توسيع المسجد ، وعهد الى حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى ، فى اليوم الثانى من خلافته ، بمهمة الاشراف على احضار الأحجار من جبال قرطبة .

وخرج الحكم بنفسه لتقدير الزيادة وتفصيل بنائها ، وأحضر لهذا الغرض الأشياخ والمهندسين ، فحدوا هذه الزيادة من قبلة المسجد الى آخر الفضاء ، ورسوموا أن تكون بمد بلاطات المسجد جنوبا على اثنى عشر عقدا . وقال ابن سعيد فى هذه

الزيادة : « وبها كملت محاسن هذا الجامع ، وصار في حد يقصر الوصف عنه » . واستمر بناء الزيادة أربع سنوات أنفق فيها مائتان وستون ألف دينار وخمسمائة وسبعة وثلاثون ديناراً .

وفي عام ٣٥٤ للهجرة أتم بناء قبة المحراب . وقد سجل ذلك في نقش يدور بعقد المحراب نصه : « ... ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين موفق الامام المستنصر بالله عبد الله الحكيم أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، لهذه البنية المكرمة ، ومعينه على نيته الخالدة في التوسع لرعيته ... ما اليه واليهم الرغبة فيما ابتدا من فضله فهميم ، وصلى الله على محمد وسلم . أمر الامام المستنصر بالله عبد الله الحكيم أمير المؤمنين ، وفقه الله ، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله ، بتشبيك هذه البنية ، فتم بعون الله بنظر محمد ابن تميم وأحمد بن نصر وخالد بن هاشم ، أصحاب شرطته ، ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب » ثم أحاط هذه القبة بقبتين جانبيتين ، وأقام على مدخل زيادته بالجامع ، تجاه قبة المحراب ، قبة أخرى تشبه قبة باب البهو بجامع الزيتونة بتونس ، وقبة جامع القيروان .

ثم شرع في تنزيل الفسيفساء بالمسجد — وكان ملك الروم قد بعث بها اليه مع صانع يتقن صناعتها — فأجرى الصانع الفسيفساء على جدار المحراب وفي باطن القبة الكبرى ، ومنه تعلم الصانع المسلمون طريقة تنزيل الفسيفساء وحذقوها وفاقوه في صنعته . وفي أعلى عقد المحراب نقش كوفي نقرأ فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ... أمر عبد الله الحكيم أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن ، رحمه الله ، بعمل هذه

الفسيفساء في البيت المكرم ، فتم جميعها بعون الله سنة أربع وخمسين وثلثمائة » .

وفي عام ٣٥٥ للهجرة أمر بوضع المنبر القديم الى جانب المحراب ، ونصب في قبة زيادته مقصورة من الخشب ، منقوشة الظاهر والباطن ، مشرفة الذروة ، طولها خمسة وسبعون ذراعاً ، وعرضها اثنان وعشرون ذراعاً ، وارتفاعها الى الشرفات ثمانية أذرع . وأحاط بها خمسة بلاطات من زيادته ، وأطلق أطرافها على الستة الباقية ، وجعل لها ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش .

وصنع لزيادته منبراً « ليس على معمور الأرض أتقن منه ، ولا مثله في حسن صنعته ، وخشبه ساج وأبنوس وبقم وعود قاقلى . ويذكر في تاريخ بنى أمية أنه أحكم عمله ونقشه في سبع سنين ، وكان يعمل فيه ثمانية صناع » . وكان عدد درجاته تسعاً ، وعدد حشواته ستة وثلاثين ألف حشوة ، سمرت بمسامير الذهب والفضة ورصعت بنفيس الأحجار . وفي عام ٣٥٦ هـ هدم الحكم الميضاة القديمة التي كانت في قناء الجامع ، وبني موضعها أربع ميضات في كل جانب من جانبي القناء : الشرقي والغربي ، وأجرى اليها الماء من عين بجبل قرطبة في قناة حجرية متقنة البناء ، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحتفظه من كل دنس ، وصبت ماءها في أحواض من الرخام . ثم أجرى ما يزيد على حاجة المسجد الى سقايات اتخذها على أبواب الجامع بجهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية . ويقول الشاعر محمد بن شخيص في وصف هذه القنوات :

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف
من أعذب الماء نحو البيت تجريها
طهر الجسوم اذا زالت طهارتها
رى القلوب اذا حست صوادياها

قرنت فخرا بأجر قل ما اقترنا

في أمة أنت راعيها وحاميها

واختتم الحكم أعمال البناء ببناء دار للصدقة
غربي الجامع ، لتكون معهدا لتوزيع صدقاته ،
كما أقام في ساحة الجامع مكاتب لتعليم أولاد
الضعفاء والمساكين القرآن ، وفي ذلك يقول
ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة

مكاتبها لليتامى من نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم

نادتك : ياخير تاليها وداعيها !

وزيادة الحكم المستنصر أعظم ما أضيف الى
جامع قرطبة من حيث البناء والزخرفة ، وقد
زودت المسجد بتناسقه وتعادل أجزائه .

وقباب الجامع تقوم على هياكل من عقود بارزة
متشابهة في أشكال هندسية رائعة ، تؤلف نجوما
تتوسطها قبيبات مفصصة ، وكسيت الفراغات بين
العقود البارزة بزخارف نباتية آية في الروعة
والجمال ، وأجرى فيها الفسيفساء المذهبة . وقد
أوحت قباب الحكم الى الفنانين الفرنسيين ابتكار
القبوات القوطية الشهيرة .

أما المحراب الجديد الذي أقامه الحكم فهو
أجمل عنصر معماري في الجامع ، اذ غنى به
المهندسون باعتباره أنبل مكان بالمسجد ، فأقاموا
القباب على بلاطه الأوسط ورواقه الأمامي ،
ونقش هذا المحراب من الداخل والخارج
بالتوريقات ، وزينت عضاداته بلوحات رخامية
حفرت فيها زخارف نباتية وتوريقات حفرها غائرا .

وقد فتح الحكم الى يمين المحراب بابا يؤدي
الى الساباط الجديد الذي يصل بين قصره
ومقصورته بالجامع .

الزيادة الأخيرة في عهد المنصور بن أبي عامر

شرع المنصور بن أبي عامر ، عام ٣٧٧ هـ ، في
زيادة المسجد حين ضاق بيت الصلاة فيه عن
المصلين . ولما كان قصر الخلافة يجاور الجانب
الغربي للمسجد ، بدأ زيادته بشرقيه على بلاطات
تمتد بطول المسجد من أوله الى آخره ، وقصد
منها المبالغة في الاتقان ، واحكام البنية دون
الزخرفة ، وإن كانت لا تقل عن سائر الزخارف
روعة وجمالا . وكان أول ما قام به المنصور هو
نزع ملكية الدور القائمة شرقي الجامع والتي
أدخلها في زيادته وتعويض أصحابها عنها بالمال
والعقار .

وذكر ابن بشكوال « أنه لما عزم على زيادته
هذه ، جلس لأرباب الدور التي نقل أصحابها
عنها ، فكان يأتي بصاحب المنزل فيقول له : إن
هذه الدار التي لك يا هذا ، أريد أن أبتاعها
لجماعة المسلمين ، من مالهم ومن قبثهم ، لأزيدها
في جامعهم وموضع صلاتهم ، فشطط ، واطلب
ما شئت . فاذا ذكر له أقصى الثمن ، أمر أن يضاعف
له ، وأن تشتري له بعد ذلك دار عوضا عنها ...
حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها
نخلة ، فقالت : لا أقبل عوضا الا دارا بنخلة .
فقال : تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت
المال ! فاشتريت لها دار بنخلة ، وبولغ في الثمن » .

وذكر ابن بشكوال أيضا أن المنصور كان يجبر
أسرى النصارى على الاشتراك في بناء زيادته ،
وأن « أحسن ما شاهدته الناس في بنيان هذه
الزيادة العامية أعلاج النصارى مصفدين في
الحديد من أرض قشتالة وغيرها ، وهم كانوا
يتصرفون في البنيان عوضا من رجالة المسلمين » .
وقال الشقندي في رسالته : « إن الزيادة
التي زادها في بنائه ابن أبي عامر من ترايب نقله

النصارى على رؤوسهم مما هدم من كنائس بلادهم . كما أن ثريات جامع قرطبة من نواقيس النصارى التى غنمها المنصور من غزوته لشتت ياقب عام ٣٨٧ هـ .

ولقد فقد جامع قرطبة بعد زيادة المنصور تناسقه واتزانه وتعادل أجزائه ، اذ أصبح المحراب متطرفا عن وسط جدار القبلة ، بعد أن كان يقع فى محور البناء ، كما أن المنصور هدم أبواب الجامع من جهة الشرق قبل أن يشرع فى زيادته ، وفتح فى الجدار الشرقى بعد الزيادة أبوابا أخرى ، فأصبح عدد أبواب بيت الصلاة ستة عشر بابا ، على كلا الجانبين الشرقى والغربى ، يضاف إليها خمسة أبواب شارعة الى الصحن .

الجامع بصورته الحاضرة

واحتفظ المسجد الجامع بقرطبة بصورته تلك طول العصر الاسلامى ، ولم يطرأ عليه أى تغيير فى نظام بنائه ، ولم تضاف اليه أية اضافات اذا استثنينا أعمال الاصلاح التى لابد منها لكل أثر قديد . وظل كذلك حتى سقطت قرطبة فى يدى فرناندو الثالث عام ١٢٣٦ ، فتحول هذا البناء الاسلامى الشامخ الى كنيسة عرفت بساتنا ماريا الكبرى ، وأقيم به عام ١٣٧١ — فى عهد دون انريكي الثانى ملك قشتالة — مصلى سان فرناندو بجوار القبة الكبرى التى تعلو مدخل البلاط الأوسط من زيادة الحكم . وقد كسيت جدران هذا المصلى بزخارف من الطراز المدجن محفورة فى الجص ، كزخارف قصر الحمراء والقصر باشبيلية ، وتعلو هذا المصلى قبة تقوم على تشابك العقود البارزة ، وتختلف عن قباب المسجد فى أنها مكسوة بالمقرنصات الزخرفية الدقيقة .

على أن كل ما طرأ على المسجد حتى ذلك الوقت لا يعدو اضافات طفيفة غير جوهريه لم تغير فى

نظامه ، ولم تشوه من عمارته . ولكن منذ أواخر القرن الخامس عشر بدأ الاسبان يشوهون فى بنية هذا الأثر الاسلامى المجيد باضافات وتغييرات أساسية ... ففى عام ١٤٨٩ هدم الأسقف أنييجو مانريكى عقود البلاطات الخمسة ، الممتدة طولا من مصلى سان فرناندو — المعروف بمصلى فيلافيوسا — وأعمدتها حتى جدار الجامع الغربى ، وأقام جدارين طوليين رغبة فى عمل مجاز يغطيه سقف خشبى قائم على عقود قوطية . ثم شرع الأسقف دون ألونسو مانريكى عام ١٥٢٣ فى هدم جزء كبير من زيادة عبد الرحمن الأوسط وزيادة المنصور ، لاقامة كاتدرائية قوطية الطراز فى قلب الجامع شوهت البناء القديم ، وقضت على الوحدة المعمارية للمسجد . وقد أبدى شارلكان أسفه حين شاهد هذا التشويه ، وندم لموافقته على اجرائه فى أثر فريد بين آثار الأندلس ... بل العالم أجمع .

أشرف على بناء هذه الكاتدرائية المهندس « هرنان رويث » الى أن مات عام ١٥٤٧ ، وخلفه ابنه « هرنان رويث » حتى وفاته عام ١٥٨٣ ، ثم تبعه « هرنان رويث » الحفيد فأتم بناءها سنة ١٥٩٩ . ثم أقيمت على جدران الجامع من الداخل مصليات عديدة ذات طابع يتبع طراز عصر النهضة ، مثل مصلى لوس سيمانكاس ، ومصلى سان بابلو . وفى عام ١٦٨٢ أقام الأسقف فراى ألونسو دى مدينا مصلى لاكونثيثيون ، وزينه بتمائيل رائعة قام بعملها المثال الغرناطى بدور دى مينا . وفى عام ١٧٠٥ أقيم مصلى آخر يعرف بساتنا تريزا ، أو بمصلى الكاردينال سالازار . وفى القرن الثامن عشر انتزعت أسقف الجامع الخشبية ، بعد أن تآكلت بفعل الزمن ، وأقيمت بدلا عنها قبوات جصية فى جميع بلاطات الجامع ، وأجريت خلال

القرن التاسع عشر عدة اصلاحات في الجامع :
أولها ما قام به دون بدرو ترينفيا عام ١٨٢٦ ،
بترميمه المحراب .

ثم أعلن الجامع عام ١٨٨٢ أثرا قوميا ، وعهد
بالمحافظة عليه الى مدير مدرسة العمارة بمدير
« ريكاردو فيلاسكت بوسكو » . وقد قام هذا
المهندس الأثرى باصلاح مصلى فيلافيوسا ،
وأعاد وضع أسقف جامع قرطبة في البلاط
الأوسط ، واستبدل ببلاط الجامع القديم المصنوع
من الآجر بلاطا من الرخام ، ورمم واجهات الجامع
من الخارج بأبوابها عام ١٩٠٩ . وما زالت
الحكومة الاسبانية تولى هذا المسجد الجامع
نصيبا كبيرا من عنايتها ، وقريبا ستحتفل بمرور
ألف عام على بناء أعظم أثر اسلامي في أوروبا .

وقبل أن نختم حديثنا عن جامع قرطبة ينبغي
أن نشير الى تأثيراته في العمارة المسيحية
والاسلامية على السواء . فقد تغلغت هذه
التأثيرات في اسبانيا المسيحية ، ومنها انتقلت الى
مقاطعات فرنسا الجنوبية حيث تتجلى بحق في
كنائس جاسكونيا ولا نجدوك وأكيتانيا وأنجو
ونورماندى .

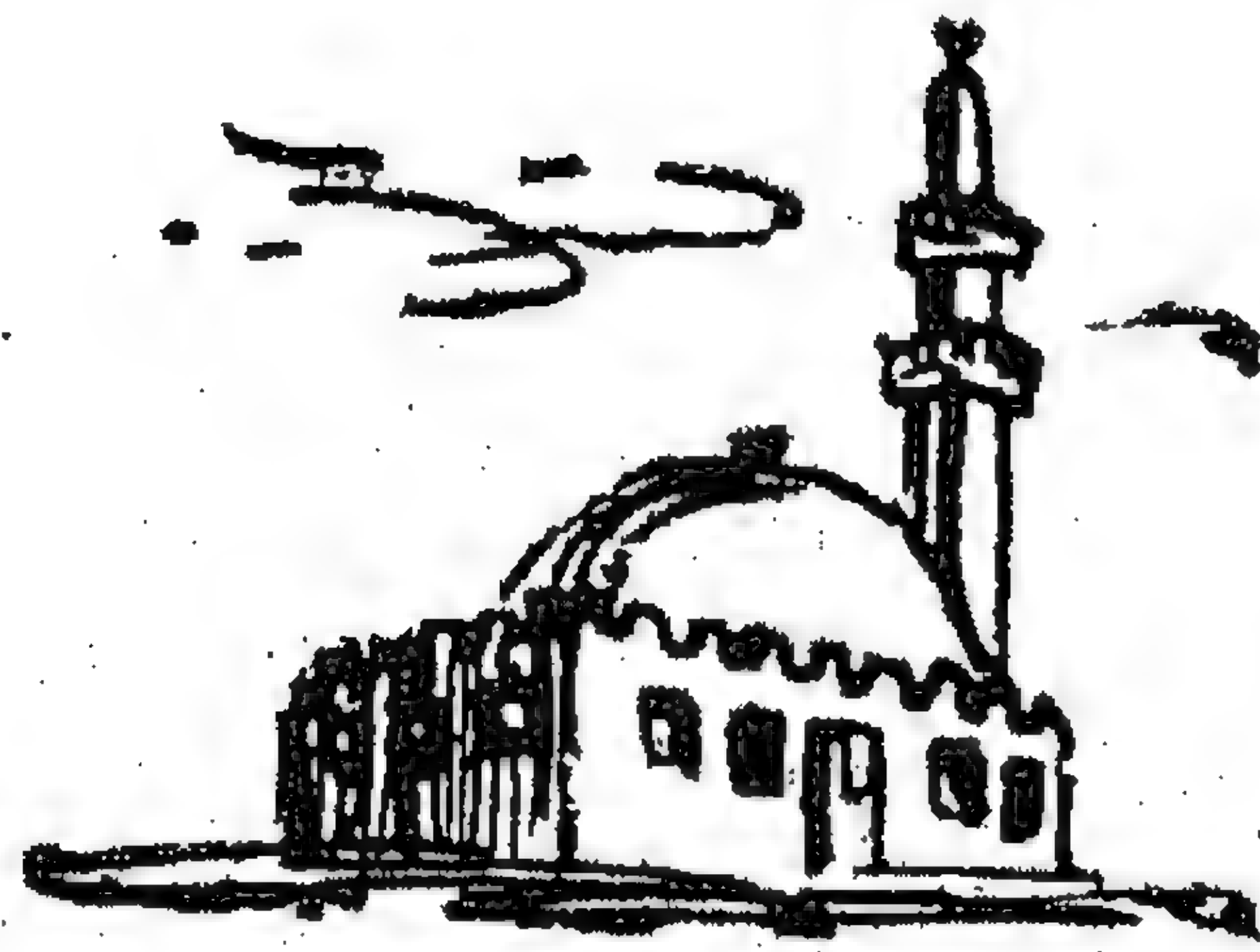
ومن القباب القرطبية الممثلة في الجامع استلهم
المهندسون الفرنسيون الحل المعماري الفريد الذي
تكشف عنه القبوات القوطية المصلبة ، كذلك
أعجب الفرنسيون بزخارف الجامع وحلياته ،

فنقلوا بعضها الى كنائسهم مثل الكوايل التي
تتجلى في كنيسة نوتردام دي بور دي كليمو ،
وبرج فرون في بيريجيه .

وانتشر العقد الثلاثي الفصوص في بوى ، حيث
ظهر في كاتدرائية نوتردام دي بوى ، وفي مقصورة
سان ميشيل داجويل ، وفي واجهة كنائس
موناستيه وريوتار وبولنيا ، وفي كنائس فيلاي
وكاتدرائية فالنس . كذلك انتشر العقد المتعدد
الفصوص ، وعقد حدوة القرس ، في دير كلوني
بيورجنى ، وفي برج كنيسة لشاريتيه سير نوار .
ويكفى أن أشير الى بحثى عن التأثيرات المعمارية
الأندلسية في العمارة المسيحية باسبانيا وفرنسا
الذى نشرته في المجلد الثانى من دائرة معارف
الشعب (ص ١٧٢ - ١٧٦) ، وبحثى عن هذا
الموضوع في مجلة « المجلة » العدد ١٤ (ص ٨٨)
تحت عنوان أثر الفن الخلافي بقرطبة في العمارة
المسيحية باسبانيا وفرنسا .

أما تأثيرات جامع قرطبة في العمارة الاسلامية ،
فتتجلى في مساجد المغرب وتونس والجزائر ، وفي
مساجد مصر في عصر المماليك . ولقد اشتدت هذه
التأثيرات بعد تقدم حركة الاسترداد المسيحية في
قلب الأندلس ، وهجرة كثيرين من أهلها الى سائر
البلاد الاسلامية في المغرب والشرق . وقد عالجت
هذا الموضوع بما فيه الكفاية في بحثى بدائرة
معارف الشعب الذى سبقت الاشارة اليه .

دكتور السيد عبد العزيز سالم



جامع الزيتونة

وأوضحت ما خفى من هذا الفن في عصر الأغالبة والعصر الفاطمي . وعلى هذا البحث الفريد اعتمد هؤلاء المؤرخون في أبحاثهم عن الفن التونسي في القرن التاسع للميلاد .

ويذكر البكري أن حسان بن النعمان أقام مسجدا بتونس عام ٨٤ للهجرة (٧٠٣ م) . ولكن هذه العبارة المقتضبة لا تشير الى المسجد الذي تقوم بدراسته ... لأن هذا الجغرافي يشير بعد ذلك الى بناء جامع الزيتونة على يد عبيد الله بن الجحباب عام ١١٤ هـ (٧٣٢ م) . ويختلف معه ابن عذاري في تحديد تاريخ البناء ، فيذكر أنه بنى عام ١١٦ هـ . ونص البكري أجدر بالثقة من نص ابن عذاري .

أما النويري فيذكر أن أبا ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب أمر ببناء المسجد الجامع بتونس ، وأنه شرع في البناء عام ٣٤٨ هـ (٨٦٣ م) . ومات الأمير بعد ذلك بسنة دون أن يتم ما شرع فيه من بناء ، فأتمه أخوه أبو محمد زيادة الله الذي تولى الامارة من بعده . ولم يطل عهد زيادة الله فمات بعد سنة واحدة وسبعة أيام في ذي القعدة عام ٣٥٠ هـ . ويذكر الدكتور فكري أن هذا هو السبب في أن اسمي هذين الأميرين لم يسجلا في النقوش التذكارية بهذا المسجد .

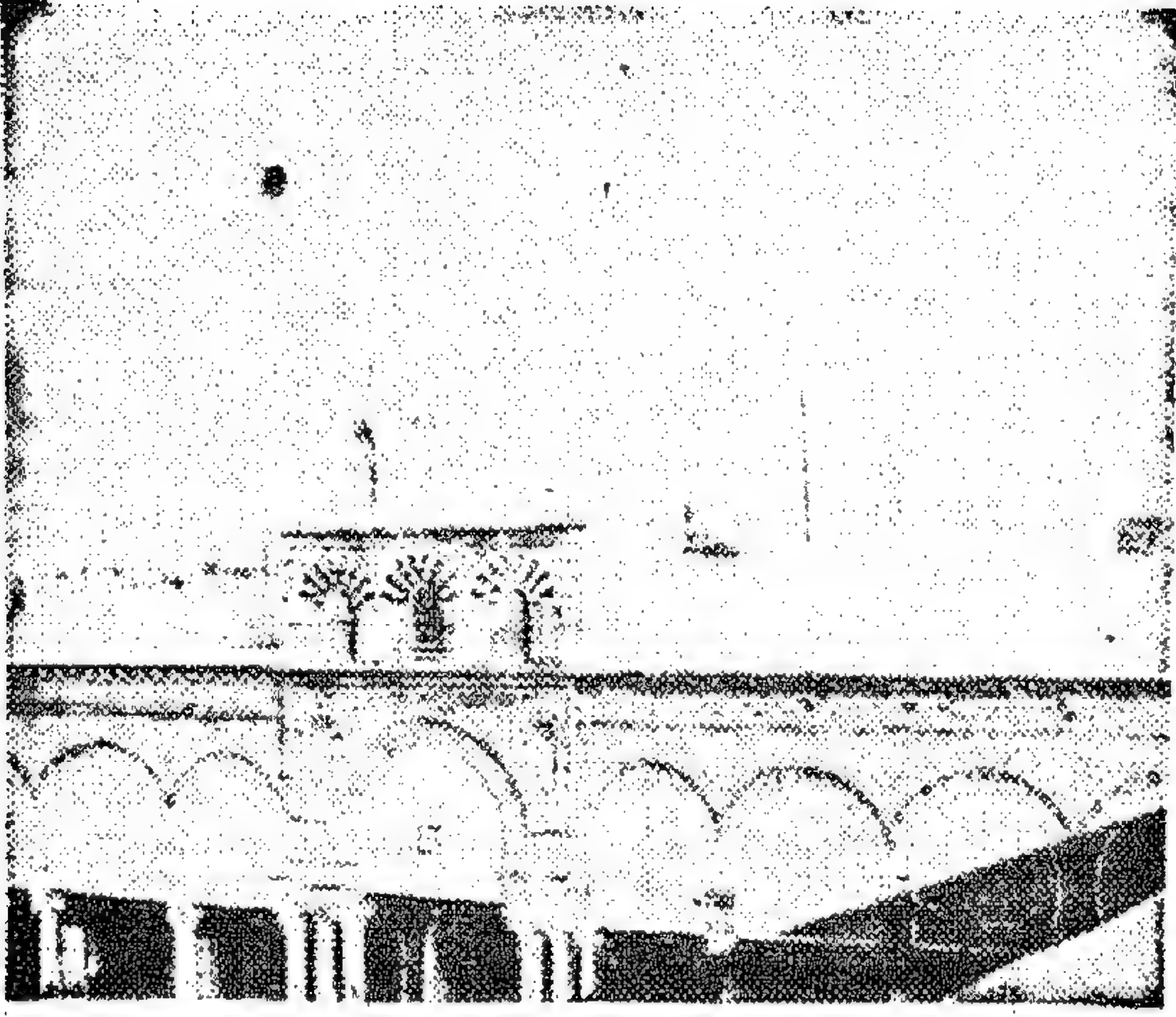
وتصمت المراجع التاريخية خلال القرون الأربعة التالية عن ذكر شيء عن هذا المسجد ، ثم تعود فتروى ما طرأ على الجامع من اصلاحات ... فيذكر الزركشي أنه شرع في

جامع الزيتونة بتونس من أهم مساجد المغرب ، ان لم يكن أهمها بالفعل ، لقدم عهده ، واحتفاظه بعناصره المعمارية والزخرفية الأولى منذ نشأته ، ثم لشهرته كجامعة علمية قديمة ما زالت تدرس فيها علوم اللغة العربية والتاريخ الاسلامي والفقه . وتاريخ هذا الجامع كان يكتنزه الغموض ، فقد أغفل المؤرخون وصفه في مدوناتهم التاريخية ... يضاف الى هذا أنه كان مغلقا في وجه الأجانب من غير المسلمين ، فلم تقم حوله أي دراسة أثرية علمية .

وظل هذا الجامع ، مع أهميته ، مجهولا لدى مؤرخي الفن ، لا يذكرون عنه الا اشارات تتعلق بوصف جدرانه الخارجية والأسواق المحيطة به ، حتى قام الدكتور أحمد فكري — أستاذ الحضارة الاسلامية ، ورئيس قسم التاريخ بجامعة الاسكندرية — بدراسة هذا الأثر الجليل عمليا بين عامي ١٩٣٢ — ١٩٤٨ ، ونشر أول أبحاثه عنه في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (الجزء الثاني ١٩٥٢ ص ٢٧ — ٦٤) تحت

عنوان La Mosquée Az-zaytoûna à Tunis (Recherches archéologiques)

ولا يفوتنا أن نذكر بهذه المناسبة أهمية هذا البحث لدى مؤرخي الفن الاسلامي عامة ، والفن المغربي بصفة خاصة ، باعتباره أول بحث علمي عن هذا الجامع . وقد ضمنه الأثرى الكبير آراء ونظريات على جانب كبير من الأهمية ، هدمت كثيرا من آراء المستشرقين عن عناصر الجامع — كبلاط المحراب ، وعلاقته بمجاز الكنائس —



قبة المحراب في مسجد الزيتونة بتونس

تتجه اتجاهين في آن واحد : عمودية على جدار القبلة ، وموازية لهذا الجدار . ويحتوى بيت الصلاة على سبعة بلاطات عرضية موازية لجدار القبلة ، طول كل منها ٥٦ مترا تمتد على خمسة عشر بلاطا طوليا ، متوسط طول كل بلاط منها ٢٦ مترا . وبلاط المحراب أكثر اتساعا من بقية البلاطات ، كما أن أسكوبه ، الممتد بطول جدار القبلة ، أكثر اتساعا من بقية الأساكيب ، مما يؤكد تأثر جامع الزيتونة في تخطيطه بجامع القيروان .

وعقود بيت الصلاة لا ترتكز على جدران الجامع ، بل تظهر مستقلة عن هذه الجدران ، وترتكز على أعمدة ، وهى تشبه حدوة الفرس ، ولا تختلف فى شيء عن عقود جامع القيروان ، وتقوم على حدائر بأعلاها قزم وبأدناها طنف من الحجارة . وتزدان حدائر جامع الزيتونة بزخارف نباتية محفورة فى كتلة الحجر ، فى حين تركت عارية من الزخرفة فى جامع القيروان . وتزدوج هذه الحدائر فى أسكوب المحراب بجامع الزيتونة لدعم الأعمدة وتركيز الضغط على كتلة واحدة بدلا من تشتيته وبعثرته .

اصلاح جامع الزيتونة وتحسينه وزخرفته فى عهد الواثق ، وتمت أعمال الاصلاح فى ١٥ من شعبان عام ٦٧٦ للهجرة . ويذكر المؤرخ نفسه أن السلطان يحيى زكريا أمر بصنع أبواب خشبية ، ووضع جوائز خشبية فى عرض المسجد . وإذا كانت هذه الاشارات الموجزة لا تكفى لدراسة تاريخ الجامع ، فإن الجامع ذاته أمدنا بنصوص تاريخية مهمة غاية الأهمية . فهو يحمل تاريخه مسجلا واضحا لا غموض فيه .

يقول الدكتور فكرى : « فقد أنشئ وجدد وأصلح ، وأضيف اليه ، وزخرف فيه فى عصور مختلفة لو تركت لعلماء الآثار لتضاربت فيها أقوالهم ، ولكن ذلك كله مسجل فى نقوش هذا الجامع ... مثل ذلك أننا نقرأ تاريخ بنائه مسجلا بقبة المحراب : « بسم الله الرحمن الرحيم . مما أمر بعمله الامام المستعين أمير المؤمنين العباسى طلب ثواب الله ، وابتغاء مرضاته ، على يدى نصير مولاه سنة خمسين ومائتين . « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ... صنعته فتح الله » . وبفضل هذه النقوش التى نراها أيضا فى واجهة الصحن القديمة وفى قبة البهو ١ ، وعلى الباب الشرقى النافذ من صحن الجنائز ، عرف تاريخ المسجد .

والمسجد مربع فى غير انتظام : طول جدار المحراب فيه ٦٤ مترا ، والغربي ٦٥ مترا ، والشرقى ٦٠ مترا ، والشمالى ٥٥ مترا . وعقود المسجد

(١) نجد هذا النقش التاريخي مسجلا فى قبة البهو ، وقد سقطت من التاريخ الكلمة التى تبين العدد العشرى وبقي رقم الإحاد ورقم المئات (احدى وثلاثمائة) ، ولكن هذا النقش نفسه نراه مسجلا على تاج سارية من سوارى هذه القبة نقرأ فيه : « كان ابتداء العمل فى المحليات والداموس (مضيفة أونزل للضيوف) والقبة فى شهر ربيع الاول من سنة ثمانين وثلثمائة ، وتم جميع ذلك من شهر جمادى الاولى سنة خمس وثمانين وثلثمائة » .

وأعمدة بيت الصلاة وتيجانها متنوعة ، جلبت من آثار رومانية وبيزنطية وأعيد استعمالها في الجامع . ومع ذلك فائنا نجد بجامع الزيتونة تيجانا اسلامية ترجع الى القرن الحادى عشر الميلادى ، وتظهر في قبتى هذا المسجد ملتصقة بالدعائم ، وتفتح فيها وريقات الاكشس على أكثر من صف .

وجدران الجامع مبنية جميعها بالحجر الجبرى المصقول ، ويبلغ ارتفاعها ما يقرب من تسعة أمتار ، وسكها ١٢٠ م ، وليس بها من الخارج ركائز كما هو الحال في جامع القيروان . وصحن الجامع مربع غير منتظم الأضلاع ، تحيط به مجنبتات من جهاته الأربع ، وترتفع في ركنه الشمالى الغربى مئذنة أقيمت عام ١٣١٢ م ، بدلا من المئذنة القديمة .

ولمسجد الزيتونة قبتان : احدهما أمام المحراب ، والثانية على مدخل البلاط الأوسط من جهة الصحن . وقد أقيمت قبة المحراب عام ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) ، على نمط قبة المحراب بجامع القيروان التى بناها زيادة الله بن الأغلب عام ٢٢١ هـ . ونشهد في قبة المحراب بجامع الزيتونة تطورا للعناصر الجديدة التى ظهرت أول مرة بجامع القيروان — وهى الضلوع البارزة ، والمقرنصات — كما نلاحظ فيها تفوقا في البناء وتقدما في الزخرفة .

وقد أوضحنا في دراستنا لقباب جامع القيروان أن قبة الزيتونة تعرض فكرة استقلال الضلوع البارزة عن الخوذة المفصصة في وضوح تام ، كما أنها تبشر بظهور القباب ذات الضلوع المتقاطعة التى ظهرت بجامع قرطبة بعد ذلك بما يقرب من قرن من الزمان . وفيها تتضح أهمية الضلوع المتقاطعة وعدم أهمية الخوذة أو الكتلة التى

تغطى هذه الضلوع ، فهى حشو زائد لا يؤثر في بناء القبة ، يمكن الاستغناء عنه واستبدال لوحات جصية أو زجاجية منقوشة به ، كما حدث في قبة المحراب بجامع تلمسان ، أو قبة المحراب بجامع تازة .

وتتكىء قبة المحراب بجامع الزيتونة على اثنين وثلاثين عمودا ، كما هو الحال في قبة المحراب بالقيروان . وتتخلل هذه الأعمدة طاقات مفتوحة ومغلقة متعاقبة في المحيط الدائرى لعنق القبة : أما الطابق الأدنى — وهو الذى يؤلف قاعدة القبة — فمربع تقوم على أركانه مقرنصات أربعة معقودة ، في كل مقرنص عقدان متراجعان في هيئة قواقع تتشعب فصوص جوفاتها من أركان القاعدة . وترتكز عقود المقرنصات على أعمدة . ويتوسط أعلى كل جانب من جوانب القاعدة المربعة للقبة عقد آخر يضم قوقعة في صورة زهرة . وهذا التقسيم الداخلى الى ثلاثة طوابق يتفق مع التقسيم الخارجى . فالطابق الأدنى مربع طول ضلعه نحو ستة أمتار ونصف متر ، وبكل من الوجهين الشمالى والجنوبى من هذا الطابق بقية المحراب بالقيروان ثلاث طاقات . وتختلف عقود طاقات قبة الزيتونة عن عقود طاقات القيروان في أنها تتألف من أربعة صفوف مسنجة متراكبة في تراجع . أما الطابق الثانى فدائرى أو شبه دائرى ، ويقابل الطاقات العشر بالداخل عشر دعائم موزعة بين النوافذ .

أما قبة البهو التى أقيمت عام ٣٨١ للهجرة ، فهى بحق أروع القباب التونسية جميعا ، لتناسق تخطيطها ، ودقة تفاصيلها المعمارية ، وتناسق نسبها ، وثناء زخارفها . وعناصر هذه القبة من الداخل كعناصر قبة المحراب ، ولكنها تبدو مستقلة واضحة .

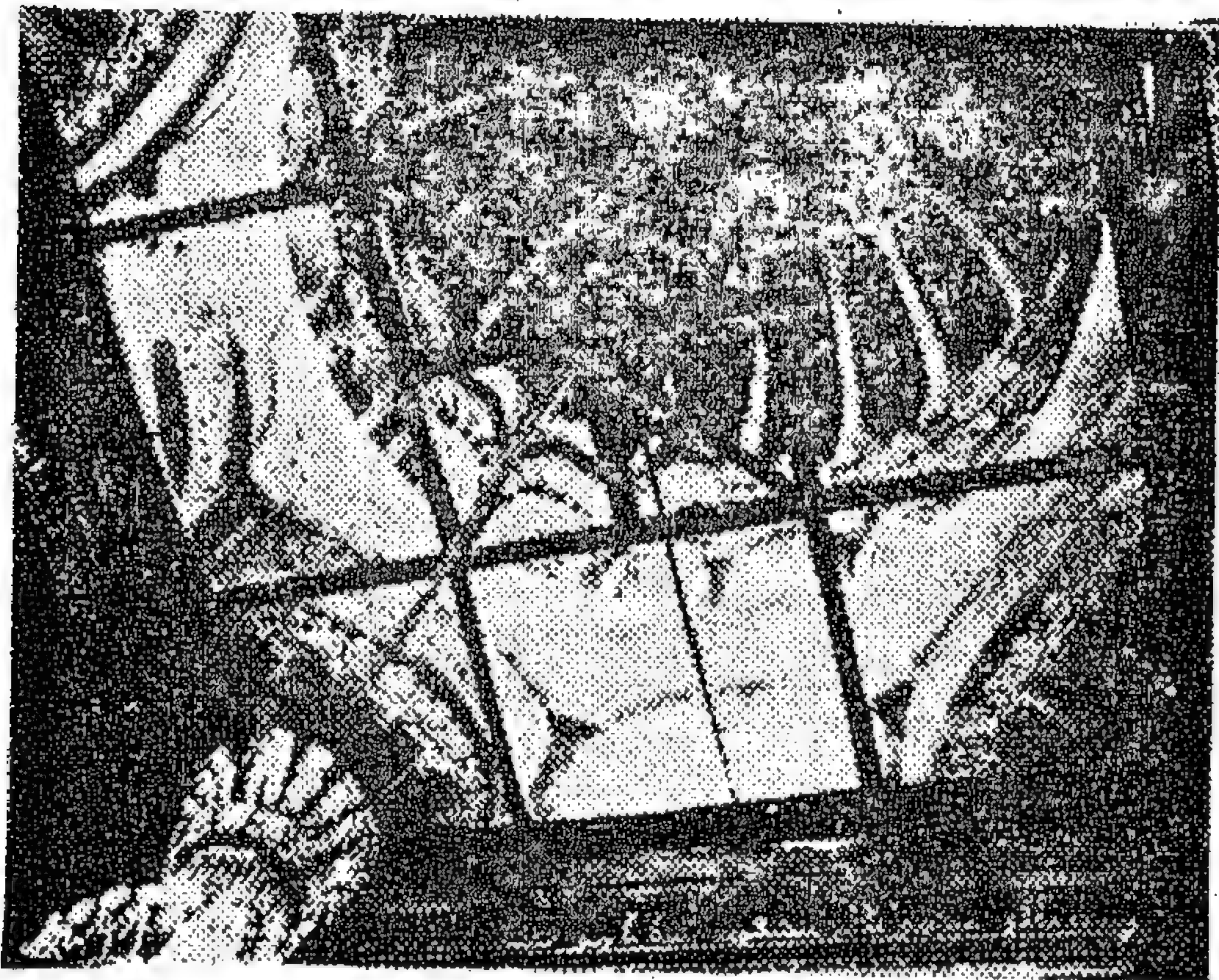
وقد سجل تاريخ بناء قبة المحراب تحت القبة ،



مقرنص من قبة البهو في مسجد الزيتونة بتونس

القيروان كثيرا من عناصره ، مما يثبت وجود مجال للتأثيرات المتبادلة .

ويزدان صفا عقود بلاط المحراب من الداخل بثلاثة عناصر زخرفية مرتبة في محور رأسي واحد ... فهناك حشوة عليها زخرفة محفورة في الجص تشغل موضع التقاء منبتي كل عقدين ، ابتداء من قرمة الحدارة حتى نقطة انطلاق الشريط البارز المحيط بالعقد . وتعلو هذه الحشوة حشوة أخرى مربعة قائمة على رأسها ، تحتشد فيها زخرفة محفورة في الجص . وتشغل هذه الحشوة بنيقتي كل عقد . أما الطابق الأعلى فتشغله حشوة ثالثة مستطيلة ،



قبة بيت الصلاة بمسجد الزيتونة بتونس

كما سجل اسم صانعها فتح الله . وقد أخطأ « جورج مارسيه » في اسمه . ويبدو أنه نقل هذا النص التاريخي ناقصا ، فلم ينقل من اسم الصانع سوى مقطعه الأول « فتح » ، وظن أنه من الفتيان الصقالبة ، وأنه ساهم في بناء القبة ، وقد اعترض الدكتور أحمد فكرى على هذا الاعتقاد ، وأثبت بصورة لا تقبل الشك وجود طائفة من كبار المهندسين والعرفاء المسلمين في بلاد تونس ، منذ طليعة القرن التاسع ، تخصصوا في فن بناء القباب ، وبرعوا فيه وحذقوه .

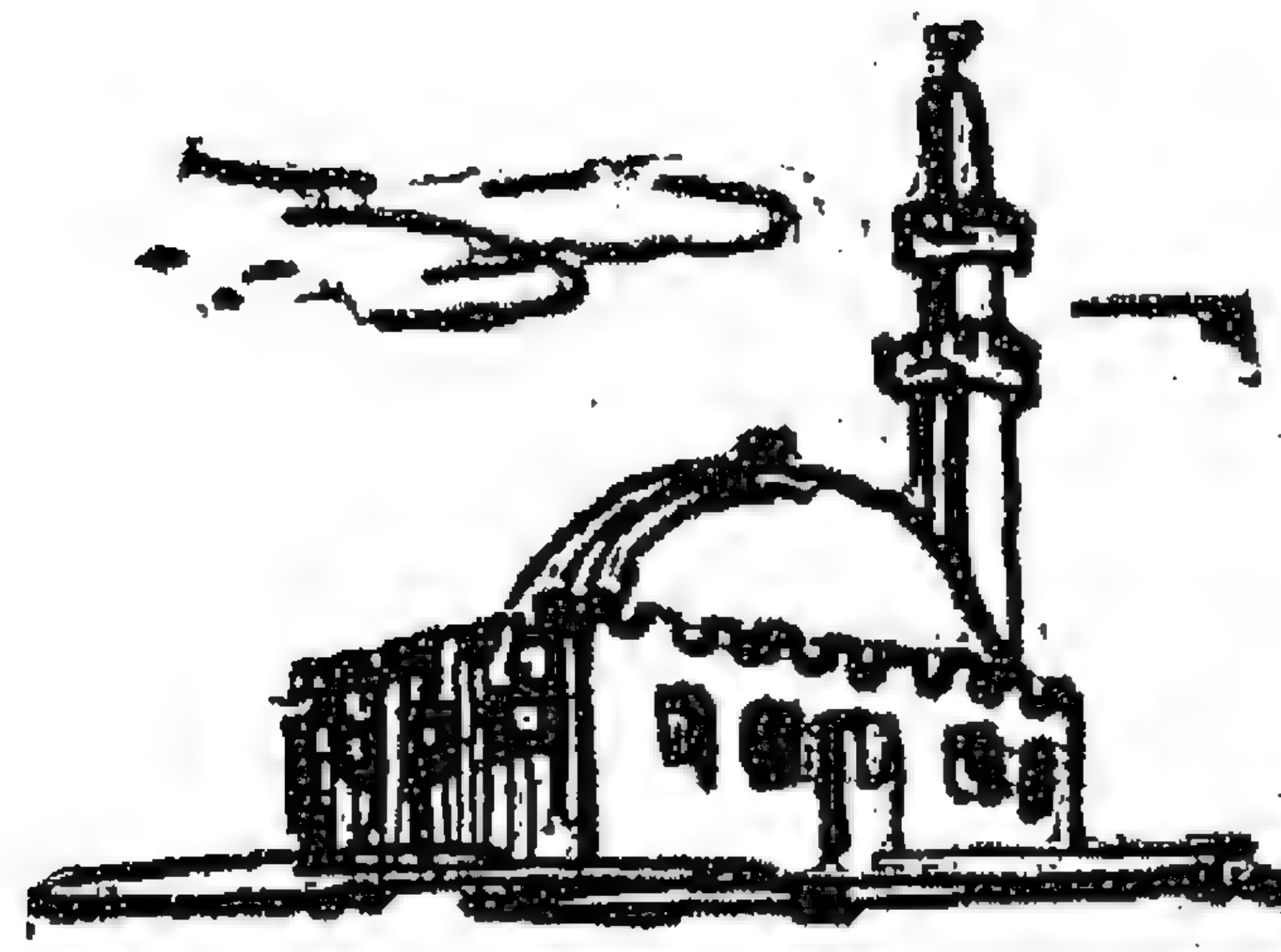
ويتميز جامع الزيتونة بظهور عنصر زخرفي جليل ، يقوم على تناوب اللونين الأبيض والرمادي في كتل الحجارة التي تؤلف سنج العقود أو مداмик البناء داخل قبة المحراب . وقد ظهرت هذه الزخرفة أول ما ظهرت في قبة المحراب من الداخل ، ثم اتبعت في زخرفة عقود قبة البهو ، وفاضت في داخلها وخارجها ، وغمرت كل بنائها فغطت العقود ، وامتدت الى الجدران نفسها ، والطرر التي تحيط بالعقود . وازدانت دعائم الطابق الثاني من القبة بمربعات ملونة قائمة على رؤوسها . وقد تحول اللون الرمادي خارج القبة الى اللون الأحمر ... وهكذا اكتسبت هاتان القبتان مظهرًا زخرفيًا رائعًا انفردتا به بين قباب الاسلام جميعها .

ومن المحتمل أن يكون مهندس جامع الزيتونة قد استلهم من عقود جامع قرطبة التي تتناوب فيها قطع الحجارة البيضاء مع قطع الآجر ، فيحدث من ذلك نوع من الزخرفة المعمارية البسيطة . وظهر هذا النوع من الزخرفة في بوابات الجامع على هيئة تربيعات شطرنجية . ولا نستبعد انتقال هذه الفكرة الى جامع الزيتونة عام ٢٥٠ للهجرة ، وتطبيقها على الحجارة الملونة ... فقد أخذ جامع قرطبة من

أكبر من الحشوتين السابقتين ، محفورة في الجدار الذي يعلو العقد ، وتقع على محور الحشوتين السابقتين نفسه . وللأسف ضاع كثير من هذه الحشوات ، وحلت محلها حشوات أخرى في القرن السابع عشر للميلاد . وبعض هذه الحشوات يرجع إلى القرن التاسع للميلاد . ومعظم ما بقي من هذه الحشوات : العليا منها ، وتتكون من زخرفة تذكرنا بجوفة المحراب ، فهي تتألف من إطار مستطيل يضم جوفة على هيئة قوقعة ، يحيط بها عقد مزدوج متجاوز ، يقوم كل من منبتيه على عمودين صغيرين قوامين . والجزء الأدنى من الجوفة يزخر بزخارف كثيفة تتداخل فيها السيقان والتوريقات ، وتمتاز زخارف هذه الحشوات بأنها حفرت حفرا غائرا يظهر مسطحات الزخارف واضحة نتيجة للتباين الكبير بين الظلمة والضوء . وقد شاهدنا بعض أمثلة لهذا النوع في قباب جامع القيروان ، ولكنها في الزيتونة أكثر رقة ومرونة .

وبجامع الزيتونة منبر يرجع إلى عام ٢٥٠ للهجرة يشبه إلى حد كبير منبر جامع القيروان ، ولكنه أصغر منه حجما . ولم يتبق من حشواته الكثيرة التي كانت تؤلف كتفيه سوى ٢٢ حشوة مستطيلة في كل من الكتفين . ولا توجد من بين هذه الحشوات واحدة تماثل الأخرى في الزخرفة ، وتزدان هذه الحشوات بزخارف هندسية محفورة حفرا غائرا مفرغا من مربعات ودوائر ومعينات ، وزخارف بنائية من زهيرات متكررة ذات أربع ورقات تخضع للأسلوب الهندسي ، فتتحول إلى زخرفة هندسية لا يذكرنا بأصلها النباتي إلا عروق وقنوات تخترق خطوطها المنتظمة . ويحيط بهذه الحشوات طرز من زخارف نباتية قوامها سيقان تملؤها توريقات .

الدكتور السيد محمود هبة المزيني صالحي



المسجد الجامع بالقيروان

تاريخ بناء الجامع

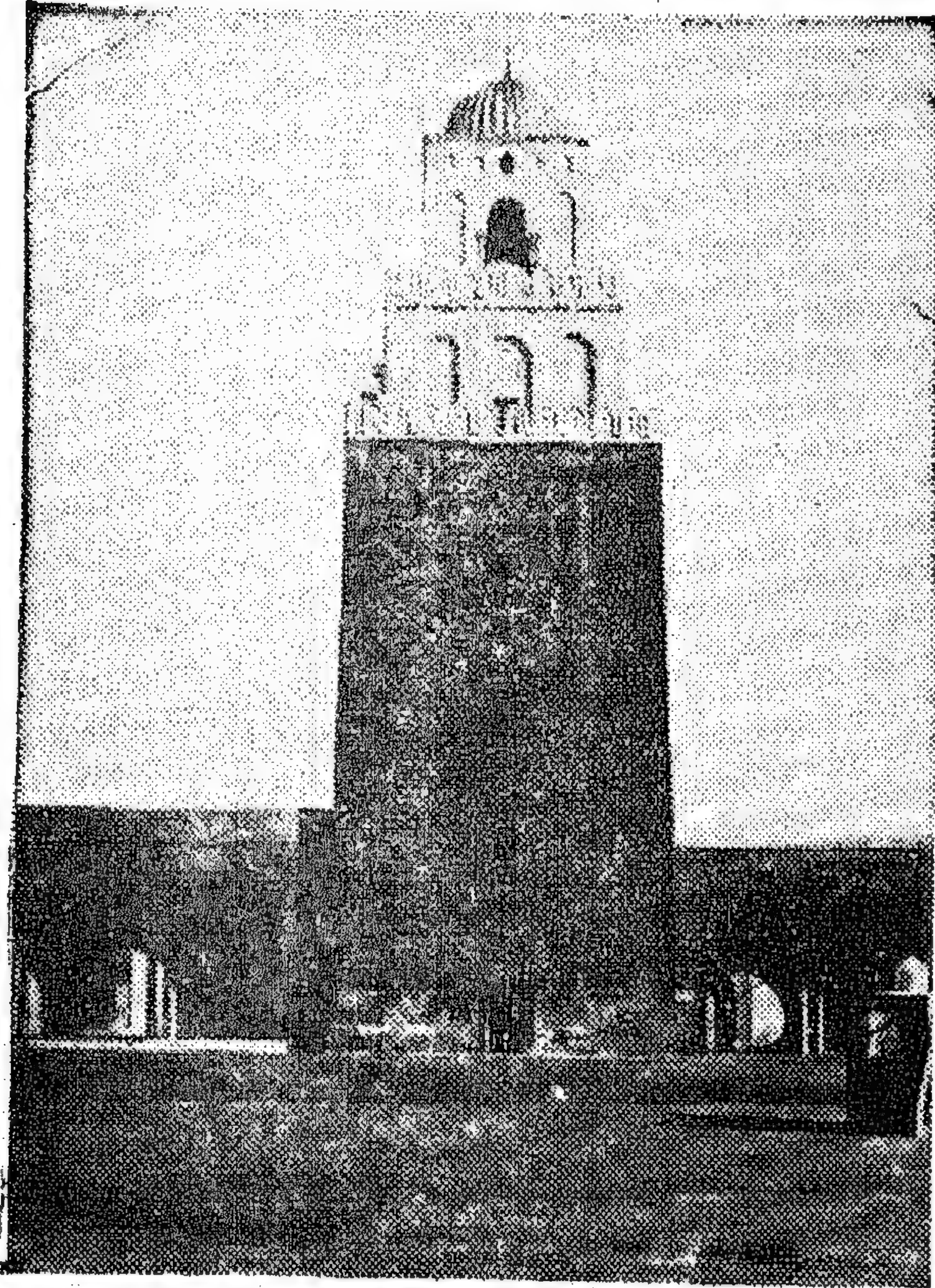
شرع عقبة بن نافع الفهري في بناء مدينة القيروان عام ٥٠ هـ للهجرة ، وابتدأ بتخطيط دار الامارة ، ثم عمد الى موضع المسجد الأعظم فاخطه ، ولكنه لم يحدث فيه بناء .

ويذكر ابن عذاري أنه كان يصلى في موضع هذا الجامع قبل أن يقوم ببناؤه « فاختلف الناس عليه في القبلة ، وقالوا ان جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد ، فاجهد نفسك في تقويمها . فأقاموا أياما ينظرون الى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس . فلما رأى أمرهم قد اختلف ، بات مغموما ، فدعا الله — عز وجل — أن يفرج عنه . فأتاه آت في منامه ، فقال له : اذا أصبحت فخذ هذا اللواء في يدك ، واجعله على عنقك ، فانك تسمع بين يديك تكبيرا لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك ... فانظر الموضع الذى ينقطع عنك فيه التكبير ، فهو قبلتك ومحرابك ، وقد رضى الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة ، وسوف يعز الله بها دينه ، ويدل بها من كفر به ... فاستيقظ من منامه ، وهو جزع ، فتوضأ للصلاة ، وأخذ يصلى وهو فى المسجد ومعه أشراف الناس . فلما انفجر الصبح ، وصلى ركعتى الصبح بالمسلمين ، اذا بالتكبير بين يديه ، فقال لمن حوله : أسمعون ما أسمع ؟ فقالوا : لا . فعلم أن الأمر من عند الله ، فأخذ اللواء فوضعه على عنقه ، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل الى موضع المحراب

فانقطع التكبير . فركز لواءه وقال : هذا محرابكم . فاقندى به سائر مساجد المدينة .

ولم تلبث المدينة أن عمرت بعد تخطيط الجامع بالدور ومختلف الأبنية والمساجد ، وشهد الناس اليها الرجال ، وعظم قدرها ، وتحقق الرجاء من بنائها ، وأصبحت بحق قاعدة للمسلمين في بلاد المغرب .

ومنذ ذلك العهد أصبحت قبلة جامع القيروان موضع اجلال الناس وتعظيمهم ، فلم يتعرض لها أحد الأمراء بسوء في الزيادات المتتالية التى أجريت



مئذنة المسجد الجامع بالقيروان

بالجامع عامة وبيت الصلاة خاصة . ولم يتغير موضع القبلة ، ولم يهدم جدار المحراب ، ورغم انحراف هذه القبلة عن الاتجاه الصحيح . وما زالت القبلة على ما هي عليه من انحراف حتى يومنا هذا ، لما كان من تقديس الناس لبقعتها ولشرف اتمائها الى عقبه بن نافع التابعي الذي أورث اسمه الجامع ، فصار يعرف بجامع سيدي عقبه .

ومثل هذا حدث في قرطبة حيث أسس حنش بن عبد الله الصنعاني وأبو عبد الرحمن الحجلي التابعان قبلة جامعها بأيديهما ... فقد احتفظ المسجد الجامع مع زياداته المتكررة من جهة القبلة — باتجاهها الذي حدده حنش الصنعاني . ولم يجسر أحد الأمراء أو الخلفاء من بني أمية على تغيير هذا الاتجاه . وقد روى أن الحكم المستنصر رغب في تعديل اتجاه قبلة الجامع عند زيادته له ، فتصدى له أحد الفقهاء ، وذكره بأن أول من نصبها حنش الصنعاني التابعي ، وصلى عليها خيار أهل هذه الأمة . فأخذ الخليفة برأيه ، وعدل عن تعديل اتجاه القبلة .

وكان جامع عقبه بن نافع فيما يظهر صغير المساحة ، بسيط البناء . ويغلب على الظن أن أسقفه كانت تقوم مباشرة على الأعمدة دون أن تحملها عقود ... لذلك لم يكد يبضى على بنائه عشرون عاما حتى هدمه حسان بن النعمان الصنعاني ، ما عدا المحراب ، ووضع في محرابه ساريتين موشاتين بصفرة كائتا في كنيسة . ثم شيد حسان على موضعه مسجدا جديدا فيما بين عامي ٧٨ — ٨٣ للهجرة (٩٩٣ — ٩٩٧ م) احتفظ فيه بمحراب عقبه . وتم بناء مسجد حسان من الجهة الشمالية المقابلة للقبلة تجنباً لتغيير جدار المحراب .

ويعتقد الأستاذ الدكتور أحمد فكري في كتابه عن جامع القيروان أن حسان قد زاد في عدد أروقة

الجامع ، وأن بيت الصلاة الجديد كان يشتمل على أربعة أساكيب (أي أروقة عرضية) . ولم يكن للمسجد في ذلك الوقت مجنبات تطل على الصحن وتدور حوله

وفي عام ١٠٥ للهجرة (٧٢٤ م) ضاق الجامع بالمصلين ، فأمر الخليفة هشام بن عبد الملك عامله على القيروان وقتئذ ، بشر بن صفوان (١٠٣ — ١٠٩ هـ) ، بزيادة المسجد . فاشترى بشر أرضا محيطة بالمسجد من شماله ، وضمها اليه ، وبنى في الصحن ماجلا ، وأضاف الى بيت الصلاة ثلاثة أساكيب أخرى ، مد بها طول بلاطاته . ويمكننا أن نشاهد حدود هذه الزيادة اليوم في صف العقود التي تمتد يعرض بيت الصلاة في خط مستقيم ، عند نهاية الأسكوب السابع ابتداء من القبلة ، مما يدل على أن بيت الصلاة كان ينتهي عند هذا الحد . ثم بنى بشر مئذنة للمسجد في منتصف جداره الشمالي داخل الصحن ، على بشر كانت تعرف ببئر الجنان ، ونصب أساسها على الماء .

ويذكر ابن عذاري أن يزيد بن حاتم جدد بناء المسجد الجامع بالقيروان عام ١٥٧ للهجرة (٧٧٤ م) . ولكننا نعتقد أن أعمال يزيد لا تعدو اصلاحه ، وتجديد بعض زخارفه .

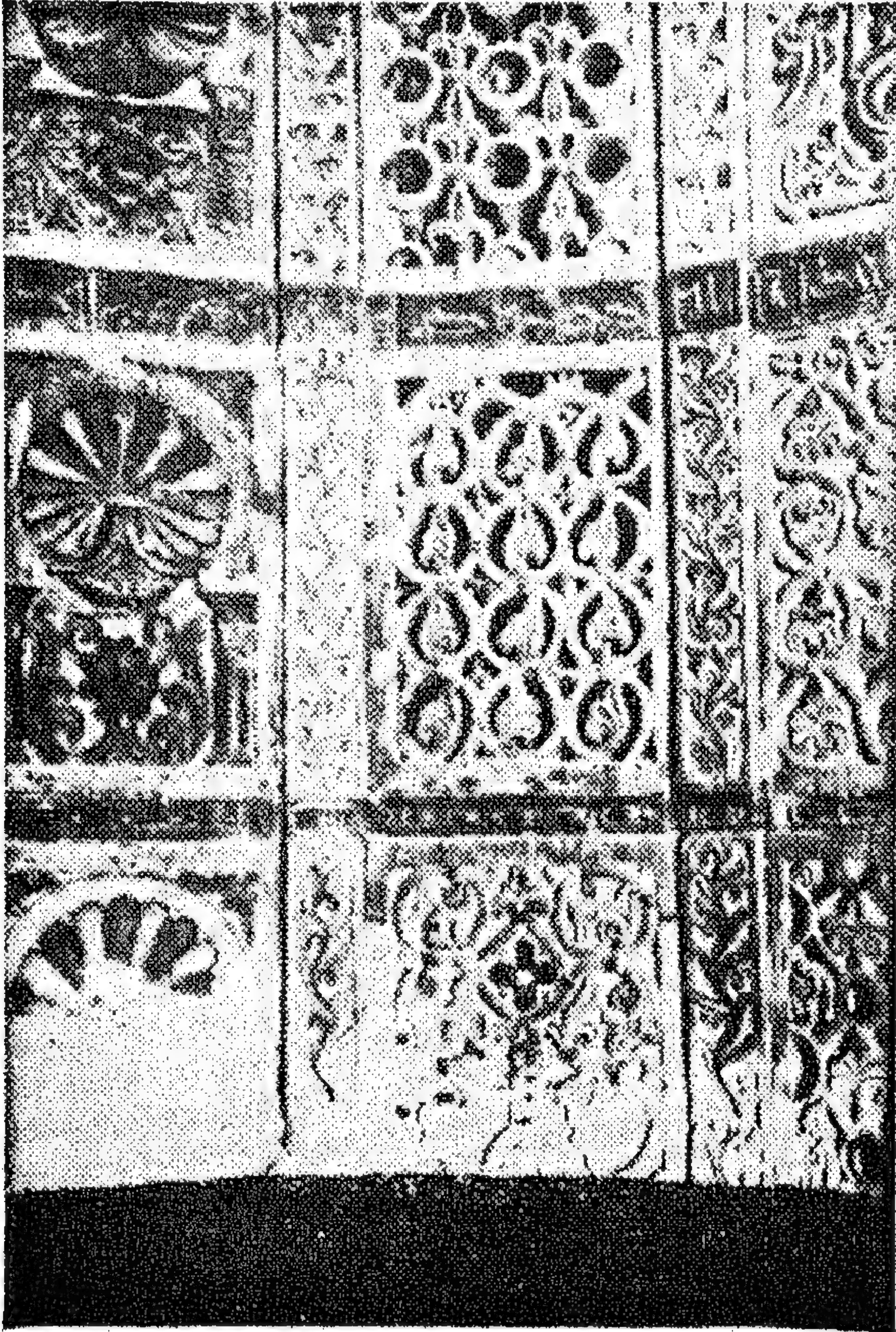
وظل المسجد على حالته بعد زيادة بشر ابن صفوان ... الى أن تولى زيادة الله بن ابراهيم ابن الأغلب الامارة بافريقية عام ٢٢١ للهجرة (٨٣٦ م) ، فبدأ بهدم أجزاء كثيرة من المسجد دون أن يغير كثيرا من نظامه ، أو يبدل من حدوده .

ويذكر البكري أن زيادة الله أراد هدم المحراب ، فقليل له : ان من تقدمك توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبه بن نافع ومن كان معه . فألح في هدمه لئلا يكون في الجامع أثر لغيره ، حتى قال له بعض

المقصود بها تامة أعمال البناء التي شرع فيها
زيادة الله .

ولما تولى ابراهيم بن أحمد بن الأغلب الامارة
زاد في طول الجامع عام ٣٦١ هـ (٨٧٥ م) ، وبنى
القبّة المعروفة بباب البهو على مدخل البلاط
الأوسط . كذلك أقام ابراهيم بن أحمد المجينات
التي تدور حول الصحن . وظل المسجد على هذه
الصورة دون أى تغيير حتى أضاف اليه بنوزيرى
واجهات . وقد سجل تاريخ هذه الاضافات على
أحد أعمدة المجنبة الغربية ، اذ نقش عليه كتابه
بالخط الكوفي نصها : « هذا ما أمر بعمله
خلف الله بن غازى الأشيرى فى رمضان من عام
اثنين وأربعمائة » .

كذلك أقام المعز بن باديس بالمسجد المقصورة



حشوات رخامية بمحراب جامع القيروان

البناء : أنا أدخله بين حائطين ، ولا يظهر فى الجامع
أثر لغيرك . فاستصوب ذلك وفعله ، ولم يسهه
بسوء ، وبنى المحراب الجديد بالرخام الأبيض .
ويغلب على الظن أن بيت الصلاة فى عهد
بشر بن صفوان كان يتألف من ١٨ رواقا ، فهدم
زيادة الله الرواقين التاسع والعاشر ، وأقام بدلا
منهما رواقا واحدا فسيحا ، فأصبح للمسجد ١٧
رواقا : الرواق الأوسط منها أكثر من بقية الأروقة
اتساعا وارتفاعا . وبمكنا أن نفسر عبارة المؤرخين
بأن زيادة الله هدم الجامع كله ، بأنه هدم أسقف
الجامع وأقامها من جديد ، بعد أن رفعها عما
كانت عليه ، وبنى قبّة على أسطوان المحراب
زخارفها على نمط زخارف اللوحات الرخامية
التي كسا بها المحراب الجديد . أما أسوار الجامع
ومحراجه وأعمدته فظلت كما كانت عليه أيام بشر
ابن صفوان .

ويبدو أن زيادة الله أنفق على هذه الأعمال
المعمارية بالجامع أموالا كثيرة ، وأنه زود الجامع
بصورته الأخيرة التي نراها فى يومنا هذا ، وهى
صورة لم تتغير على مر الزمن ... وهو الذى
وضع للبلاطات نظامها الفريد الذى يشف عن
أصالة وابتكار . وذكر ابن عذارى أنه قال :
« ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفى صحيفتى
أربع حسنات : بنيانى المسجد الجامع بالقيروان ،
وبنيانى قنطرة أبى الربيع ، وبنيانى حصن مدينة
سوسة ، وتوليتى أحمد بن أبى محرز قاضى
افريقية » .

الواقع أن ما قام به زيادة الله من عمارة يعد
بناء جديدا للجامع ، وهو ما كان يفخر به
زيادة الله . وفى عام ٣٤٨ هـ (٨٦٢ م) تمت زيادة
فى جامع القيروان . ولا ندرى ماذا قصد
المؤرخون من ذكر هذه الزيادة ، ولكننا نعتقد أن

الخشبية التي لا تزال منصوبة حتى اليوم بجوار المحراب . ويرى الأستاذ « جورج مارسيه » أن المسجد زود بأسقف خشبية وأبواب في منتصف القرن الخامس للهجرة . وفي عام ٦٩٣ هـ أمر الخليفة أبو حفص بفتح بابين في الجدارين الشرقي والغربي من بيت الصلاة . ثم تلا ذلك بعض أعمال اضافية بسيطة لم تغير نظام المسجد وبنيته .

تخطيط الجامع

جامع القيروان من أكبر المساجد الجامعة الباقية في الاسلام ، وأعظمها مظهرا ، اذ يبلغ طوله ١٢٦ مترا وعرضه ٧٧ مترا ، وطول بيت الصلاة فيه ٧٠ مترا وعرضه ٣٧ مترا . وصحنه فسيح واسع طوله ٦٧ مترا وعرضه ٥٦ مترا . ولهذا الصحن مجنبتات عرض كل منها نحو ستة أمتار وربع متر ، وتنقسم المجنبة الى رواقين . ويشتمل بيت الصلاة على ١٧ بلاطا عموديا على جدار القبلة ، تستد على عشرة أساكيب أو بلاطات عرضية . وبلاط المحراب وأسكوبه أوسع من بقية البلاطات والأساكيب ، ولا تعترضهما أية عقود ، فهما يؤلفان مجازين متعامدين على هيئة حرف T .

ونلاحظ أن تخطيط جامع القيروان يتميز بظاهرة جديدة . فعلى بلاط المحراب ، أو البلاط الأوسط ، قبتان : الأولى عند تقاطعه مع أسكوب المحراب أمام القبلة ، والثانية على مدخل البلاط الأوسط مما يلي الصحن . وتعرف القبلة الأولى بقبة المحراب ، والثانية بقبة باب البهو . وقد أثر هذا النظام الجديد الذي ابتدعه بناء زيادة الله على أنظمة المساجد التونسية الأخرى ، فنراه في جامع الزيتونة بتونس ، ولراه في مساجد أخرى . كما قلده مهندسو الحكم المستنصر عند زيادتهم في المسجد الجامع بقرطبة .

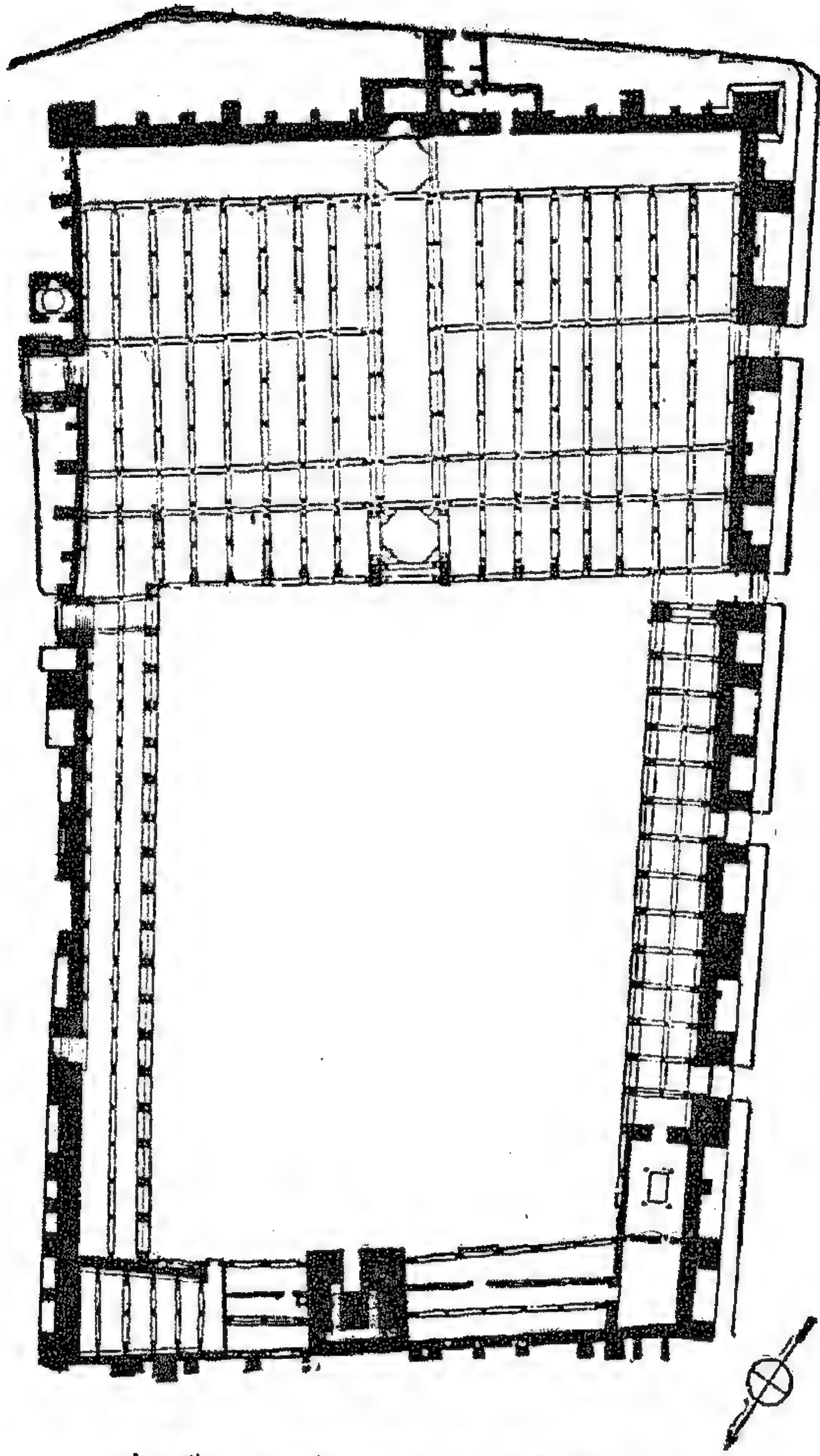
وتمتد في بيت الصلاة صفوف منتظمة من

العقود ، تحمها أعمدة قديمة اتخذت من الكنائس المهدامة ، وأعيد استخدامها بالجامع . ونظرا لقصر هذه الأعمدة ، وتفاوتها في الارتفاع ، توصل المهندسون المسلمون بوسيلتين لزيادة ارتفاع سقف المسجد وتسوية ارتفاع الأعمدة ، فاستعانوا بمكعبات حجرية مستطيلة أو مربعة ، محاطة من أعلى بطنوف ومن أدنى بقصرم . ثم رفعوا فوق هذه الحدائر عقودا متجاوزة تشبه حدوة الفرس .

وعقود مجنبتات الصحن تقوم على أعمدة مزدوجة يلتصق كل زوج منها بركيزة ضخمة ، وهذه الركائز تكسب البناء قوة وثباتا . ومحراب الجامع جوفة في جدار القبلة يرجع تاريخها الى أيام عقبة بن نافع . وقد ذكرنا أن هذه الجوفة تختفي وراء لوحات مخرمة من الرخام الأبيض .

ويرى الأستاذ « مارسيه » أن وجود هذه الجوفة أمر طبيعي ، لأن هذه اللوحات الرخامية تتطلب أن يكون خلفها فراغ معتم حتى تتضح نقوشها ، وأن هذا الاحتيال البسيط أدى الى اختلاق الناس لأسطورة المحراب . ويؤيده الأستاذ « كريسويل » في هذا الزعم ، فهو يستنكر أن تكون تلك الجوفة التي نشاهدها من بين خروم المحراب الجديد ، هي محراب عقبة القديم . ويقول ان هذه الخروم التي تبطن لوحات المحراب وتملؤها ، قصد بها أن تكون ستارة قائمة لتوضح الزخرفة الرخامية المخرمة . ولا يعتقد « كريسويل » أن جامع عقبة كان به محراب مجوف ... فالمحارب المجوفة ، في رأيه ، لم تظهر في الاسلام حتى زمن الوليد .

وقد اعترض الدكتور أحمد فكرى على هذه الآراء ، وفندها كلها ، وأدلى برأيه في ذلك واضحا معززا بالأدلة والحجج والبراهين ، وأثبت أن هذه



الرسم التخطيطي للمسجد الجامع بالقيروان

المئذنة فتحات تبدو ضيقة من الخارج ، ولكنها تتسع كلما نفذت في الجدران ، وظيفتها اضاءة الدرج ، وتعلو هذه الفتحات من خارج المئذنة عقود مخففة للضغط تشبه حدود الفرس . وينسب الدكتور أحمد فكرى هذه المئذنة الى بشر بن صفوان الذى بناها عام ١٠٥ هـ بأمر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك . وقد اتخذت هذه المئذنة نموذجا للمآذن الاسلامية ... لا في المغرب والأندلس فحسب ، بل في بعض المآذن المصرية ، مثل مئذنة مسجد الجيوشي وضريحه ، ومئذنة مدرسة قلاوون وقبتها . وأصبحت مئذنة جامع القيروان تؤلف طابعا مغربيا بحتا .

الجوفة التى تظهر من خلال لوحات الرخام هى محراب عقبة القديم .

ويدعم جدران المسجد الشرقية والغربية من الخارج ركائز ضخمة تلتصق بالجدران ، وظيفتها ليست — كما قد يتبادر الى الذهن — دعم البناء ، وتحمل ضغط عقود بيت الصلاة ... لأن هذه الركائز أقيمت فى مواضع بعيدة عن نقط امتداد العقود ومراكز اندفاعها ، وانما الغرض منها أن تتمشى فى مظهرها مع الدعائم البارزة التى تكتنف أبواب المسجد فتضفى عليه جمالا ، لأن هذه الدعائم لو تركت بمفردها لظهرت كأنها زيادات منفرة تشوه المظهر الخارجى للمسجد .

أما المئذنة فتتوسط الجدار الشمالى للجامع ، وتتكون من ثلاثة طوابق تعلوها قبة مفصصة . والطابق الأدنى مربع القاعدة ، تنحدر جدرانه الى الداخل انحدارا خفيفا فيقل عرضها كلما ارتفعت مما يكسب المئذنة قوة وارتكازا وثباتا . وبنيت قاعدة هذا الطابق ، حتى ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف متر ، بقطع حجرية ضخمة مصقولة ، أما بقية الطابق فمن كتل حجرية مستطيلة تشبه قوالب الآجر . ويعلو هذا الطابق طابق آخر مربع ولكنه أصغر كثيرا من الطابق الأدنى ، ويتراجع الطابق الثالث عن الطابق الثانى ، وتزدان جدران الطابق الثانى بطاقات ثلاث مسدودة ، ومعقودة فى كل وجه من أوجهه ، فى حين يزداد كل وجه من أوجهه الطابق الأعلى بنافذة تكتنفها طاقتان مسدودتان . ويعلو الجدار الأعلى من كل طابق شرفات على هيئة عقود متصلة مفرغة فى وسطها .

ويدور بداخل المئذنة درج ضيق ، سقفه على هيئة قبوات نصف اسطوانية ، وتتخلل جدران

قباب الجامع

عنى زيادة الله بقبلة جامع القيروان عناية فائقة ، فجعلها محورا للجامع ، وركز فيها كل روائع زيادته ... اذ كانت العنصر الأساسى للجامع ، وأكثر أجزائه أهمية منذ أيام عقبة بن نافع . وقد رأينا كيف هدم الرواقين التاسع والعاشر من أروقة المسجد القديم ، وأقام بدلا منهما رواقا فسيحا يزيد اتساعه عن بقية الرواقات الأخرى ، ويتعامد مع أسكوب المحراب المحاذى لجدار القبلة ... فأقام زيادة الله على أسطوان المحراب ، عند تقاطع هذين الرواقين الكبيرين أمامه ، قبة أودعها كل روائع الفن المغربى من زخارف وتقوش وهذه القبة هى أقدم قباب المسجد فى الوقت الحاضر ... بل أقدم قبة فى بلاد المغرب كلها ، وعلى مثالها أقيمت قباب المحراب بمساجد المغرب والأندلس . وفى عهد ابراهيم بن أحمد أقيمت عام ٢٦١ هـ ، على مدخل البلاط الأوسط من جهة الصحن ، قبة أخرى تم بها تنويع هذا الرواق من جهتيه القبلىة والجوفية ، واستكمل بها بيت الصلاة تناسقه واتزانه . وأصبح بناء قبتين على البلاط الأوسط ببيت الصلاة ، منذ ذلك الحين ، قاعدة عامة اتبعتها المساجد الأندلسية والمغربية .

ولا شك أن بناء زيادة الحكم المستنصر فى جامع قرطبة أخذوا بهذا النظام المعمارى الفريد ، فطبقوه فى هذه الزيادة ، وأقاموا بلاطا للمحراب يتوسط بلاطات الزيادة المستنصرية ، وأسكوبا بجدار المحراب أكثر اتساعا من بقية الأساكيب . ثم أقاموا قبتين : الأولى على بلاط المحراب عند مدخل الزيادة ، والثانية على هذا البلاط ذاته عند انتهاء أمام المحراب . ثم أحاطوا هذه القبة الأخيرة

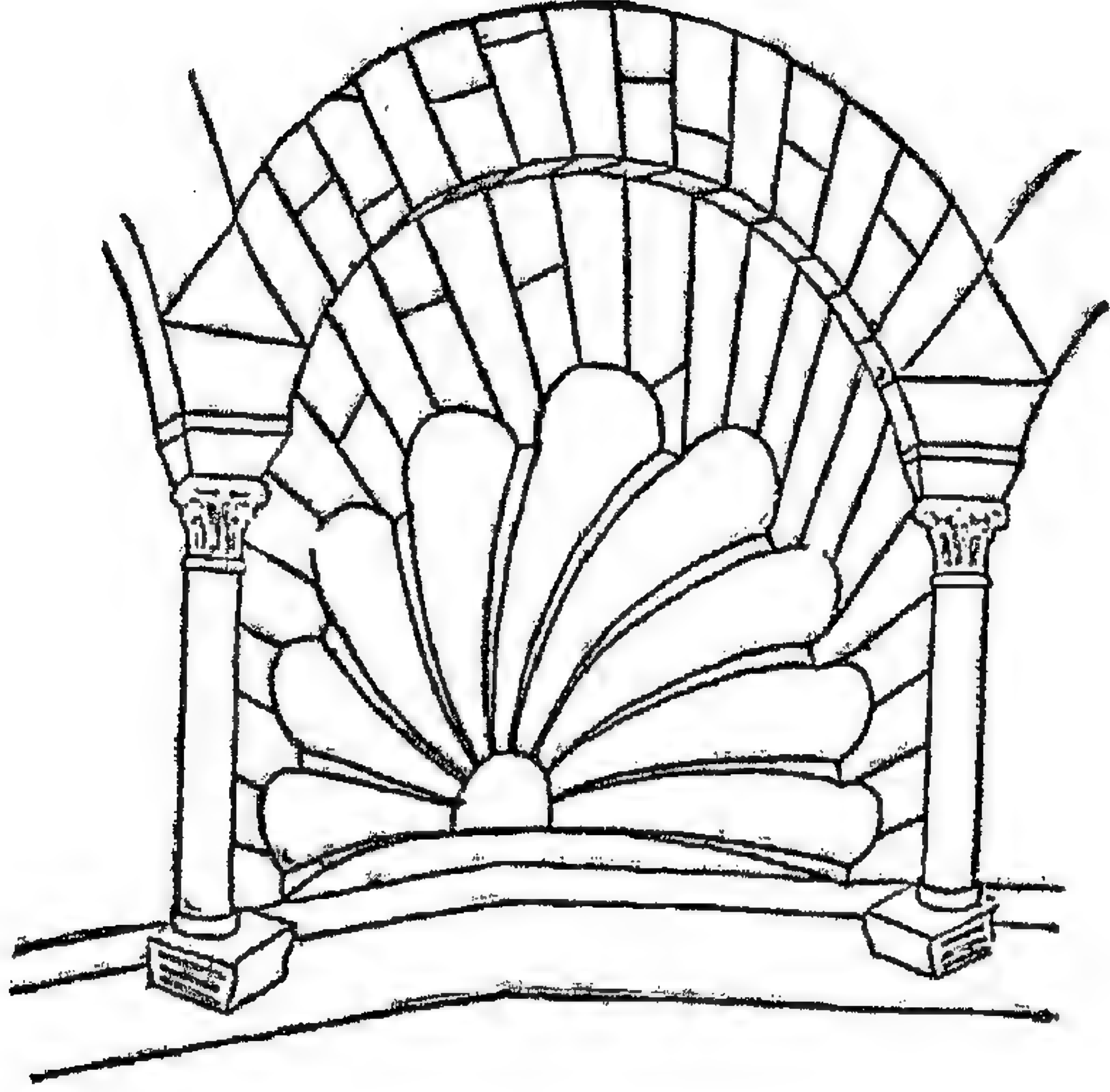
بقبتين جانبيتين أكسبتا زيادة الحكم المستنصر تناسقها الشامل ، وعمارتها الفريدة .

ثم أقام الخليفة أبو حفص عام ٢٩٣ م قبتين تعلوان مدخلى بيت الصلاة شرقا وغربا ، وهناك قبتان أخريان : أحدهما تعلو المئذنة ، والثانية تتوج المدخل الأوسط بالمحنية الغربية . ويذكر الدكتور أحمد فكرى أنه بالرغم من اختلاف مظهر هذه القباب ، فإنها تتشابه جميعا فى البناء ، وتتشعب من فكرة واحدة ... فكرة خصيبة متزنة وأصيلة .

وتتكون قبة المحراب بجامع القيروان من ثلاثة أجزاء : القاعدة المربعة ، والعنق الأوسط الدائرى ، والخوذة الكروية .

وتقوم القاعدة المربعة على أربعة عقود : الشرقى والغربى منها فى بلاط المحراب (عموديان على هذا المحراب) ، والشمالى فى أسكوب المحراب (مواز له) ، والرابع ملتصق بجدار القبلة فوق الطرة المربعة المحيطة بجوفه المحراب . ويعلو كل ركن من أركان هذه القاعدة المربعة مقرنص كبير يمثل جوفه مقوسة معقودة تشبه قوقعة رأسها مفصص ، اذ ينقسم تكورها الى فصوص تتفرع من المركز الواقع فى ركن القاعدة ويشغل منتصف كل جانب من جوانب القاعدة عقد يتصل كتفاه بكتفى عقدين مقرنصين ، فيتألف من ذلك مجموعة من ثمانية عقود تحول مربع القاعدة الى مثنى ، وتترك هذه العقود الثمانية بين منحنياتها فراغا تشغله مقرنصات أخرى صغيرة معقودة على درجات ثلاث .

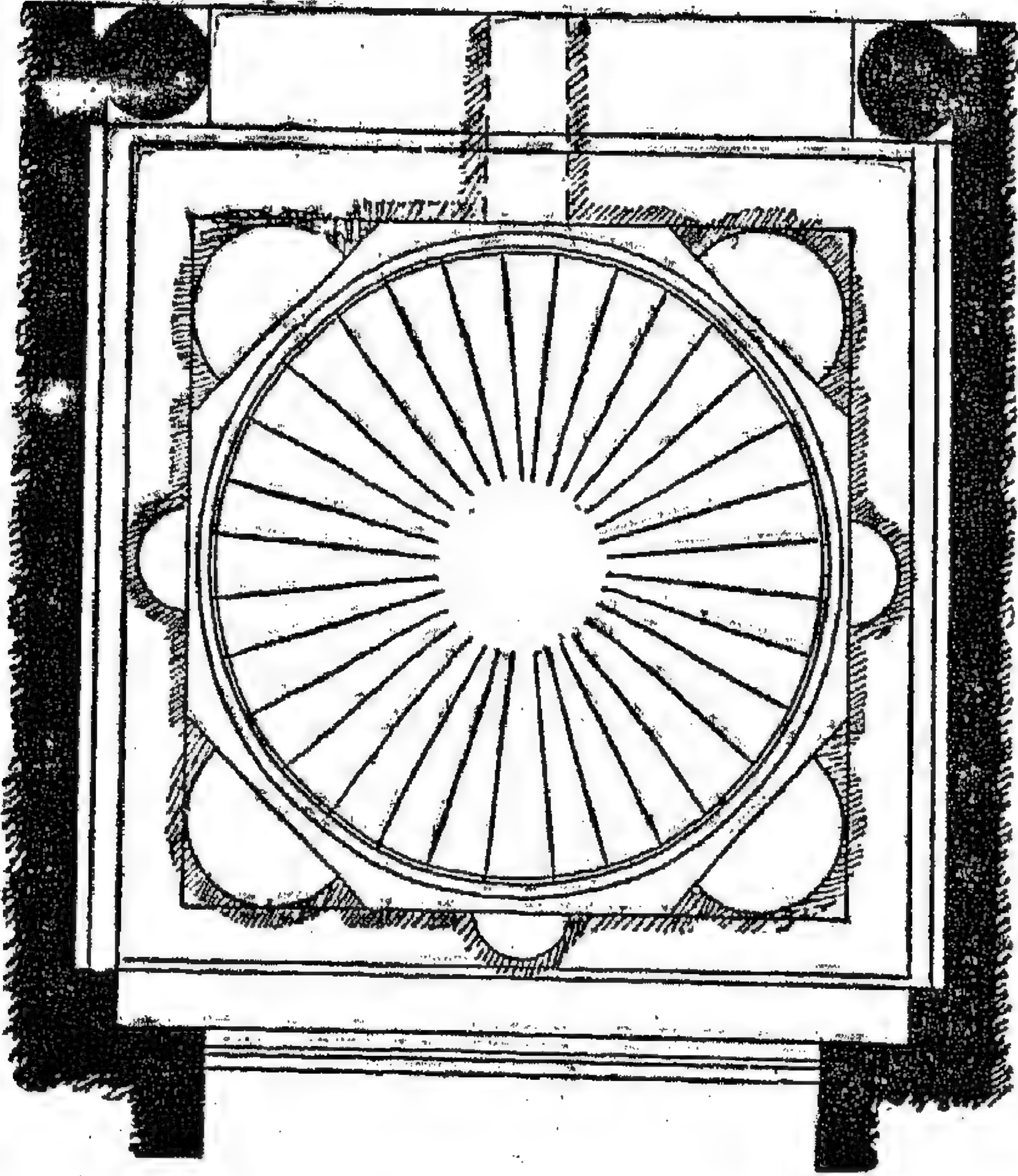
أما العنق فيشبه أسطوانة دائرية تزdan بأربع وعشرين طاقة معقودة ، منها ثمانى نوافذ يدخل



رسم لقرنصة معقودة من مقرنصات قبة المحراب
بالمسجد الجامع بالقيروان

بجامع القيروان ، وعدد العقود والأعمدة والضلوع
في القبتين متساو .

لذلك انتشر نظام قباب القيروان وتونس في
الأندلس في صورة أكثر تطورا من الواجهة المعمارية .
فان مهندس الحكم المستنصر لم يقلد نظام توزيع



تصميم قبة المحراب بالمسجد الجامع بالقيروان

منها الضوء . وتستند هذه الطاقات جميعا على
عمد صغيرة . أما الخوذة الكروية للقبة فترتكز
على هذه الأسطوانة الدائرية . وتنقسم الخوذة الى
أربعة وعشرين ضلعا بارزة متفرعة من رأس الخوذة
وتحمل هذه الضلوع فصوصا عددها مثل عدد
الضلوع .

وتشبه قبة باب البهو القبة السابقة ، برغم
ما حدث فيها من تغيرات واصلاحات . فعناصرها
كعناصر قبة المحراب : قاعدة مربعة في أركانها
مقرنصات معقودة تحول طابق المربع الى مشن ،
ثم طابق دائري مؤلف من أربع وعشرين طاقة
معقودة ، ثم طابق ثالث هو الخوذة ذات الضلوع
البارزة . وقد تأثرت بقية قباب المسجد بقبتي
المحراب وباب البهو ... فان قبة لاريحانا تتكون
من ضلوع ومقرنصات وأعمدة ، وتلك عناصر
القبتين السابقتين .

ويرى الأستاذ الدكتور أحمد فكرى أن قبة
المحراب التي أقامها زيادة الله على مثال قبة كانت
قائمة بالمسجد قبل زيادة الله بن الأغلب . ثم جاءت
قبة زيادة الله بالمحراب تطورا لها . ويرجح أن تكون
هذه القبة القديمة هي قبة المدخل الغربى الى
الصحن . وقد عزز هذا رأى بأدلة مقنعة توصل
اليها من عمارة القبتين .

وانتشر نظام قباب القيروان في المغرب والأندلس ،
واتخذت نموذجا لقباب جامع الزيتونة بتونس
الذى يشتمل بيت الصلاة فيه على قبتين تعلوان
بلاط المحراب ، كما هو الحال في جامع القيروان ،
هما : قبة المحراب وباب البهو ، وعناصر قبة
المحراب بجامع الزيتونة مثل عناصر قبة المحراب

القباب على بلاط المحراب فحسب ، بل اقتبس بناء قبابه من قباب القيروان وتونس . لقد أخذ من قباب القيروان وتونس فكرتها المعمارية ، وطبقها على قبابه مع شيء من الأصالة والابتكار ، فجاءت قبابه في صورة حية جديدة . وقباب قرطبة قوامها هيكل من الضلوع المتقاطعة فيما بينها بحيث تؤلف أشكالا نجمية ، تقوم في وسطها قبيبة مفصصة . وكسيت هذه الضلوع من أعلاها بحشو من البناء ، وطبقت في الفراغ الحادث من تقاطع العقود أو الضلوع البارزة زخارف جميلة من قواقع ونجوم وفصوص . ويرى الدكتور فكرى أن فكرة تصميم قباب قرطبة تتفق مع قبة مسجد القيروان . واتفاق هذه الفكرة ، في اعتقاده ، يرجع الى وحدة تفكير رجال الفن المسلمين ، وارتباطهم بعوامل واحدة . وتتمثل عناصر هذه الفكرة متجمعة في قبة المحراب بجامع قرطبة وان كانت تطورت كثيرا ، فتعددت الخطوط الهندسية ، وزاد تجزؤ الفضاء ، واتخذت العقود والأقواس والضلوع والأعمدة رسما أكثر وضوحا . أما المقرنصات فبدت في مظهر زخرفى بحت .

أما الأستاذ لامير فيرى أن ضلوع قبة محراب القيروان مرتبطة كل الارتباط بفصوص الخوذة الكروية ، أما ضلوع قبة المحراب بجامع قرطبة فمستقلة كل الاستقلال عن الغطاء الذى يكسو هيكل الضلوع . ولكنه يرى أن ضلوع قبة المحراب بجامع الزيتونة بتونس تبدو مختلفة اختلافا يسيرا عن ضلوع قبة المحراب بجامع القيروان ، وأن فصوص الخوذة بقبة الزيتونة تبدو منفصلة عن هيكل من العقود البارزة المستقلة ، قطاعها مستطيل يشبه في حد ذاته ضلوع قبة المحراب بجامع قرطبة . ويبدو أن مهندس جامع قرطبة استغل هذه الفكرة في بناء قبة المحراب بزيادة الحكم المستنصر ، وابتكر عليها فكرة تقاطع هذه العقود البارزة التى

استلهمها من شبكات العقود المتقاطعة والمتداخلة والمتراكبة في البلاط الأوسط وأسكوب المحراب . وقد توج الفراغ الحادث من تقاطع هذه العقود بقبيبة ذات ثمانية فصوص . أما القبيبة الوسطى بقبة الضوء — وهى القائمة على مدخل البلاط الأوسط من زيادة الحكم — فتتكون من اثني عشر قضا ، وتذكرنا بقبة المحراب بجامع القيروان .

وانتقل نظام التقيبب القائم على تقاطع الضلوع من قرطبة الى طليطلة ، فنراه ممثلا في صور مختلفة بمسجد باب مردوم ، ومن قبابه ما يبدو رباعيا منحرفا ذا أقطار ، كأنه قبوتان من الطراز القوطى احدهما داخل الأخرى ، ومنها ما يبدو مثلنا ، ومنها ما يقلد تقاطع ضلوع قبة المحراب بقرطبة . ثم انتشر هذا النوع من القباب منذ ذلك الحين انتشارا كبيرا يشهد به ذلك العدد الهائل الذى نراه في الكنائس المسيحية بطليطلة والمزان بقشتالة وتوريس دل ريو ودير موسالك وأولورون وسان بليز . ومن هذه القبوات الأخيرة استلهم الفنانون الفرنسيون فكرة قبواتهم القوطية .

فكان الفكرة بدأت من جامع القيروان وانتهت بالقبوات القوطية الفرنسية . وخلال هذه الرحلة الطويلة فقدت القباب الاسلامية فكرتها المعمارية الأصلية ، واتخذت مظهرا زخرفيا بحتا نراه بارزا في أوضح صورة بقبة المسجد الجامع بتلمسان ، وقبة البروديين بمراكش ، وقبة جامع تازة .

زخاف الجامع

يغلب طابع البساطة على بناء الجامع بوجه عام ، ويتجلى ذلك في عقوده الملساء بجدرانها وقرمها وطنفها وتيجانها ، ولكن هذه الصورة البسيطة ما لبثت أن دخلتها بعض الحليات ، فعلا العقود صف من عقود زخرفية صغيرة في صورة رواق مصغر

— كما هو الحال في عقد باب المقصورة القديمة —
أو أحاط بالعقد افريز مستطيل نقشت فيه مربعات
موضوعة على رءوسها ، كعقد باب الميضاة . ثم
تطور المظهر الزخرفي بمرور الزمن ، وازدان بعض
عناصر الجامع بزخارف آية في الأناقة والجمال
كزخارف المحراب وقبته وبلاطه .

وتكسو جوفة المحراب غلالة رقيقة من الرخام
نقشت فيها زخارف نباتية مخرمة ، يتسرب الضوء
من بين خرومها ، وينفذ الهواء من بين فتحاتها
الرشيقة ، ويلمع الرخام الناصع بين ظل الفراغ
المعتم الذي يتخلل الزخارف . ولقد اصطفت هذه
اللوحات الرخامية صفوفاً أربعة في كل صف سبع
حشوات عرض كل منها ٤٤ سنتيمتراً . ويزدان
الشريط الأفقي العلوي الذي يفصل الصف العلوي
من الحشوات عن السفلي بكتابة كوفية منقوشة في
الرخام نقرأ فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم . قل
هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم
يكن له كفوا أحد . محمد رسول الله صلى الله عليه
وسلم » .

وتزدان الحشوات الرخامية بزخرفة نباتية تقوم
على التوريقات ، وهندسية تكثر فيها المربعات
والدوائر والخطوط المتقاطعة . وقوام هذه الزخارف
ورقة العنب وسعف النخيل . وتبدو ورقة العنب
في صور مختلفة ، فهي مقصوصة أو ملفوفة أو
ممتدة أو منكشمة . وكثيراً ما يتفرع من السيقان
الملتفة أوراق وزهور تملأ الفراغ ، أو تتفرع هذه
الأوراق النباتية من ساق متوسطة منحنية في
تموجات .

وبعض هذه الحشوات الرخامية يزدان بزخرفة
في صورة قواقع ، ولكن العدد الأكبر منها يشغله
فرعان منحنيان متناسقان ، يتشابكان أحياناً على
امتداد المحور ، وتبرز وسط هذا التشابك زهرة .

وبجانب هذه الحشوات تبدو الشبكات الزخرفية
التي تغطي نوافذ القبة ، وتتكون زخارفها عامة من
ساق متوسطة تشبه شجرة الحياة الفارسية ، أو من
فروع متموجة تتدلى منها أغصان بها أوراق العنب
وعناقيده ، وتشبه هذه الزخارف ، الزخارف التي
نشاهدتها على واجهة مسجد الأبواب الثلاثة
بالقيروان ، الذي أقامه محمد بن خيرون المعافري
الأندلسي عام ٢٥٢ للهجرة (٨٦٦ م) . ويكسو
الجدران التي تعلو البلاط الأوسط بجامع القيروان
زخرفة هندسية ونباتية تمتد الى بنىقات العقود ،
وتعد من أروع أمثلة الزخرفة في هذا العصر .

وتزين عقد المحراب وما يحيطه من جدار المحراب
تربيعات من الخزف ذي البريق المعدني (قراميد) ،
تنسب الى أبي ابراهيم أحمد بن محمد ، ٢٤٢ —
٢٤٩ للهجرة (٨٥٦ — ٦٨٣ م) ، وقد استقدم
أبو ابراهيم هذه القراميد من العراق ، وينعكس
ذلك على زخارفها المتأثرة بالتقاليد الساسانية .

أما أعمدة المسجد وتيجانه ، فأغلبها وثنية
أو مسيحية استخرجها المسلمون من الأطلال القديمة
بقرطاجنة وتيبسا وتمجاد . وكانت عادة استعمال
الأعمدة الرومانية شائعة في افريقية في ذلك الوقت .
وكان الأمراء يشترون التيجان الجميلة ، ويرصعون
بها مساجدهم وأبنيتهم . وقد قيل ان عمودين من
الرخام الأخضر دفع فيهما يزيد بن حاتم مبلغاً كبيراً
من المال . وهناك أعمدة وتيجان أخرى اشتراها
أفراد وتبرعوا بها للمساجد رغبة في ثواب الله .
وفي جامع القيروان عمودان عليهما نقش كتابي نقرأ
فيه كلمة « للمسجد » مما يقطع بأنهما من بين
الهبات التي وهبها بعض الناس للمسجد .

وبقبة المحراب اثنان وثلاثون عموداً صغيراً ،
تيجانها الصغيرة من الطراز الكورنثي تمثل ورقى
أكثس عريضتين ملساوين ملتحمتين في أدنى التاج ،

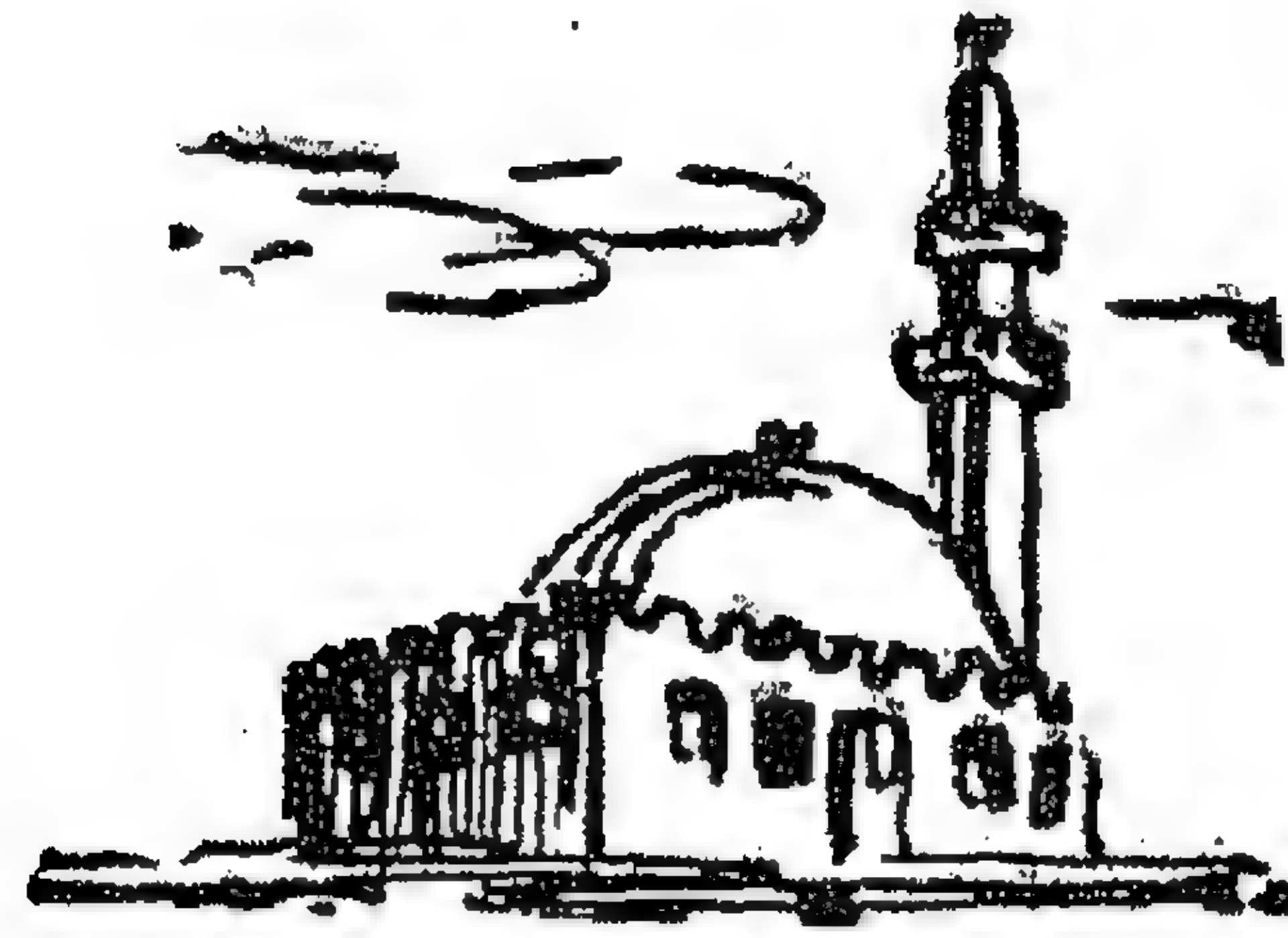
ثم تنفرعان وتبتعد احدهما عن الأخرى فتبدوان على هيئة « ٧ » ، وتبرز في الفراغ الناشء بينهما ورقة بسيطة بيضية ترى أحيانا في القرمة .

ومنبر جامع القيروان يعد أروع أمثلة الحفر في الخشب في بلاد المغرب ، وينسب هذا المنبر الرائع الى أبي ابراهيم أحمد عام ٢٤٨ للهجرة (٨٦٢ م) ، وزخارفه هندسية تقوم على الدوائر والخطوط ، ونباتية تتشثل فيها أوراق العنب . وبالجامع مقصورة خشبية صنعت عام ٤٣١ للهجرة على يدي المعز بن باديس ، أبوابها غنية بالزخرفة والكتابة .

وجامع القيروان هو أقدم مساجد المغرب

الاسلامي ، والمصدر الأول الذي اقتبست منه العمارة المغربية والأندلسية عناصرها ، ومنه انبثقت الأفكار المعمارية والزخرفية وتطورت في العصور المختلفة . ومن قبابه انبثقت فكرة القباب ذات الضلوع المتقاطعة ، ومن مئذنته اتخذت المآذن المغربية والأندلسية طابعها الذي تتسم به حتى اليوم ، ومن عقود المتجاوزة والمفصصة وتوريقاته الزخرفية ، نشأت التوريقات الأندلسية التي تتجلى في أروع صورة بجامع قرطبة ... وهكذا لعب هذا الجامع دورا هاما في الفن الاسلامي عامة ، والفن الأندلسي المغربي بوجه خاص .

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم



مسجد القرويين بفاس

بناء الجامع

جامع القرويين أهم المساجد الجامعة في بلاد المغرب ، وأكثرها شهرة باعتباره جامعة اسلامية قديمة يمكن مقارنتها بجامعة الأزهر في القاهرة . وقد كان لهذا الجامع أثر بالغ في مساجد فاس كلها ، اذ كان نظامه الفريد يؤلف طابعا انتشر في كثير من مساجد فاس ومكناس ومراكش حتى وقتنا هذا . وقد وصل الينا تاريخ هذا المسجد كاملا بفضل روايات « الروض القرطاس » لابن أبي زرع ، و « زهرة الآس » للجزنائي .

مر بناء جامع القرويين بثلاث مراحل : المرحلة الأولى عند تأسيسه عام ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ، والمرحلة الثانية عند الزيادة فيه عام ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) ، أما المرحلة الثالثة فعندما زيدت مساحته في عصر المرابطين عام ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) . ومن الثابت أن الزيادات التي تمت ، ألحقت بالجامع القديم ، أي التفت به من الشمال والجنوب والشرق والغرب .

يذكر ابن أبي زرع أن الخطبة لم تزل « بجامع الشرفاء الذي بناه ادريس بعدوة القرويين ، وبجامع الأشياخ من عدوة الأندلس طول أيام الأدارسة » . فلما اتسعت مدينة فاس ، ووفد اليها العرب والبربر من أنحاء المغرب والأندلس ، ضاق كلا الجامعين بالمصلين ، واستلزم الأمر بناء مسجدين جديدين . وتطوعت سيدتان قدمتا من القيروان ببناء الجامعين من مالهما الخاص ، هما :

فاطمة القروية أم البنين ، وأختها مريم ، بنتا محمد الفهري ، فبنت فاطمة جامع القرويين ، وبنت مريم جامع الأندلسيين .

وكان موضع جامع القرويين أرضا فضاء يعمل فيها أصناف الجص ، فشرعت فاطمة في حفر أساسه وبنائه عام ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) . وتذكر الرواية أن جميع مواد بنائه استخرجت من أرض المسجد نفسه . وفي ذلك يقول ابن أبي زرع : « فبنته بالطبنة والكذان ^١ ، وحفرت في وسطه ، فصنعت كهوفا ، واقتطعت الكذان ، وأخرجت منها التراب والحجر والرمل الأصفر الطيب ، فبنت به الجامع المذكور كله حتى تم ، ولم تدخل فيه شيئا من تراب وغيرها ، وحفرت البئر التي في الصحن » .

وكان هذا المسجد الأول يتألف من قسمين : بيت الصلاة ، والصحن . وكان بيت الصلاة يشتمل على أربعة بلاطات عرضية من الشرق الى الغرب ، يتوسطها بلاط أوسط أكثر ارتفاعا من البلاطات العرضية الأخرى . وكان طول بيت الصلاة من الشرق الى الغرب — وفقا لرواية الجزنائي وابن أبي زرع — مائة وخمسين شبرا (أي ما يقرب من ثلاثين مترا) ، وجعلت فاطمة محرابه في موضع الثريا الكبرى الموجودة بالمسجد في الوقت الحاضر ، وأقامت صومعة

(١) الكذان : نوع من الحجر الجيري .

(مئذنة) غير مرتفعة في موضع القبلة التي تعلو العنزة ^١ الحالية .

ويذكر الأستاذ « جورج مارسيه » أن هذه المعلومات ، التي زودنا بها المؤرخان السابقان ، على جانب كبير من الأهمية ، لأنها أتاحت لنا تحديد المكان الذي كان يشغله بيت الصلاة القديم من جامع القرويين في صورته الحاضرة . ويؤكد الأستاذ مارسيه ، ويؤيده في ذلك الأستاذ لامبير ، أن طول بيت الصلاة القديم كان يمتد من بداية البلاط الرابع من الصحن حتى نهاية البلاط السابع من المسجد الحالي ، وكان عرضه يشتمل على العقود الاثني عشر الوسطى المحصورة بين البلاطات المذكورة ، ويحدد هذا العرض صفان من العقود تقطع بيت الصلاة من البهو حتى جدار القبلة . أما البهو القديم فكان يشغل الأروقة الثلاثة الأولى ابتداء من العنزة ، في حين كانت المئذنة تقوم على الواجهة الشمالية للمسجد في محور المحراب ، شأنها في ذلك شأن مئذنتي جامع القيروان ، وجامع قرطبة ، ومئذنة العروس بجامع دمشق .

وظل المسجد على هذه الصورة القديمة حتى دالت دولة الأدراسة . ولما تولى بنو زناقة حكم البلاد ، واستقام أمرهم بالمغرب ، بنوا الأسوار حول أرباض العدوتين ، وزادوا في جامع القرويين

(١) العنزة في الأصل : الحربة الطويلة المزودة في طرفها بعلمين ، والتي أهداها نجاشي الحبشة إلى الزبير ، فأعطاهما بدوره إلى الرسول صلوات الله عليه . ولقد غرسها بلال في العام الثاني للهجرة (٦٢٤ م) أمام الرسول عند صلاته في ميدان الفطر لتحديد اتجاه القبلة . وقد أصبح استخدامها تقليديا ، وأصبح الإمام يمسك بيده عصا أو رمحا أو سيفاً للاعتماد عليها . وقد حل المحراب محل العنزة ، ولكنها اتخذت في المغرب كمحراب رمزي محفور في واجهة بيت الصلاة المظلة على الصحن ، في محور المحراب نفسه . وكانت تستخدم كمحراب ثانوي للمصلين في الصحن ومجنيباته (٢) وعنزة القرويين من خشب الصنوبر (٣)

زيادة كبرى حدودها ظاهرة حتى اليوم ... وذلك حين كثر الناس بفاس ، وانتابوها من كل صوب ، وأصبح جامع الشرفاء القديم الذي أسسه إدريس الثاني ضيقا ، فنقلت منه الخطبة إلى جامع القرويين بعد توسعته والزيادة فيه .

وتفصيل ذلك أنه لما خضعت بلاد العدوة (إقليم طنجة وما يحيطه من بلاد ، كسبته وفاس ومكناس) للخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله عام ٩١٨ م ، بايعته مدينة فاس بين المدن التي بايعته . فولى عليها عاملا من قبله يعرف بأبي العباس أحمد بن أبي بكر الزناتي . فكتب إلى عبد الرحمن الناصر « يستأذنه في إصلاح جامع القرويين واتقانه والزيادة فيه ، فأذن له في ذلك ، وبعث إليه بمال كثير من أخماس غنائم الروم ، وأمره أن يصرفه في بنائه . فأصلح جامع القرويين ، وزاد فيه من ناحية الشرق وناحية الغرب والجوف ، وهدم صومعته القديمة التي كانت فوق العنزة ، وبنى الصومعة التي به الآن » .

ويمكننا تحديد هذه الزيادة بالنسبة للمسجد الحالي على النحو التالي :

مد الأمير أحمد بن أبي بكر البلاطات العرضية الأربعة مسافة خمسة عقود شرقا وأربعة عقود غربا ، ثم أضاف لبيت الصلاة ثلاثة بلاطات عرضية جديدة شمالا ، فشغلت هذه البلاطات الجديدة الصحن القديم ، وبطيعة الحال أقام لبيت الصلاة هذا بعد اتساعه صحنًا جديدًا .

أما المئذنة فأقامها فوق منتصف الرواق المطل على الصحن من المجنبية الغربية . وقاعدة هذه المئذنة مربعة ، طول كل ضلع منها نحو خمسة أمتار ، وارتفاعها أربعة أضعاف طول قاعدتها أي

عشرون متراً - وفقاً للنظام المتبع في بناء المآذن بالأندلس في ذلك الوقت - وجعل بابها جهة الجنوب مثل مئذنة جامع القيروان . وقد علق ابن أبي زرع على ذلك بقوله : « كذلك يجب أن تكون من جهة البناء والنظر الهندسي » .

ولقد شرع الأمير أحمد في بنائها وتشييدها عام ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) ، وفرغ منه في ربيع الآخر عام ٣٤٥ هـ . وبنيت من الحجر المنجور (المعدل المصقول) المحكم ، وترك في جدرانها ثقب اتخذت منها الطيور أوكاراً لها ، وركبت على رأسها تفاحات صغيرة مموهة بالذهب ، وفي أعلاها سيف الإمام ادريس بن ادريس الذي بنى عدوة القرويين ، تبركا به .

ونلاحظ أن هذه المئذنة تشبه إلى حد كبير مآذن قرطبة وإشبيلية في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وإن كانت تغلب عليها البساطة . وفي داخلها درج حلزوني يدور حول دعيمة مربعة ، وبجدرانها من الخارج فتحات ضيقة تشبه منافذ السهام كان الغرض منها مد الدرج بالضوء ، وقرب أعلاها نافذة على هيئة عقدين توءمين متجاوزين ، يستندان على عمود مشترك ، ويحيط بهما إطار مستطيل على النحو الذي نراه في مآذن الأندلس كلها ، وفي أعلى نهاية جدار المئذنة شرفات هرمية . أما سطح المئذنة فتعلوه قبة ركبت بها التفاحات المذكورة .

ولم يبق مظهر هذه المئذنة كما هو في العصر الأموي ، وإنما كسيت بطبقة من الجص عام ٩٨٨ هـ (١٢٨٩ م) ، إذ أمر السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق المريني ، قاضيه أبا عبد الله ابن أبي الصبر ، بإصلاحها وتبييضها من أموال أعشار الروم . فشرع في تبييضها ، وكسا المئذنة

بالجص والجيار ، وصمر المسامير الكبيرة بين أحجارها ليثبت التليس والبناء ، ثم صقلها بعد ذلك حتى أصبحت كالمرآة .

ولم يطرأ على المسجد تغيير يذكر إلى أيام الخليفة الأموي هشام المؤيد ، والحاجب المنصور ابن أبي عامر ... فبنى بالمسجد قبة هي التي تعلو العنزة الحالية ، أي في الموضع الذي كانت تشغله المئذنة القديمة ، ونصب على رأسها أعمدة من حديد ركبت فيها تماثيل وطلاسم . ولقد أجريت بالمسجد أعمال كثيرة في عهد المظفر عبد الملك بن المنصور ، « فبنى السقاية والبيت المستظلة بازاء باب الحفاة » ، وهو باب مفتوح في منتصف الجدار الشمالي للمسجد ، وجلب إليها الماء من وادي حسن خارج المدينة ، وأقام بالمسجد منبراً من خشب القنب والأبنوس عام ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) .

وازدهرت فاس في عصر المرابطين ، وكثر العمران بعدوة القرويين ، حتى ازدهمت المدينة ، واكتظت بسكانها ، وضاق جامع القرويين بالمصلين حتى كان الناس يصلون في الأسواق والشوارع والطرق المحيطة بالجامع أيام الجمع ، وكانوا يلاقون متاعب كثيرة لتعرضهم لحرارة الشمس أيام الصيف . فاجتمع الفقهاء والأشياخ ، وخطبوا قاضي القضاة في هذا الأمر ، فاستأذن القاضي أمير المسلمين على بن يوسف في إجراء زيادة بالمسجد ، فأذن له بالشروع فيها عام ٥٢٨ هـ (١١٣٣ م) .

وابتدأ القاضي بنزع ملكية الدور الملاصقة للجامع من جهة قبلته وهدمها ، وأقام مكانها ثلاثة بلاطات عرضية أضيفت إلى البلاطات السبعة القديمة ، وزود المسجد بحراب جديد ومنبر ، وأعاد بناء الباب الغربي الكبير المعروف بباب

الفخارين ، فسمى بباب الشماعين . وكان يشرف على البناء بنفسه ، وأقام على الباب قبة بداخلها نقش ذكر ابن أبي زرع نصه كالآتي : « صنعت هذا الباب والقبة وكلف بالبناء والتركيب في شهر ذي حجة سنة ثمان وعشرين وخمسائة » . وبنت الزيادة بحجر الكذان ، وتأنق في بنائها غاية التأنق ، وكسيت أبواب المسجد جميعها بالنحاس الأصفر ، وأقيمت على كل منها قبة . وأقيمت على المحراب قبة آية في الروعة والجمال ، زينت هي والمحراب بنقوش الذهب واللازورد وأصناف الأصبغة ، فبهرت الناس بحسنها ولألائها .

وبهذه الزيادة اكتملت عمارة المسجد ، واشتمل على حدوده التي نشاهدها اليوم . ويمثل محور المسجد من الداخل بلاط أوسط فسيح ، تعلوه خمس قباب من المقرنصات والضلوع البارزة ، ومن الخارج يقطع صفوف الأسقف المنشورية الشكل ، الموازية لجدار القبلة ، جوسق منشوري الشكل عمودي على جدار القبلة ، يزيد ارتفاعه على ارتفاع هذه الأسقف وتمت هذه الزيادة عام ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) . وكلف الشيخ أبو يحيى العتاد صنع المنبر وفتح باب الجنائز^١ ، ولكنه مات ، فأكماله أبو مروان عبد الملك بن بيضا القيسي . وفرش الفقيه أبو عبد الله بن داود صحن الجامع ، وصنع بكرًا وأشرطة غليظة ركبها في قلاع من شقاق الكتان على قدر الصحن ، ونصبها بأعلى الصحن ، فاذا اشتدت حرارة الصيف ، شددت البكرات فنصبت القلاع وظللت الصحن كله .

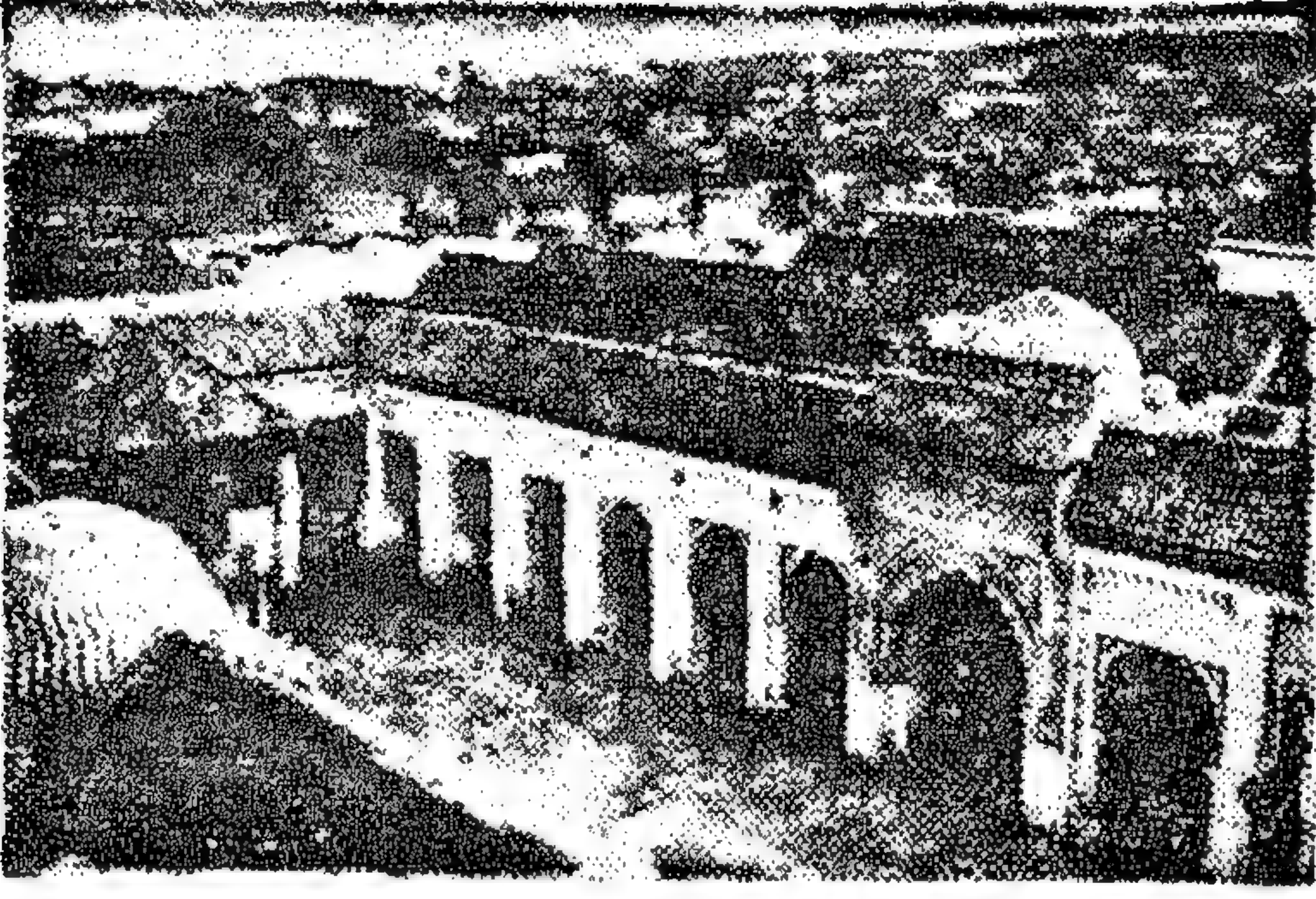
(١) جامع الجنائز ، هو بناء مربع ملحق بالجامع من قبلته ، تعلوه قبة من المقرنصات فائقة الجمال ، وتحف جدرانها عقود توأمية متجاوزة ، تتكئ أطرافها اللولبية على أعمدة تيجانها قرطبية من عصر الخلافة . وقد استلزم وجود جامع للجنائز ملحق بالجامع الكبير فتح أبواب في جدار القبلة ، وعقود هذه الأبواب توأمية متجاوزة هي الأخرى وتيجانها من الطراز الخلفي الشائع بقرطبة مما يشهد بأن المرابطين أعادوا استخدام كثير من المواد البنائية القرطبية في أبنيتهم .

ولقد تخلف من عصر المرابطين منبر يعد من أجمل منابر الاسلام ، صنع من الأبنوس والصندل والعاج والنارنج والعناب عام ٥٣٨ هـ . ويشتمل هذا المنبر على تسع درجات كبيرة ، ويزدان جانباه بتشابكات رائعة متعددة الضلوع ، قوامها أشكال نجمية ذات ثمانية رؤوس ، ويشبه في ذلك منبر جامع الكتبية بمراكش ، ويحدد هذه التشابكات شريط من العاج ، وتزين الحشوات النجمية توريقات نخيلية معروقة ومحزمة وفقًا للأسلوب الأندلسي المغربي . أما ظهر المنبر وعقده الأمامي فمرصعان بالعاج والأخشاب الثمينة ذات الألوان الهادئة . وما زال هذا المنبر محفوظًا إلى يومنا هذا بجامع القرويين .

ولما دخل الموحدون مدينة فاس في ١٥ من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، خاف فقهاء المدينة وأشياخها أن يأخذ الموحدون عليهم هذا الاسراف في النقش والزخرفة والتذهيب بالمحراب وقبته « فأتى الحمامون الجامع تلك الليلة ، فنصبوا على ذلك النقش والتذهيب الذي فوق المحراب وحوله بالكاغيد ، ثم لبسوا عليه بالجص ، وغسل عليه بالبياض وذلك » . فاختمت هذه النقوش ، وأصبحت بيضا .

وفي عام ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) أقيم بوسط الصحن حوض من الرخام الأبيض الناصع ، بداخله خصة من النحاس الأحمر المموه بالذهب ، صنعها أبو عمران موسى بن حسن بن أبي شامة ، وكان مهندسًا بارعًا عارفًا بأحوال البناء ، حاذقًا لأصوله . ولما شرع في صنعها شق أرضية الصحن من شرقيه وغربيه بقادوس من الرصاص ، وأجرى فيه الماء إلى الحوض والنافورة .

وفي عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) فتح القاضي أبو يعقوب يوسف بن عمران باب الوراقين بالجامع ،



محن جامع القرويين بمدينة فاس

العرضية بلاط أوسط يتجه عموديا على القبلة ،
تزدان جدرانها الجانبية بزخرفة نباتية في عقود متصلة
تشبه زخارف قصر الجعفرية بسرقسطة ، والمسجد
الجامع بتلمسان . على أن الظاهرة التي تسترعى
الاهتمام في بلاطات هذا الجامع ، أنها تتجه في
محاذاة جدار القبلة على مثال بلاطات جامع الشرفاء
وجامع الأندلسيين الأول بفاس . ويعد هذا الاتجاه
شدوذا بالنسبة لمساجد المغرب والأندلس .

وينبغي أن نستعرض هنا أصل هذا النظام حتى
تتمكن من تفسير هذه الظاهرة بجامع القرويين ...
لقد أدى غرس صفوف الأعمدة في بيوت الصلاة
بالمساجد الى انقسام هذه البيوت الى عدة بلاطات
أو أروقة ، على نحو المجازات في الكنائس
والبازيليكتات . وكانت هذه البلاطات تتوزع في
بيت الصلاة في طرازين مختلفين : اما عمودية على
جدار القبلة ، واما في محاذاة هذا الجدار . ويمثل
الطراز الأول جامع دمشق ، والطراز الثاني جامع
بيت المقدس (المسجد الأقصى) . فكان بيت الصلاة
بجامع دمشق يتألف من ثلاثة بلاطات تتجه عرضا
من الشرق الى الغرب ، يتوسطها بلاط طولى أكثر
ارتفاعا من هذه البلاطات ، بفضى مباشرة الى
المحراب وتعلو منتصفه قبة ، فيبدو الجامع كما لو
كان منقسما الى بازيليكتين ، كل منهما تتألف من
ثلاثة أروقة تؤدي الى مجاز مشترك . وقد اتبع

وأقام عليه القبلة العظيمة المقربصة بالجص . وفي
عام ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) شرع القاضي أبو عبد الله
ابن أبي الصبر ، الذي كسا المئذنة بكسوة الجص ،
في صنع عنزة الجامع ، وأتمها في ٥ من شهر ربيع
الأول عام ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) .

ثم أدخل الشرفاء السعديون في جامع القرويين
عدة تحسينات اضافية ... ففي عام ٩٩٦ هـ
(١٥٨٧ م) نصب مولاي أحمد المنصور ٩٨٦ —
١٠١٢ للهجرة (١٥٧٨ — ١٦٠٣ م) بالجامع حوضا
من الرخام أدنى المئذنة ، وأقام على منتصف رواق
المجنبه الشرقية المطلة على الصحن ، جوسقا بارزا
محمولا على أعمدة تقوم عليها في كل من جهاته
الثلاث عقود ثلاثة ، أوسطها أكثر ارتفاعا
واتساعا . ويعلو هذا الجوسق سقف هرمي من
القراميد ، يبرز فوق افريز عريض ذي مساند
خشبية . أما الجوسق الغربي فقد أقامه مولاي
عبد الله بن الشيخ عام ١٠٢٢ — ١٠٣٤ للهجرة
(١٦١٣ — ١٦٢٤ م) فوق حوض الرخام الذي
نصبه مولاي أحمد المنصور بأدنى المئذنة .

ولا شك أن مهندسي فاس استلهموا بهو السباع
بقصر الحمراء في تقسيم صحن جامع القرويين ،
وتوزيع المياه الى الحوض المركزي ، واقامة
الجوسقين على الحوضين الجانبيين ... وان كانت
الأعمدة التي يستند عليها جوسقا القرويين أقل
رشاقة منها في غرناطة . ثم ان أعمدة غرناطة تقوم
في مجموعات من ثلاثة أعمدة ، وهي لا تعدو في
فاس عمودا واحدا .

بلاطات الجامع ونظامها

يتألف جامع القرويين من عشرة بلاطات موازية
لجدار القبلة ، أو من عشرة صفوف من العقود تمتد
من شرق المسجد الى غربه ، كل صف منها يتكىء
على واحد وعشرين عقدا ، ويقطع هذه البلاطات

هذا النظام في كثير من مساجد الشام مثل جامع الرصافة ، وجامع حران ، وجامع حلب ، وجامع حماة .

أما الطراز الثاني من البلاطات فيشله المسجد الأقصى بيت المقدس الذي أسسه الوليد بن عبد الملك عام ٧٠٦ م . وتتبع بلاطات هذا المسجد نظام البازيليكيات ، اذ تتجه عمودية على جدار القبلة بعكس جامع دمشق . ولم تكن لطراز الجامع الأقصى مدرسة بالشرق — اذا استثنينا الجامع المعروف بتارى خان بمدينة دمغان ، جنوب بحر قزوين (٧٥٠ — ٧٨٦ م) ، والمسجد الجامع بسامراء ، وجامع أبى دلف بهذه المدينة — ولكنه انتشر انتشارا كبيرا في بلاد المغرب والأندلس ، فنراه في جامع قرطبة في عهد عبد الرحمن الداخل ، وجامع سيدى عقبة بالقيروان ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع سوسة في عهد الأغالة . وانتشر هذا الطراز البازيليكي في مساجد المغرب والأندلس حتى يمكننا أن نسميه بالطراز القرطبي .

ولكن المغرب الأقصى ، الذي كان خصما سياسيا للمغرب الأدنى ، ساد فيه الطراز الدمشقي للبلاطات ... فظهر أول ما ظهر في جامع الشرفاء ، ثم طبق في جامع القرويين ، وتولى هذا الجامع مهمة نشر الطراز الدمشقي في مساجد فاس ومراكش . ويذكرنا بناء جامع القرويين ببناء جامع دمشق ، اذ تتجه فيه البلاطات بمحاذاة جدار القبلة ، ويتوسطها بلاط أوسط يتجه عموديا الى المحراب . ولقد وقف المرابطون حياء هذين الطرازين موقفا محايدا ، فطبّقوا الدمشقي منهما في زيادتهم لجامع القرويين ، وطبقوا القرطبي في جامعهم بتلمسان . ثم فضل الموحدون الطابع القرطبي ، وابتكروا فيه أنظمة جديدة نشاهدتها في مساجدهم بتازة وتنمال والكتيبة والقصبة بمراكش ومكناس واشبيلية

ورباط . الا أن هزيمة الخليفة الموحدى محمد الناصر في موقعة العقاب (لاس نافاس دي تولوزا) في عام ١٢١٢ م ، سببت الانفصال السياسى بين المغرب والأندلس ، وسجلت فاس انتصارا آخر للطراز الدمشقي ، فقد بنى جامع الأندلسيين بأكمله وفقا لهذا الطراز ... بل ان هذا الطراز ساد في كثير من مساجد المغرب ، مثل الجامعين الجنائزين بمدينة شالة (أسسهما أبو الحسن المريني عام ١٣٣٩ م) ، وبيت الصلاة بالمدرسة البوعنانية بفاس (١٣٥٠ م) . ومسجد لآ زهر (١٣٥٧ م) . وساد هذا النظام في مدن فاس ومكناس وتازة ، وما زال سائدا في مساجد المغرب حتى وقتنا هذا .

قباب الجامع

معظم قباب جامع القرويين قباب مقرنصة ، أى تقوم على مقرنصات ، والمقرنصات أو المقربصات — حسب تعبير أهل المغرب — حليات معمارية تشبه خلايا النحل ، استخدمت بادىء ذي بدء للتدرج من سطح مربع الى سطح تقوم عليه القباب ، وذلك بوضعها في الأركان الأربعة لقاعدة القبة ، فتحول المربع الى مشمن . ثم تطورت فتعددت حطاتها ... كذلك كانت تتخذ كمساند للأسطح البارزة أو لشرفات المآذن . وقد أقبل عليها المسلمون اقبالا عظيما ، وأصبحت من أهم خصائص العمارة الاسلامية .

ويرى العدد الأعظم من مؤرخى الفن الاسلامى أن المقرنص ظهر أول ما ظهر في فارس (ضريح يزد عام ١٠٣٥ م) لسهولة استعماله في الأبنية المتخذة من الآجر ، وهو أهم مواد البناء في هذه البلاد . وانتشرت المقرنصات في العمارات السلجوقية ، ووصلت الى بلاد المغرب في عصر مبكر ، ونشدها في صورة بدائية بقصور قلعة بنى حماد التي ترجع

الى أواخر القرن الحادى عشر ، وذلك لتأثر هذه
القصور بالفن العراقى الذى ساد فيه هذا النوع
من الزخرفة المعمارية (قصر الرقة) .

ثم ظهرت المقرنصات فى صورة أكثر تطورا بقبة
المحراب بالمسجد الجامع بتلسان (١١٣٥ م) ،
وجامع القرويين بفاس (١١٤٣ م) . وتفنن
الموحدون فى استخدامهما فى قبابهم ، فأقاموا قبابا
مقرنصة بأكملها ، من أمثلتها : قبة جامع اشبيلية ،
وقباب جامع الكتبية بمراكش . ثم بلغت المقرنصات
ذروة تطورها فى عمائر بنى نصر ، فنراها فى قاعة
الأختين ، وقاعة بنى سراج بقصر الحمراء ، كما

نراها فى بواطن العقود وفى زخارف التيجان وغير
ذلك .

وقباب جامع القرويين تعرض نموذجا من
المقرنصات أكثر تطورا من مقرنصات قبة جامع
تلسان ، وذلك لأنها بنيت بعدها بثمانى سنوات .
وقبة جامع الجنائز الملحق بجامع القرويين قبة
مقرنصة رائعة ، وتتميز مقرنصاتها بخطوطها
الواضحة الثابتة ، تصلها فيما بينها ضلوع بارزة
على هيئة مثلثات أو أقواس . وترصع هذه الشبكة
من المقرنصات قبيبات صغيرة مفصصة ، فى حين
تزين المثلثات زخرفة من أوراق الأكشس محفورة
فى الجص .

الدكتور السيد محمود قبة العزيز سالم



جامع الأندلسيين

تاريخ بناء الجامع

بنى هذا المسجد الجامع عام ٢٤٥ للهجرة (٨٥٩ م) في العام الذي بنى فيه جامع القرويين . ويذكر ابن أبي زرع في « روض القرطاس » ، والجزنائي في « زهرة الآس » ، أن مريم بنت محمد بن عبد الله الفهري تولت ببناء جامع الأندلسيين ، وأن أختها فاطمة القروية أم البنين بنت جامع القرويين .

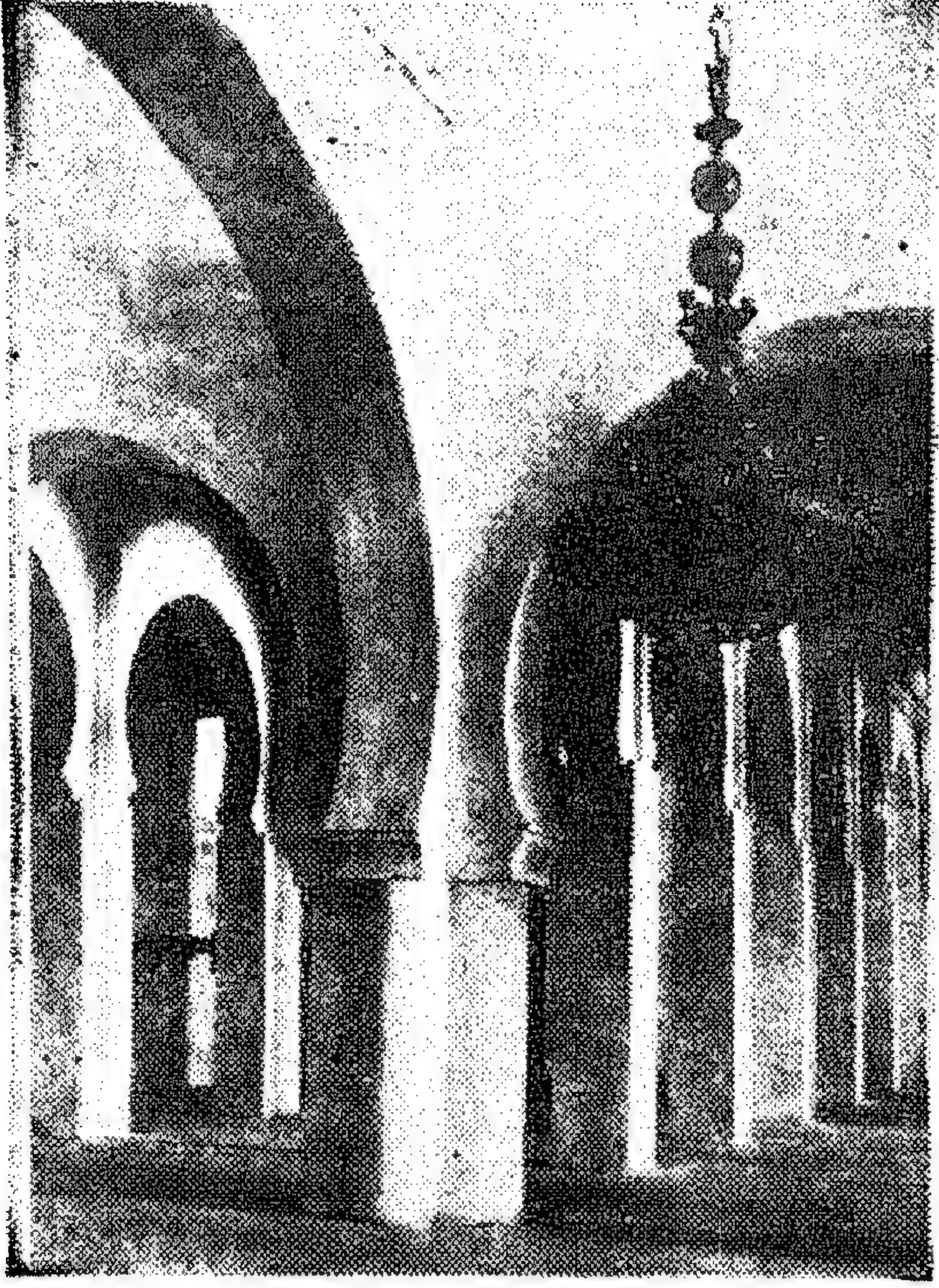
ولقد سمي هذا الجامع « جامع الأندلسيين » ، لا لأنه أقيم في عدوة الأندلسيين — فقد كان بها غيره من المساجد — ولا لأنه المسجد الجامع بهذه العدو ، إذ أنه لم يكن بها سوى مسجد جامع واحد ، هو جامع الأشياخ الذي بناه إدريس بن عبد الله بن الحسن . . . وإنما لأن جماعة من أهل الأندلس ، كانوا يعيشون حوله ، ساهموا في الاتفاق على بنائه .

وظل جامع الأندلسيين كما هو منذ تم بناؤه إلى أن رفعت الخطبة من جامع الأشياخ ، وانتقلت إليه عام ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) بأمر حامد بن حمدان وإلى فاس من قبل عبيد الله الفاطمي الذي استولى على فاس في العام ذاته . ولا ندري كيف كانت صورة الجامع في ذلك الوقت ، فقد صمت ابن أبي زرع والجزنائي عن ذكر التفاصيل . وأفاد جامع الأندلسيين من النزاع السياسي بين الفاطميين بالقيروان والأمويين بسبته ، ويتجلى هذا النزاع بصورة واضحة في المنبر الذي وصل إلينا من هذا العصر ، وعليه نقشان كتابيان

يسجلان تاريخين مختلفين ولكنها متقاربان . وستتناول هذا المنبر بالدراسة فيما بعد . وفي عام ٣٤٥ للهجرة (٩٥٦ م) زود جامع الأندلسيين ، مثل قرينه جامع القرويين ، بمئذنة مربعة . . . وقد ذكر ابن أبي زرع أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أرسل إلى عامله على فاس ، أبي العباس أحمد بن أبي بكر الزناتي ، مبلغا كبيرا من المال من أخماس غنائم الروم ، وأمره أن ينفقه في بناء مئذنة جامع القرويين . ويضيف الجزنائي إلى ذلك أن عامل فاس ، من قبل عبد الرحمن الناصر ، أقام مئذنة أخرى بجامع الأندلسيين أسوة بجامع القرويين وذلك في جمادى الأولى عام ٣٤٥ هـ (أغسطس ٩٥٦ م) ، وهي المئذنة التي نشاهدها اليوم بالجامع .

ويبدو أن عامل فاس أنفق المال الذي بعث به إليه عبد الرحمن الناصر كله في بناء مئذنة جامع القرويين دون أن يبقى منه جزءا لبناء مئذنة لجامع الأندلسيين ، وأنه اضطر إلى بناء مئذنة جامع الأندلسيين من ماله الخاص . . . وهذا يفسر لنا السبب في أن هذه المئذنة تبدو أقل ثراء من مئذنة القرويين . ولقد زاد هذا الوالي في الجامع زيادة كبيرة يقول صاحب روض القرطاس إن حدودها كانت باقية إلى عهده .

ومن الصعب أن تقطع بطول هذه الزيادة أو بما كانت عليه ، إذ أن جامع الأندلسيين بنى من جديد في عهد الخليفة محمد الناصر بن أبي يوسف يعقوب المنصور . . . إلا أنه يبدو مما كتبه البكري



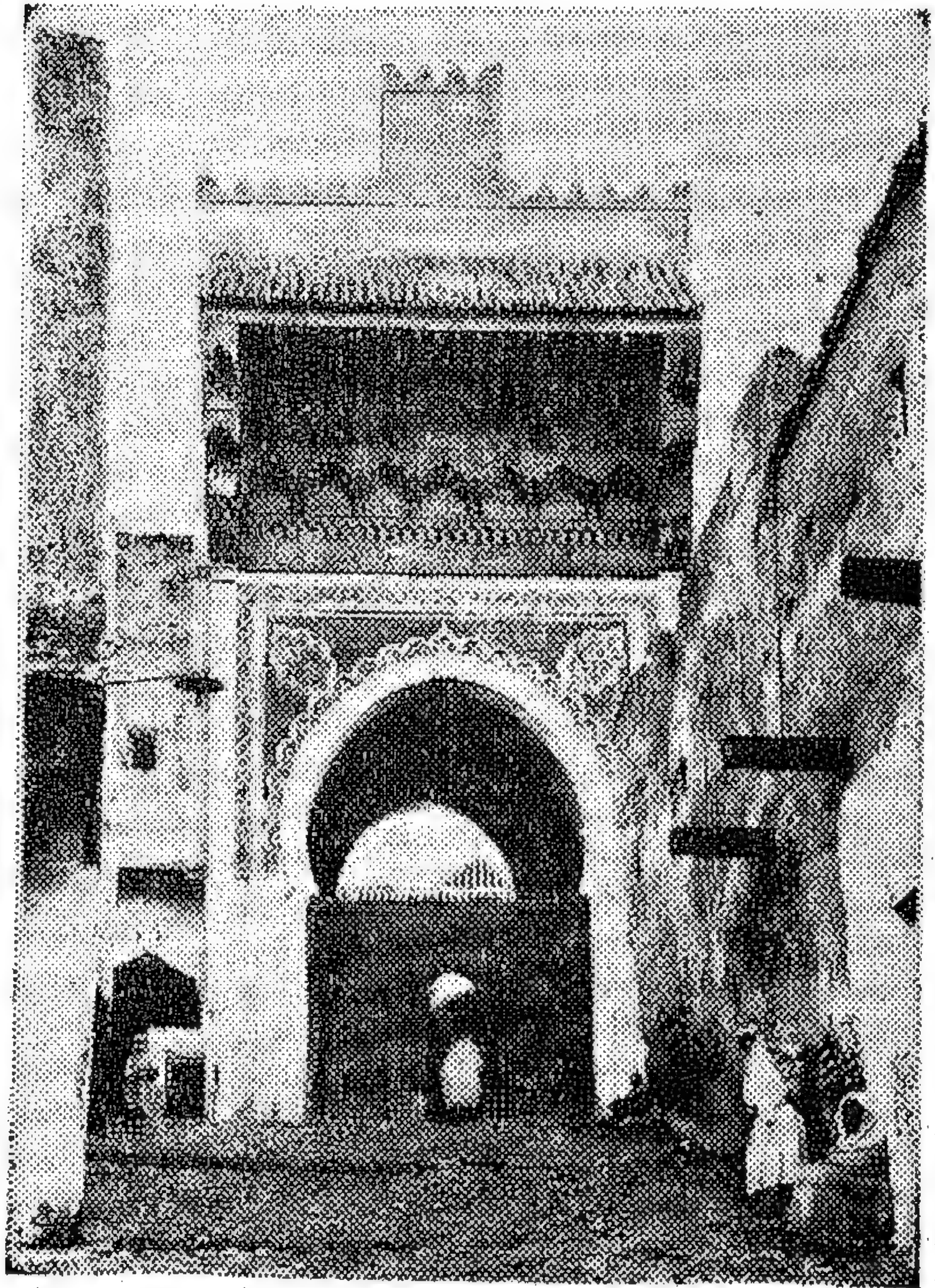
مقود بجامع الأندلسيين بفاس

البكرى أن أعمدة الجامع كانت حجرية ، وهي ظاهرة غريبة ، لأن معظم المساجد الأندلسية والمغربية كانت مغروسة بغابة من الأعمدة الرخامية . وربما أوحى هذا الجامع لأبى يوسف يعقوب المنصور فكرة بناء أعمدة جامع حسن بالرباط بأقراص الحجارة الضخمة . وعلى أى حال فقد استبدلت بهذه الأعمدة الحجرية دعائم من الآجر فى الزيادة الأخيرة التى قام بها الخليفة الموحدى محمد الناصر عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) .

ويذكر الجزنائى أن المسجد ظل على هذه الحالة حتى كانت أيام الخليفة محمد الناصر بن أبى يوسف المنصور ، رابع خلفاء الموحدين ، الذى هزمه القشتاليون فى موقعة العقاب عام ١٢١٢ م . ونستنتج من ذلك أن جامع الأندلسيين لم يتعرض لأى زيادة فى عهد المرابطين الذين أضافوا الى جامع القرويين عام ٥٢٨ هـ (١١٣٣ م) ثلاثة

عام ١٠٦٨ م أن الجامع كان يشتمل على ستة بلاطات تتجه من الشرق الى الغرب ، وأن عقود هذه البلاطات كانت تقوم على أعمدة من الحجر الجيرى ، وأن صحن هذا الجامع كان مغروسا بأشجار الجوز وغيرها ، وأن المياه الجارية كانت تصل اليه بوفرة عن طريق ساقية مصمودة . أما الجزنائى فيذكر سبعة بلاطات بدلا من ستة . وأيا كان عدد بلاطات الجامع ، بعد زيادته فى عام ٩٥٦ م ، فإن الذى لا يقبل الشك هو أن هذه البلاطات كانت تمتد من الشرق الى الغرب موازية لجدار القبلة ، أى أنها كانت مثل نظائرها فى جامع القرويين محاذية لهذا الجدار .

ويمكننا تحديد صحن هذا الجامع الأول بعدوة الأندلسيين بخط يمتد غربى الواجهة القبلىة للمئذنة الحالية ، وكانت تشغل وقتئذ الزاوية الشمالية الشرقية للجامع . ونستنتج مما ذكره



منظر خارجى للباب الجوفى الكبير بجامع الأندلسيين بفاس

بلاطات ، وأكملوا عمارته التي نشاهدتها اليوم .
والواقع أن أمير المرابطين يوسف بن تاشفين كان
يهدف من وراء ذلك إلى هدفين : أولهما أن يفض
المنافسة التقليدية بين هذين الجامعين بانتصاره
لجامع القرويين ، وخاصة أن عدوة القرويين كانت
قد تفوقت عمرا نيا على عدوة الأندلسيين . والهدف
الثاني ، كما يذكره الأستاذ ترأس ، هو أن تعادل
الميزان بين هذين الجامعين كان مضادا لسياسة
المرابطين الدينية القائمة على التوحيد ، وأن
يوسف بن تاشفين بادر من أجل ذلك بهدم الأسوار
التي كانت تفصل بين العدوتين ، وردهما مصرا
واحدا .

وهكذا ينقضى عصر المرابطين دون أن يحظى
جامع الأندلسيين باهتمام أمرائه وحكامه . ويفتح
الخليفة عبد المؤمن بن علي مدينة فاس عام
٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، ويأمر بهدم سورها ، ويفتح
فيه ثلمات كبيرة ، ويختار مدينة مراكش حاضرة
لدولته ، وينقضى الشطر الأعظم من عصر الموحدين
دون أن يعنى أحد من خلفاء الموحدين بهذا
الجامع .

ولما ولي الخلافة محمد الناصر ، زار مدينة
فاس ، وأقام فيها زمنا طويلا ، وتولى في
أثناء إقامته إعادة بناء أسوار المدينة الحالية ، كما
أعاد بناء جامع الأندلسيين بأكمله ، ولم يترك من
الجامع القديم سوى المئذنة الأموية والمنبر ...
وسرى أنه لم يترك هذا المنبر القديم على حالته ،
بل كسا كنفه بجابين جديدين .

يقول ابن أبي زرع في أعمال هذا الخليفة :
« وأما جامع عدوة الأندلس فلم يزل على ما بنى
عليه أولا ، لم يزد فيه أحد زيادة إلى سنة
ستمائة ، فأمر أمير المؤمنين أبو عبد الله الناصر

ببنائه وإصلاحه وتجديده ما تهدم منه ، وأمر بفتح
الباب الكبير الجوفى المدرج الذى بصحنه ، وجعل
بأسفله بيلة من رخام أحمر ، وأمر بعمل السقاية
والميضآت » . ويحدثنا الجزنائي عن هذه الأعمال
بشيء من التفصيل ... فيتحدث طويلا عن الباب
الجوفى الكبير ، وعن البيلة التي أقامها الخليفة
بجوار هذا الباب ، وعن الباب الذى فتحه إلى
مقصورة النساء ، وعن المصرية^(١) التي أقامها أعلى
هذا الباب لأئمة المسجد ، وعن دار الوضوء التي
بناها على الجانب الآخر من الشارع المقابل
للباب الكبير .

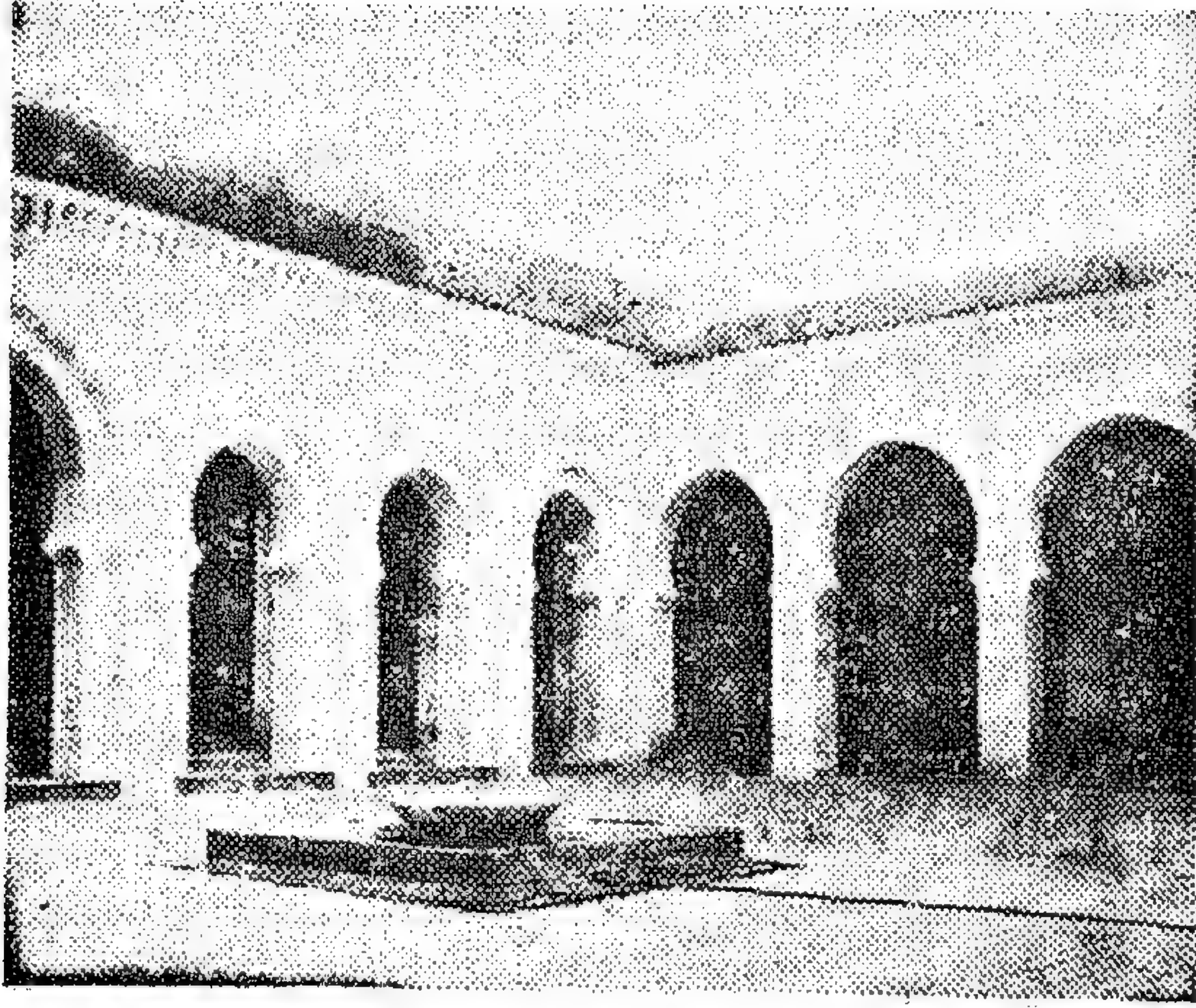
ولكن الجزنائي لم يحدثنا عن تفاصيل ما أجراه
الناصر في بيت الصلاة من تغيير ، ويتساءل ترأس :
« هل نفهم من ذلك أن محمد الناصر احتفظ في
زيادته بالمسجد القديم ؟ إن ذلك لا يستند على
دليل ، بل على العكس من ذلك فإن الجامع الحالي
جامع مبنى بالدعائم وليس بالأعمدة ، وعدد بلاطاته
لا يتفق مع العدد الذى ذكره البكرى . ثم إن بيت
الصلاة الحالي يضم المئذنة الأموية ، ويمتد إلى
ما وراء ذلك نحو الشمال ، ومقصورة النساء التي
ذكرها الجزنائي تقع فيما وراء الحد الشمالي
للمسجد القديم ، واتجاه البناء الحاضر يختلف عن
اتجاه المئذنة الأموية » ... ذلك كله يدل دلالة
قاطعة على أن جامع الأندلسيين بنى من جديد .

ويضيف ترأس سابقة لهذا الجامع ، وهي أن
تاريخ جامع الكتبية بمراكش كشف لنا أن الموحدين
لم يترددوا في هدم جامع الكتبية القديم وبناء جامع
منحرف الاتجاه . والدراسة الأثرية لجامع
الأندلسيين تشير إلى أننا بصدد بناء مماثل لجامع

(١) المصرية : غرفة مطلة على الشارع تقوم في الطابق الأعلى
من أى بناء . وقد تخربت هذه (المصرية الموحدية في مصر متأخر

مرحاضا ، أبوابها معقودة على حنايا منكسرة نصف دائرية ، يعلوها طابق أول من طاقات متعددة معقودة عقودا نصف دائرية ، ثم طابق ثان من طاقات على هيئة عقود منكسرة نصف دائرية ، وما زالت بنيتها تحمل آثار زخرفة جصية . ويبدو أن هذه الطاقات فتحت في أعلى الجدران لتهوئة القاعة .

ومواد البناء التي استخدمت في الجامع فقيرة جدا ... فأغلب جدران الجامع مبنية من الطابية (التراب) . أما الدعائم والعقود وعضادات الأبواب فكلها من الآجر . ويبدو أن بناء الجامع نفسه في عهد الناصر كان غير سليم من الوجهة المعمارية ، فقد تعرضت أسقفه ودعائمه لأضرار كثيرة منذ نهاية القرن الثالث عشر للميلاد . وأثبتت أعمال الترميم

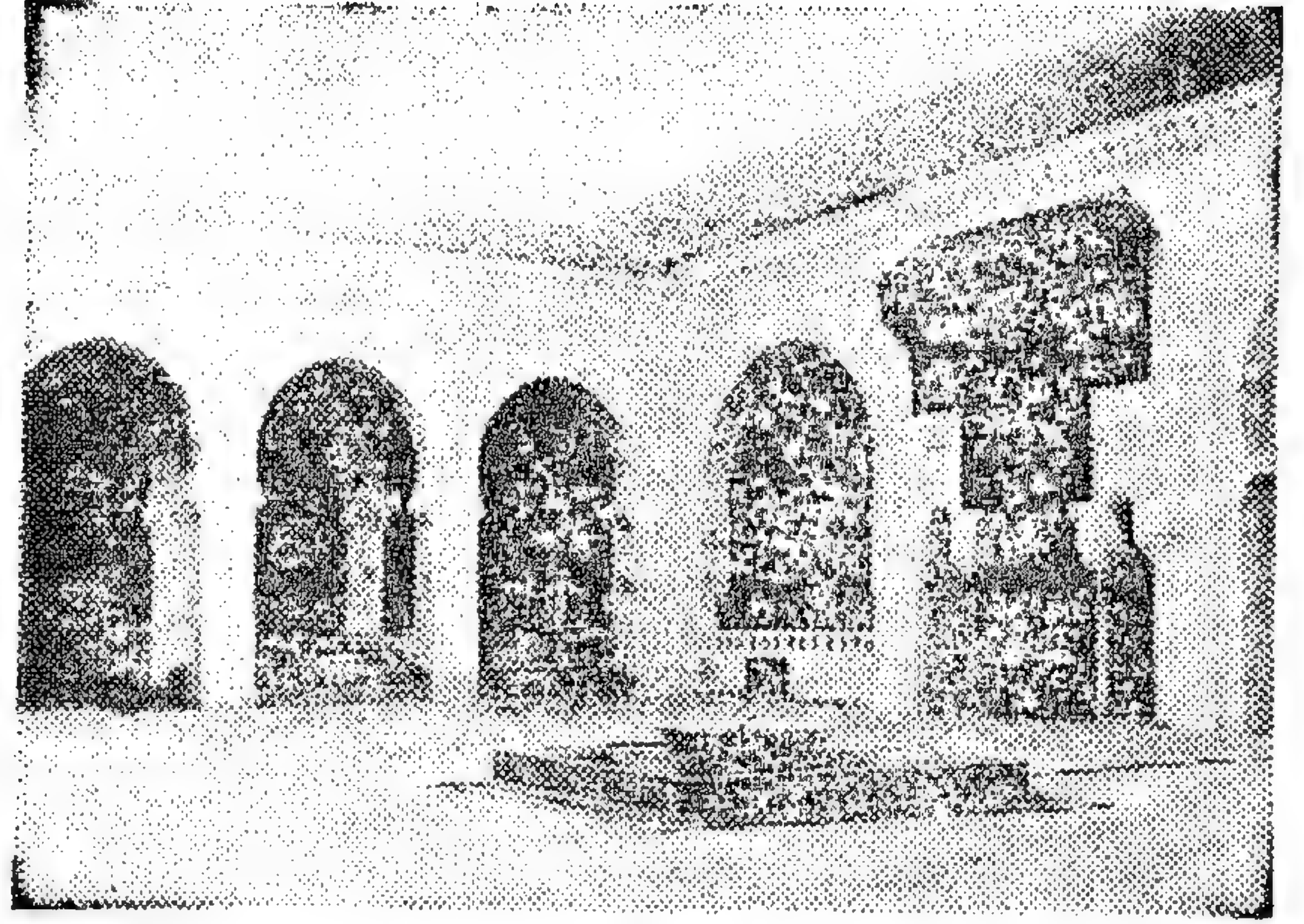


صحن جامع الاندلسيين

التي أجريت بالجامع منذ عهد قريب أن هذا البناء الموحدى كان من نوع ردىء ، ويرجع الفضل في بقاء هذا الجامع الى الأرضية المتناسكة التي حفظته من الاهتزازات ، كما يرجع الى كثرة الإصلاحات التي أجريت به ، والتي تم معظمها في عهد سلاطين بنى مرين^١ .

ولقد قام السلطان أبو ثابت بكثير من أعمال

(١) في عهد السلطان أبي يعقوب يوسف المريني عام ٦٩٥ هـ (١٢٩٦ م) ، وفي عهد السلطان أبي ثابت من بعده .



نافورة جامع الاندلسيين بفاس

الكتيبة ، ثم ان الزمن الذى استغرقه البناء يكفى للاعتقاد بأن المسجد أعيد بناؤه بأكمله^١ ... اذن فجامع الاندلسيين بفاس يرجع كله الى عصر الخليفة الموحدى الرابع محمد الناصر ، باستثناء مئذنته الأموية ، وبعض ملحقاته التي أضيفت في عصر متأخر .

وينبغى أن نشير هنا الى مiazza الجامع التي ورد ذكرها في حديث الجزائى . وتقع هذه المiazza ، أو دار الوضوء ، الى الشمال الشرقى من المسجد ، ويفصلها عنه شارع ضيق مواجه لشماله الشرقى . ويعلو فتحة الباب الخارجى للمiazza عقد متجاوز منكسر مبنى من الآجر ، يحيط به عقد زخرفى بارز ، تتناوب فيه فصوص كبيرة نصف دائرية مع فصوص صغيرة مدبية ، ويحيط بالعقد الزخرفى اطار مستطيل يعد امتدادا للشريط الذى يؤلف الفصوص . وتعلو رأس هذا العقد جامة بارزة تربط العقد بالاطر . أما المiazza من الداخل فتصميمها بسيط للغاية ، فهي قاعة يتوسطها حوض حجرى مستطيل ، ويعلوها سقف على هيئة هيكل مسنم ، وتتوزع في الجدران الأربعة لهذه القاعة ثلاثة عشر

(١) استغرق بناء الجامع اربع سنوات من عام ٦٠٠ الى عام ٦٠٤ للهجرة (١٢٠٣ - ١٢٠٧ م) . وذكر ابن أبى ذرغ تاريخ الشروع في البناء ، أما تاريخ الفراغ منه فمسجل في عنزة الجامع .

الإصلاح والتحسين في هذا المسجد ، فأصلح القناة التي كانت تحمل المياه من ساقية مصمودة ، وأقام البيلة الرائعة التي نشاهدها اليوم الى يمين الباب الجوفي الكبير . وهناك أعمال أخرى ترجع الى سلاطين بنى مرين ، منها الزخارف الجصية الرائعة التي يزدان بها باب المجنبه الشرقية ، ويرجح ترأس أن هذا الباب من بين أعمال السلطان أبى ثابت .

وأضيف في هذا العصر خزانة للكتب تقع الى يسار جدار المحراب مما يلي القبلة ، ونجارة هذه الخزانة بمصراعيها عادية ، ولكن الذى يسترعى الأنظار لوحة عليها نقش كتابى بالخط النسخى تعلو هذه الخزانة . ونستدل من هذا النقش على أن هذه الخزانة أقيمت عام ٨١٦ للهجرة (١٤١٥ م) في عهد السلطان أبى سعيد عثمان الثالث ابن أبى سالم ، أحد سلاطين بنى مرين في عهدهم الأخير . والى يمين المحراب باب يفضى الى جامع الجنائز ، ويقوم على نشز من الأرض أكثر ارتفاعا من مستوى بيت الصلاة .

وتصميم جامع الجنائز غير منتظم على الإطلاق ، وبناءؤه ردىء ، وينقسم الى أربعة بلاطات عرضية تتجه من الشرق الى الغرب ، ويصله بالشارع الشرقى بابان . ولا نجد في هذا الجامع القبة المقرنصة الرائعة ذات الأعمدة الرشيقة التي تعلو جامع الجنائز بالقرويين . وقد أصلحت بيلة الباب الشمالى المطلة على الصحن في عهد الأشراف السعديين ، على يدى مولاي اسماعيل عام ١٠٩٣ للهجرة (١٦٨٢ م) ، وسجل ذلك على افريزها الخشبي بأبيات شعرية نصها ما يلي :

مولاي اسماعيل ألسنى البها

فسحبت ذيلى فوق كل نفيس

زهوى ببيت الله حسبي مفخرا

اذ صرت أجلى فيه جلو عروس

فرفعت فوق السلسيل سرادقا

في عام «يجمل شاهد» تأسيس

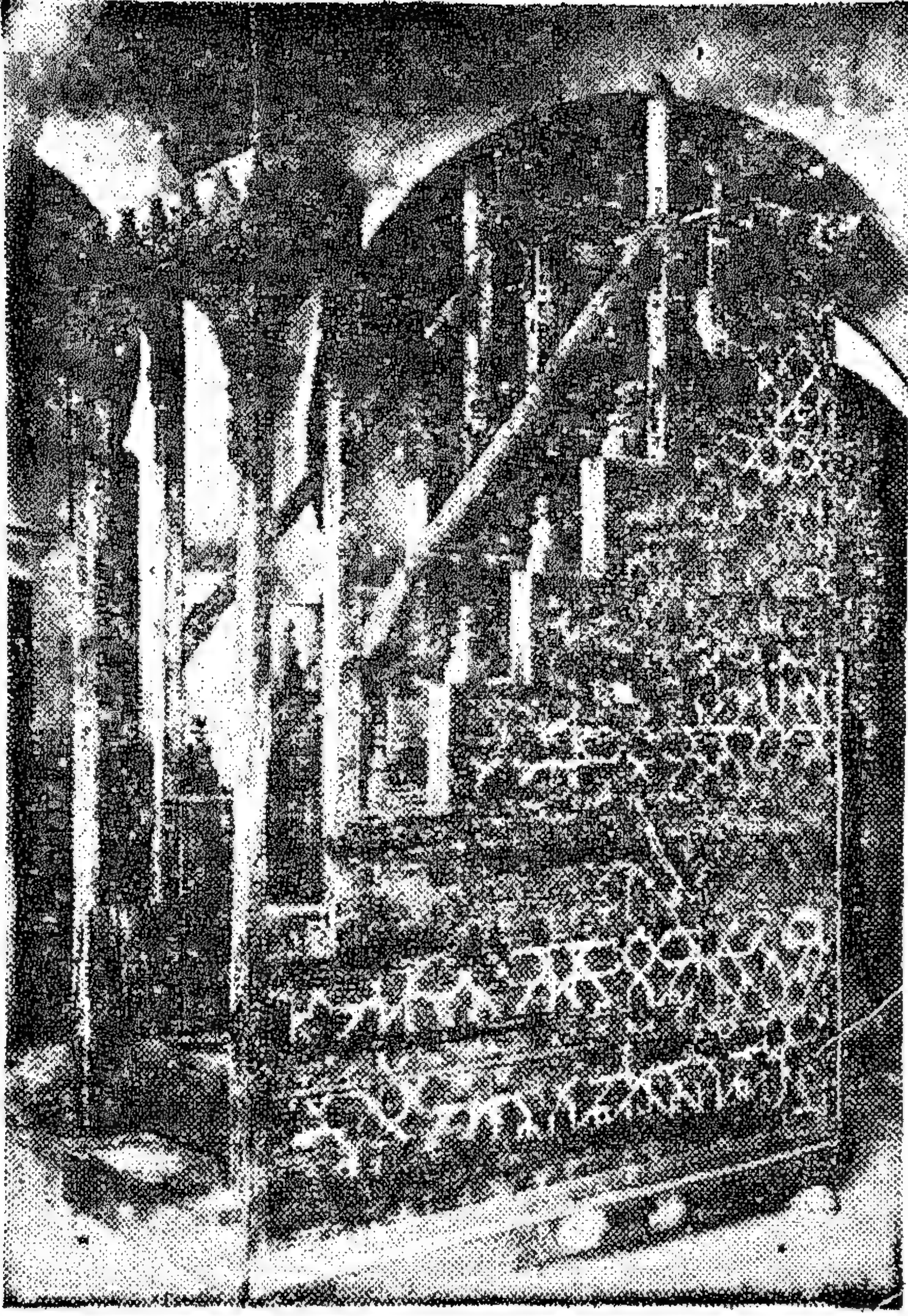
كذلك جدد المحراب بأكمله في القرن الثامن عشر ، وكسى بزخارف جصية ، ولم يبق من المحراب القديم سوى أربعة تيجان نبت منها عقد المحراب القديم .

تخطيط الجامع

يدل تخطيط جامع الأندلسيين على أنه من بناء المرابطين . وان من يرى بلاطات الجامع بعقودها ودعائمها لا يخطر بذهنه قط أنها من بناء الموحدين ... فالتصميم غير متناسق ، والبناء غير منتظم ^١ ، وبلاطات المسجد غير عمودية على جدار القبلة كمساجد الموحدين ، وأسقفه غير متناسقة ، ولا تقوم على بلاطه الأوسط قباب مقرنصة كمساجد الموحدين كلها ... لا شيء يربطه بهذه المساجد الا نسبة الصحن بالنسبة لمسطح بيت الصلاة ، فانها تخضع الى حد ما للقاعدة التي تسير عليها مساجد الموحدين بمراكش وتنمال .

ويتألف بيت الصلاة من سبعة بلاطات عرضية ، تمتد من الشرق الى الغرب على خمسة عشر عقدا في كل بلاط . ويحترق هذه البلاطات جميعا بلاط أوسط مثلها ارتفاعا وأكثر منها اتساعا ، بعكس البلاط الأوسط بجامع القرويين الذى يعوق سائر بلاطات الجامع اتساعا وارتفاعا . ويتجه هذا البلاط اتجاها عموديا على جدار القبلة ، ويميزه من الخارج سقف يختلف عن بقية أسقف بيت الصلاة التي تتبع الاتجاه العام في موازاة جدار القبلة : اذ يعلوه فوق البلاطات الثلاثة

(١) ذلك لان المسجد اقيم على قطعة من الارض غير منتظمة ، فجاء بناؤه غير منتظم ، واملت الشوارع المحيطة بالمسجد نظامه الشاذ .



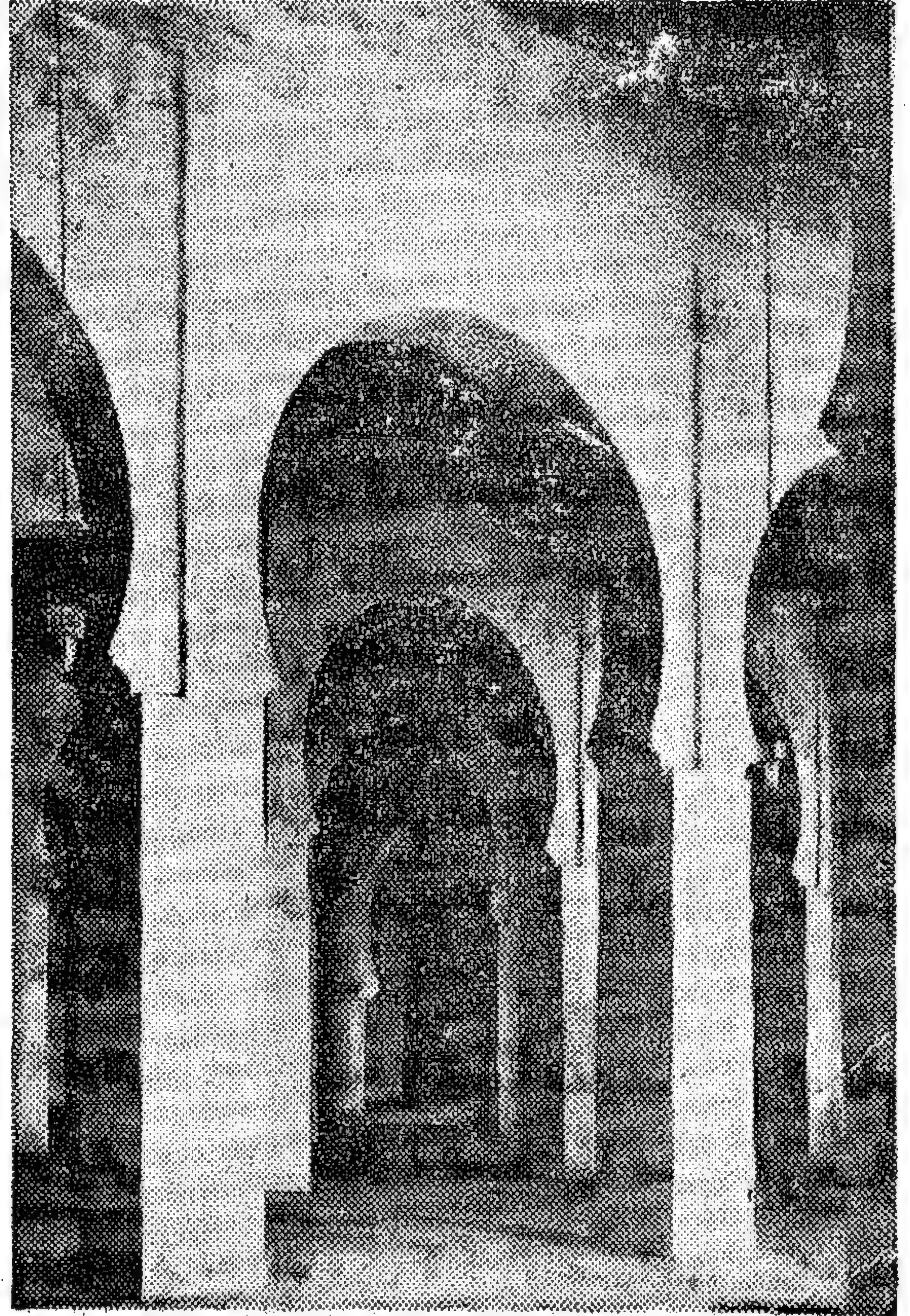
المنبر الموحدي بجامع الاندلسيين

وعلى الرغم من انعدام روح التناسق في تخطيط الجامع ، فانه لا يخلو من أصالة معمارية تتجلى بأوضح صورة في الباب الشمالي الكبير القائم في منتصف الجدار الشمالي للجامع ، وهو باب فتحه الخليفة الموحدي محمد الناصر . ويشف بناء هذا الباب عن براعة في الهندسة وحذق في الزخرفة ، اذ يفوق في ارتفاعه أسقف الجامع ، ويطل على منظر خارجي آية في الروعة والجمال .

وقد نجح مهندس هذا الباب في الجمع بين العمارة والمنظر الطبيعي ، وهي الخطة التي اتبعها مهندسو قصر الحمراء ، ونجحوا في تطبيقها على قصور بني نصر كلها . ويبدو هذا الباب من عدوة القرويين كفوس نصر فخيم ، فتضاءل بجانبه

الأخيرة من جهة المحراب ، والبلاط الأول من جهة الصحن ، هياكل خشبية تبدو من الخارج كالقباب . ويعاوه فوق البلاط العرضي الرابع « برجلة » ، أي سقف منشوري الشكل ، مستقل عن الأسقف التي تعلو بقية أجزاء هذا البلاط الرابع . وتتجه أسقف مجنبتى الصحن الشرقية والغربية اتجاهها عموديا على جدار القبلة ، وتتجه في المجنبة الشمالية اتجاه بلاطات بيت الصلاة .

ولقد اتبع جامع الأندلسيين نظام جامع القرويين وهو النظام الذي ساد في المساجد الفاسية في العصور التالية ، وعلى الأخص في عصر بني مرين وعصر الأشراف العلويين ... فبينما كانت المساجد المرينية الكبرى تنحو نحو النظام القرطبي ، كانت مساجدهم الصغرى تتبع نظام جامعي القرويين والأندلسيين .



منظر جانبي لاروقة جامع الاندلسيين

مئذنة الجامع مع ارتفاعها عنه . كذلك أثر هذا الباب الكبير في أبواب مساجد بنى مرين ، فرى له مثيلا في مسجدى سيدى الحلوى وسيدى بو مدين بتلمسان ، كما قلد نظام وضع بيلتين على جانبي هذا الباب من الداخل في مساجد بنى مرين جميعها .

بيت الصلاة

لا يحدد البلاط الأوسط في داخل بيت الصلاة سوى صفين من العقود التى تتجه اتجاهها عموديا على جدار القبلة . ومعظم صفوف العقود ببلاطات الجامع الأخرى لا تتعامد مع الجدران الشرقية والغربية لبيت الصلاة ، وإنما تصل إليها منحرفة ، لأن هذه الجدران تخضع لتخطيط الشوارع المحيطة بالجامع من هاتين الجهتين . وينفتح في الجدار الشرقى لبيت الصلاة بابان ، ويضطر الداخل اليه من الباب الجنوبى منهما الى صعود عدة درجات لارتفاع مستوى الأرض في هذه المنطقة . وتضىء الجانبين الشرقى والغربى من بيت الصلاة نوافذ مستطيلة توزيعها غير منتظم .

وعقود بيت الصلاة كلها متجاوزة منكسرة ، ما عدا عقود البلاط الأوسط فمتجاوزة على هيئة حدوة الفرس . وتتميز العقود المنكسرة في بلاطات الجامع بأن رءوسها مخففة بانحناء خفيفة تجعلها تبدو كما لو كانت عقودا ذات خمسة مراكز . وكان هذا الطراز من العقود مقدمة للعقود المربنية والنصرية . وتتكىء هذه العقود على مناكب بسيطة تتوج دعائم أكثر ارتفاعا من العقود ، وتحيط العقود طرر مستطيلة بارزة . أما العقود المتجاوزة بالبلاط الأوسط فأكثر تجاوزا من عقود جامع قرطبة ، لأنها عقود ذات ثلاثة مراكز ، وتتكىء على دعائم قطاعها يشبه زهرة ذات أربع

ورقات نصف دائرية ، وهو طراز من الدعائم كان شائعا في العمائر المسيحية بإسبانيا .

وليس معنى هذا أن بناء هذه العقود قد تأثروا بالعمائر المسيحية ، وإنما استعاضوا بهذه الدعائم عن الأعمدة الحجرية التى كانت مفروشة في بيت الصلاة قبل زيادة محمد الناصر عام ٦٠٠ للهجرة (١٢٠٣ م) . وكان لابد أن يقيموا على جانبى البلاط الأوسط صفين من الدعائم المصلبة لتتلقى العقود من كافة الجهات . ويبدو أنهم أضافوا الى أذرع هذه الدعائم المصلبة أنصاف دوائر من الحجارة المتراكبة التى كانت تؤلف أعمدة المسجد القديم ، رغبة في التبرك بها في مسجدهم .

أما أسقف بيت الصلاة فمن القراميد غير المزججة ، ويبدو من تعدد أنواعها أنها جددت عدة مرات . أما المحراب فأكثر أجزاء المسجد تنميكا وزخرفة . ولقد أعيدت زخرفة هذا الجامع كما ذكرنا عند الكلام عن تاريخ بناء الجامع .

صحن الجامع

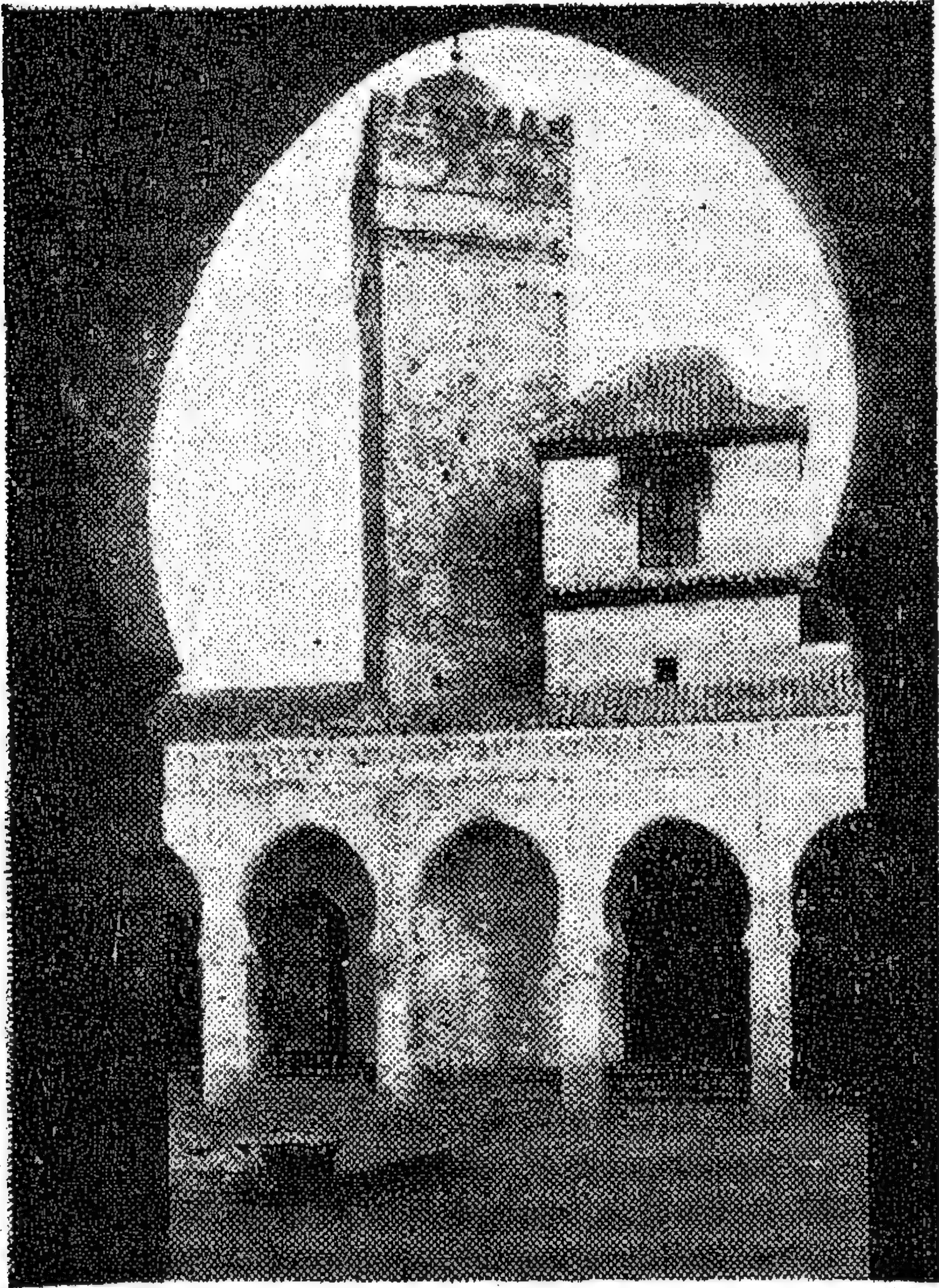
صحن الجامع شبه منحرف . وتطل عليه من جهة الجنوب واجهة بيت الصلاة بعقودها السبعة المزدوجة ، في حين أن العقود المطلة عليه من الجهة الشرقية والغربية والشمالية مفردة . وينفتح في الجدار الشمالى للجامع باب^١ تكتنفه على اليمين وعلى اليسار بيلتان تطلان على الصحن . وأرضية الصحن ودرجات السلم الذى يفضى اليه من الباب الكبير مرصوفة بتريعات من الزليجى صنعت حديثا .

وتتوسط الصحن خصة مفصصة من الرخام الأبيض رائعة الجمال ، تحيط بها فسقية مربعة

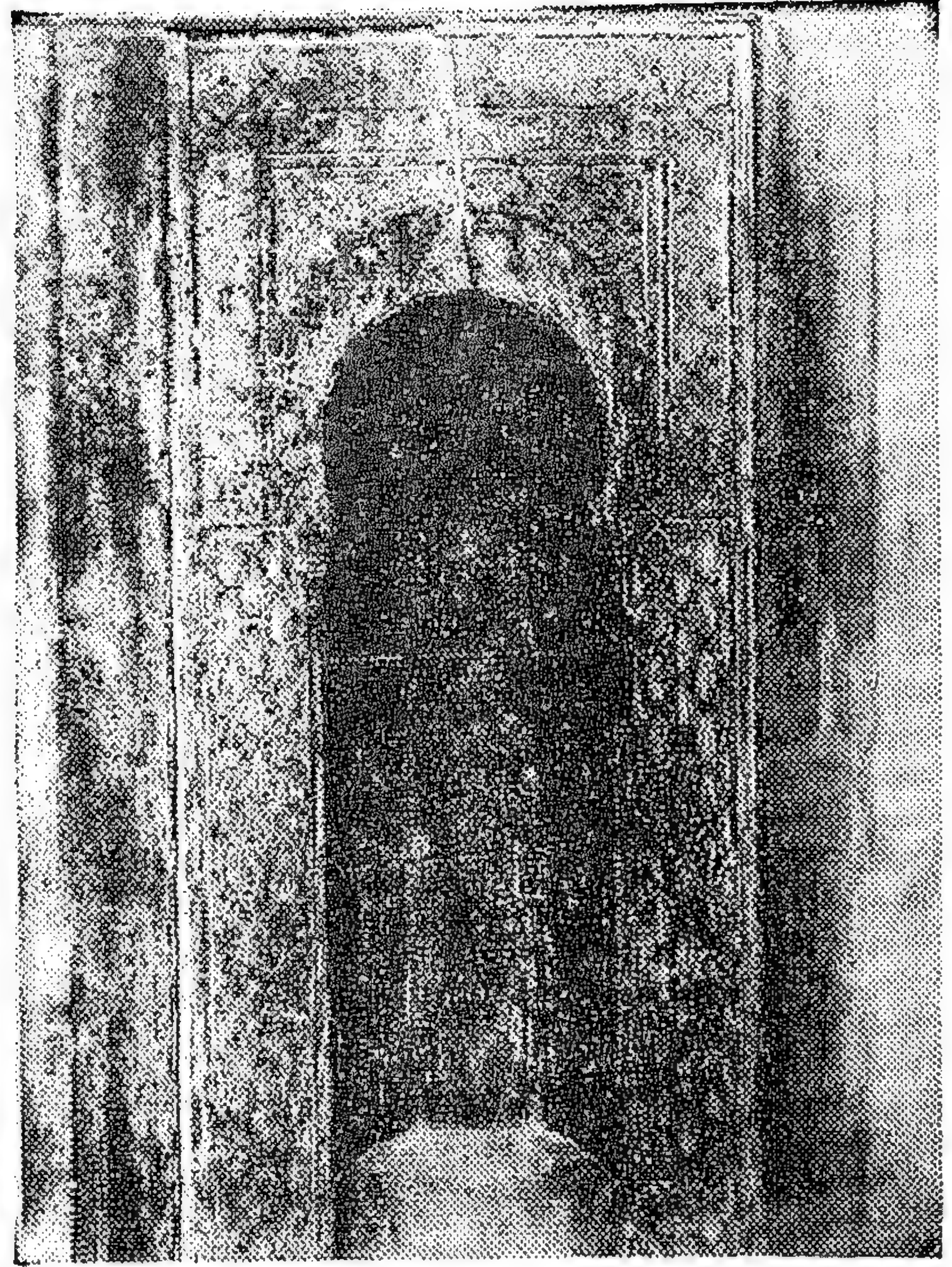
(١) يبدو هذا الباب من الخارج في صورة رائعة ، وزخارفه من عهد الاشراف العلويين ، أما ظننه فقد جددت في بداية عصر الحماية .

المئذنة . وتنتهى هذه الجدران من أعلى بجدار عريض بارز عن جدارها الأدنى ، يتكئ على شريط حافته مائلة (نازلة) . ويحدد مستوى سطح المئذنة شريط رفيع من الآجر يمتد أفقياً في الجدارين الغربى والشمالى للمئذنة بين الشريط المائل وشرفات المئذنة ، وتستند هذه الشرفات التى تشبه أسنة المنشار على شريط مماثل ينتهى به جدار السطح . وتشبه هذه المئذنة نظيرتها بجامع القرويين .

وتتوسط المئذنة من الداخل دعامة مركزية صماء مربعة ، يدور حولها سلم تعلوه قبوات نصف أسطوانية . وتتألف عند تقاطع هذه القبوات في كل دورة قبوة متقاطعة من نوع ردىء . ويعلو سطح المئذنة بناء مستدير قليل الارتفاع ، أقيمت عليه قبة نصف كروية . ويتمثل في هذه المئذنة نوعان من التأثيرات : تأثيرات أندلسية بحكم خضوع فاس في هذه الفترة لنفوذ بنى أمية ،



مئذنة الصحن والمئذنة بجامع الاندلسيين



عنزة جامع الاندلسيين بفاس

مزينة بالفسيفساء ، وتدور حول هذه القسقية قناة رفيعة . وتندمج المئذنة في المئذنة الشمالية الغربية المطللة على الصحن ، وعقود مجنبتات الصحن غير متساوية الاتساع والارتفاع . ويتوسط واجهة المئذنة الشمالية عقد خشبي كبير يرتكز على عمودين من الرخام ، ويحيط بهذا العقد الكبير عقدان صغيران يستند كل منهما على عمودين من الرخام كذلك . وفوق العقود الثلاثة عتب خشبي منقوش يحمل ظلة خشبية قائمة على كوابيل خشبية . ويسود المجموع طابع أندلسي خالص . أما المئذنة فهي الأثر الأموي الوحيد في عمارة الجامع ، ولم يطرأ عليها أى تغيير منذ بنائها عام ٩٥٦ م . ولقد بنيت هذه المئذنة من قطع الحجارة غير المهذبة (دبش) ، وكسيت جدرانها بملاط رمادي اللون . والمئذنة من الخارج على هيئة برج مربع القاعدة أوجهه ملساء ، وتتوزع في جدرانها فتحات ضيقة يتسرب منها ضوء شاحب الى داخل

وتأثيرات تونسية بسبب تغلغل الغزو الفاطمي في شمال المغرب ، واستيلائهم على فاس فترة من الوقت .

زخارف الجامع

يشتمل الجامع على عدد من التيجان القديمة ترجع الى عصر الموحدين : أربعة منها تحمل عقد المحراب ، ويزين جزءها الأدنى « السلة » صف دائري من أوراق الأكنش ، اطرافها العليا شديدة الانحناء ، تجثم فوقها قرمة تشبه المكعب ، وتتألف زخارف هذه القرمة من مراوح نحيلية ملساء ذات توريقات بارزة ولاشك أن هذه التيجان ترجع الى عهد محمد الناصر ، وتمثل طابعا وسطا بين تيجان القرن الثاني عشر وتيجان بنى مرين .

أما تاجا الباب الجوفي الكبير الخارجيان فأقدم من التيجان السابقة ، وسلتاها رشيقتان مزخرفتان بأوراق الأكنش الملساء في أطرافها لفائف حلزونية بارزة بروزا خفيفا . ويرتكز العقد الأوسط لليلة المطلة على الصحن على تاجين يتألف كل منهما من سلة مشننة تكسو أوجهها الثمانية توريقات تختلط في بعضها كتابات كوفية . ويعلو السلة صف دائري من العقود ، أما القرمة فتكسوها مقرنصات تتدرج في الاتساع كلما ارتفعت .

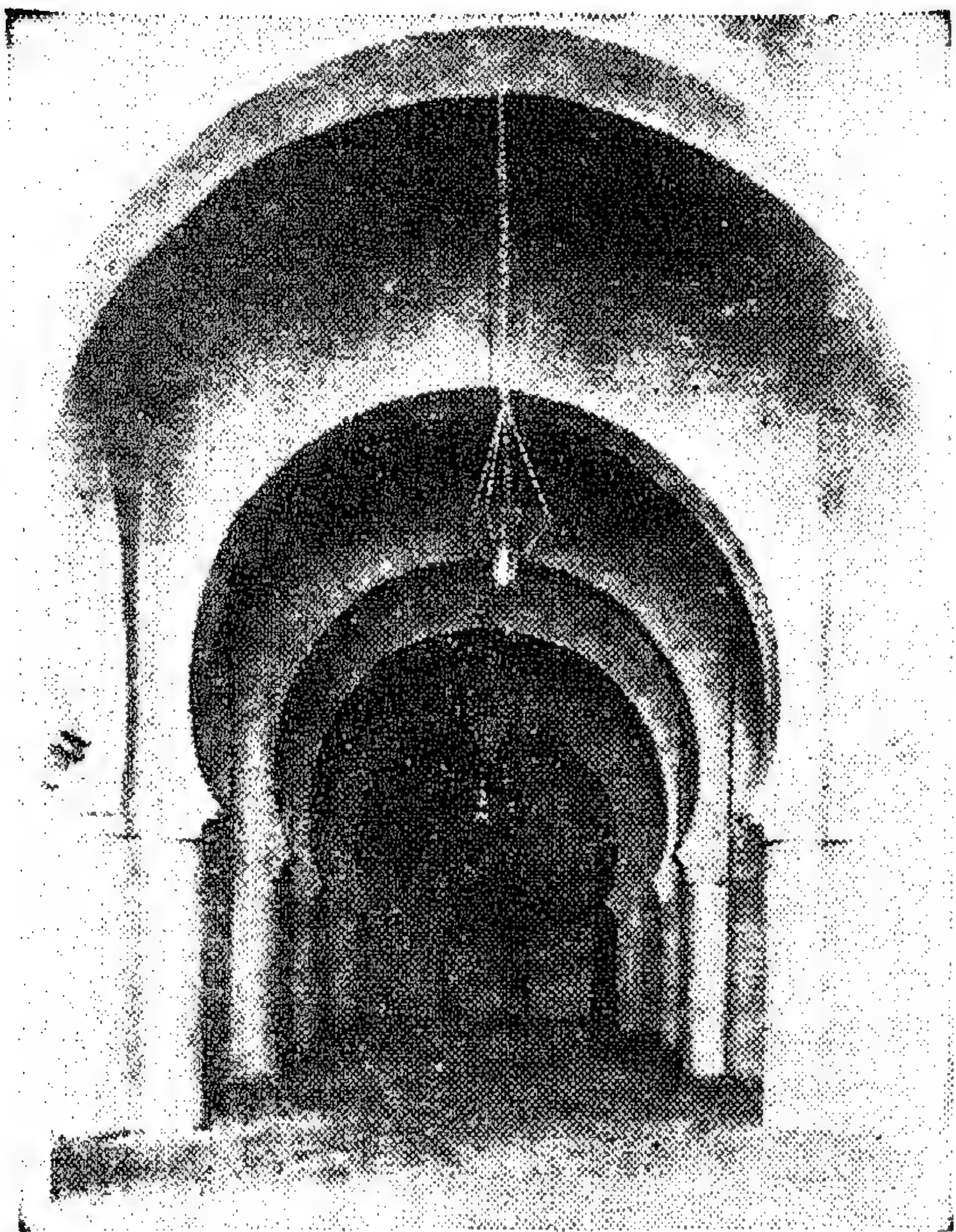
أما الزخرفة المعمارية للجامع فهي فقيرة في مجموعها ، ومعظم عقود الجامع عار من الزخرفة ، مما يدل على أن بنى مرين عنوا بجامع القسرويين أكثر من عنايتهم بجامع الأندلسيين ... لذلك نقتصر في دراستنا لزخرفة الجامع على زخرفة العنزة والمنبر والثريات البرنزية .

وزخارف العنزة بجوفتها واطارها هي أقدم أمثلة الزخرفة المحفورة في الحشب بالجامع ، إذ

يرجع تاريخها الى عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) . ونقرأ هذا التاريخ منقوشا بالعنزة في العبارة الآتية : « وكان الفراغ منها في شهر محرم عام ستة وستمائة » ولقد أصيب هذا المحراب الخشبي بأضرار جسيمة نتيجة لدهانه بطبقة سميكة من طلاء أخضر اللون . ويقوم عقد العنزة على عمودين رشيقين نحتا في الخشب ، والعقد متجاوز يشبه حدوة الفرس ، ويحيط به عقد زخرفي متجاوز منكسر ، يتألف من أقواس متصلة بارزة ، وتغطي بنيقتى العقد مراوح نحيلية ذات توريقات دقيقة ، ويلتف حول العقد وبنيقتيه اطار مستطيل ، ويشغل عضادتي هذه العنزة شبكة زخرفية من معينات تمثل زهرة الزنبق .

وزخرفة جوفة العنزة نفسها رائعة في تكوينها ، فالجزء الأعلى منها تغطيه قبة مفصصة تنتهي فصوصها عند مسنوى مركز عقد المحراب . ويزدان جدار الجوفة ، أدنى هذه القبة مباشرة ، بعقود مفصصة جميلة ، وتذكرنا هذه الزخارف بزخارف جامعي تنمال والكتيبة بمراكش .

وكان المنبر القديم للجامع يتكون من ست درجات ، ويكتنفه من الجانبين كتفان خشبيان منقوشان في حشوات أفقية ، ويتمثل في العقد الأمامي وكتفى المنبر جميع خصائص الزخرفة الأندلسية المغربية في القرن الثالث عشر ، لذلك ننسبها الى عصر محمد الناصر في الوقت الذي أعاد فيه بناء الجامع (١٢٠٣ - ١٢٠٧ م) . ولكن لهذا الجزء الذي نسبناه الى عصر الموحدين ظهر خشبي أسلوب زخارفه يختلف كل الاختلاف عن بقية زخارف الكتفين وعقد المدخل ، مما يجعلنا نقطع بأنها من عصر آخر . ومن أسلوب هذه الزخرفة ، التي تبدو متأثرة بالزخارف العباسية بسامرا والطولونية بالقطائع ، يتضح لنا أنها من عمل الصنهاجيين أتباع الفاطميين .



البلاط الأوسط بجامع الأندلسيين بفاس

الظاهرة : منبر واحد يحمل تاريخين متقاربين ؟
ولقد شرح الأستاذ تراس في كتابه « جامع الأندلسيين » هذه الظاهرة شرحا وافيا ، نلخصه فيما يلي : كانت الجيوش الفاطمية تغير على المغرب الأوسط والغربي غارات متعددة منذ عام ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) ، وتعرضت مدينة فاس مرات كثيرة لهذه الغارات ، وأدى ذلك إلى استيلاء الفاطميين عليها ، فعهدوا بولايتها إلى أحد عمالهم ، في حين خضعت أجزاء من شمال المغرب للأدراسة . ثم تعرض الفاطميون لعدوين جديدين : الزناتيين الذين يمتلكون المغرب الأوسط ، والأمويين الذين استولوا على مليلة وسبتة وطنجة ، وتحالفوا مع الزناتيين ضد الفاطميين ، ثم أصبح الأمويون حماة للزناتيين في الوقت الذي اشتد فيه خطر بلكين بن زيري الصنهاجي ، أكبر أتباع الفاطميين في بلاد المغرب .

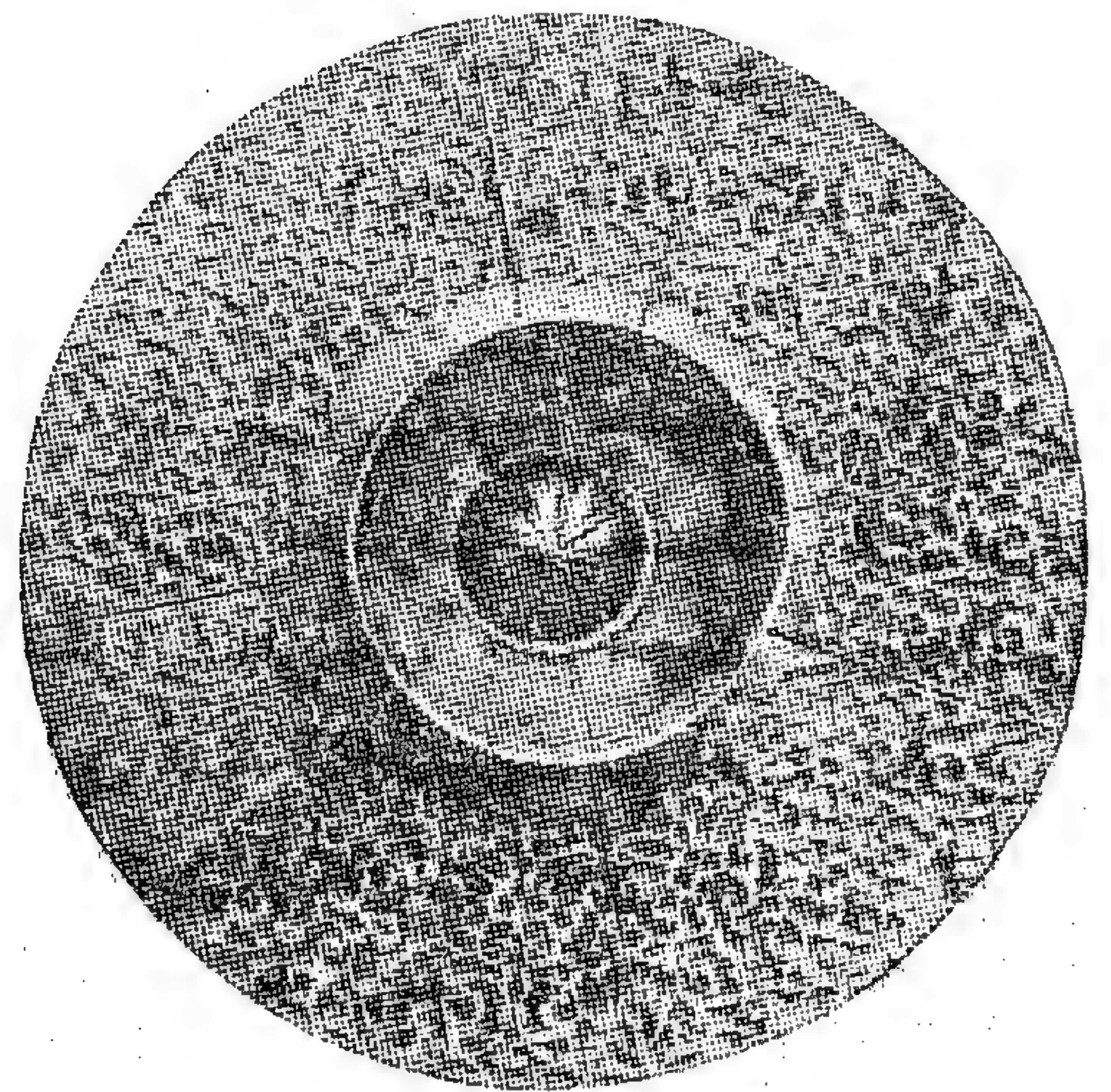
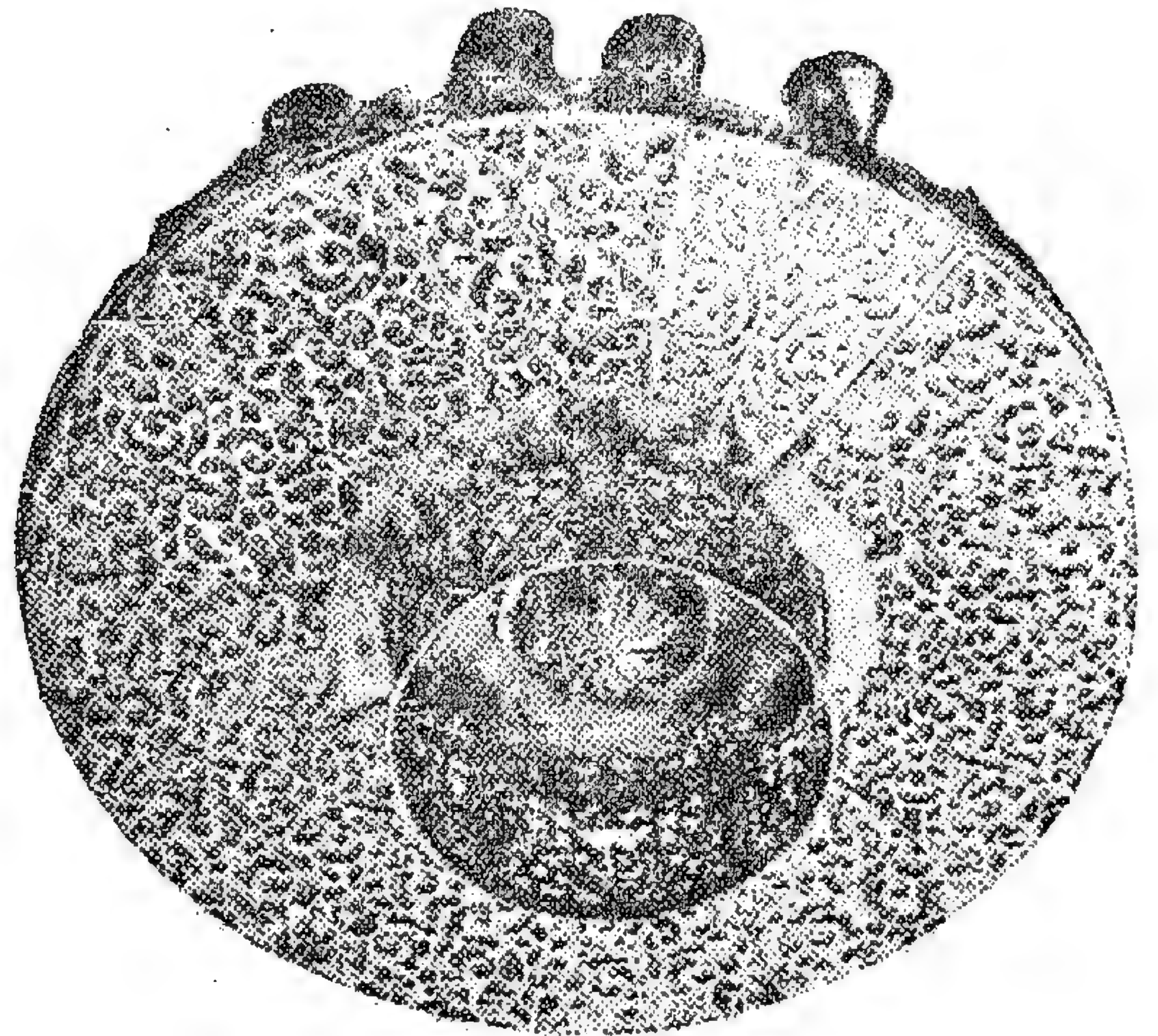
وبدأ الصراع الحقيقي عامي ٣٦٨ ، ٣٦٩ هـ ...

ومع ما أصاب النقش الكتابي الذي يدور بأعلى الظهر من تشويه ، أمكننا قراءة اسم المنصور محمد ابن أبي عامر ، حاجب الخليفة هشام المؤيد بالله . وقد أدهش ذلك رجال الآثار فأجروا الفحص في هذا المنبر ، وقاموا بمجسات في كتفيه اللذين نسبناهما إلى عصر الموحدين ، فثبت أن هذين الكتفين كانا يكسوان كتفى المنبر القديم الذي يرجع إلى القرن العاشر الميلادي فاستخرجوا كتفى المنبر الموحدى ، وركبوهما في منبر حديث صنع خصيصا لذلك ، فأصبح هنالك منبران : المنبر الموحدى بكتفيه وعقده ، والمنبر القديم بكتفيه وظهره .

ويحمل المنبر القديم نقشين من الكتابة الكوفية : أحدهما بالظهر نقرا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أمر بعمله الحاجب المنصور ، سيف دولة الامام عبد الله هشام المؤيد بالله ، أطل الله بقاءه ، أبو عامر محمد بن أبي عامر — وفقه الله — في شهر جمادى الآخرة سنة خمس ... وثلاث مائة » . ويرجح أن هذا التاريخ الناقص هو ٣٧٥ للهجرة .

ولم تنته المفاجآت في هذا المنبر إلى هذا الحد ، فقد عثر على نقشين آخرين من الكتابة الكوفية في حشوتين زخرفيتين بأعلى كتفى هذا المنبر نفسه . نص النقش الأول : « بسم الله الرحمن الرحيم . في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال » . ونص النقش الثانى : « بسم الله الرحمن الرحيم . عمل هذا المنبر في شهر شوال سنة تسعة وستين وثلاث مائة من التاريخ » . إذن فهذا المنبر القديم يحمل تاريخين مختلفين . فكأن كتفى المنبر صنعا عام ٣٦٩ هـ ، في حين صنع ظهره عام ٣٧٥ هـ . فكيف يمكننا التوفيق بين هذين التاريخين ؟ وكيف يمكن تفسير هذه

ففى عام ٣٦٤ هـ (٩٧٦ م) أحس الأمويون ضرورة مؤازرة حلفائهم الزناتيين الذين قاسوا من حملتى بلكين عامى ٩٧٠ ، ٩٧٢ م . وسجلت حملة القائد الأندلسى غالب تفوق الأندلس السياسى على هذا الجزء الشمالى من المغرب ، كما سجلت بداية عهد من النشاط السياسى استمر حتى نهاية هذا القرن . ولكن رد الفعل الصنهاجى قضى مدة سنين على هذا النجاح الأموى . ففى عام ٣٦٨ هـ (٩٨٠ م) دخل بلكين الصنهاجى فاس ، وقتل عاملها ، وظل مسيطرا على هذه المنطقة من بلاد المغرب حتى عام ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) ... اذن فالمنبر الذى يحمل



قرص احدى ثريات جامع الاندلسيين

تاريخ عام ٣٦٩ هـ (٩٨٠ م) منبر صنهاجى أو فاطمى .

وفى عام ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) اضطر ابن أبى عامر الى التدخل أمام محاولة صنهاجية لغزو سبتة . فأرسل الى المغرب جيشا أندلسيا استعداد به فاس فى هذا العام . ومن هنا نقرأ النقش الكتابى الأموى على ظهر المنبر نفسه ولعل والى فاس من قبل المنصور رأى أن يقتصد فى الاتفاق على منبر آخر ، فقنع بالنقش على ظهر المنبر الصنهاجى نفسه ، مسجلا تفوق الأمويين سياسيا على الفاطميين .

فلما جاء محمد الناصر عام ٦٠٠ هـ ، وعابن الحالة السيئة التى وصل اليها هذا المنبر عامة ، وكتفاه بوجه خاص — لأن هذين الكتفين أصيبا بأضرار بعد استرجاع الأمويين لفاس — قرر أن يصنع منبرا آخر . ولكنه تأثر بالروح الاقتصادية السائدة ، فاكتفى بعمل كتفين جديدين كسا بهما الكتفين المتآكلين ، وزود المنبر بعقد أمامى على النجو المتبع فى المناير الموحدة ... ويمضى نراى بعد ذلك فى وصف التفصيلات الزخرفية لكل من حشوات هذه المناير الثلاثة .

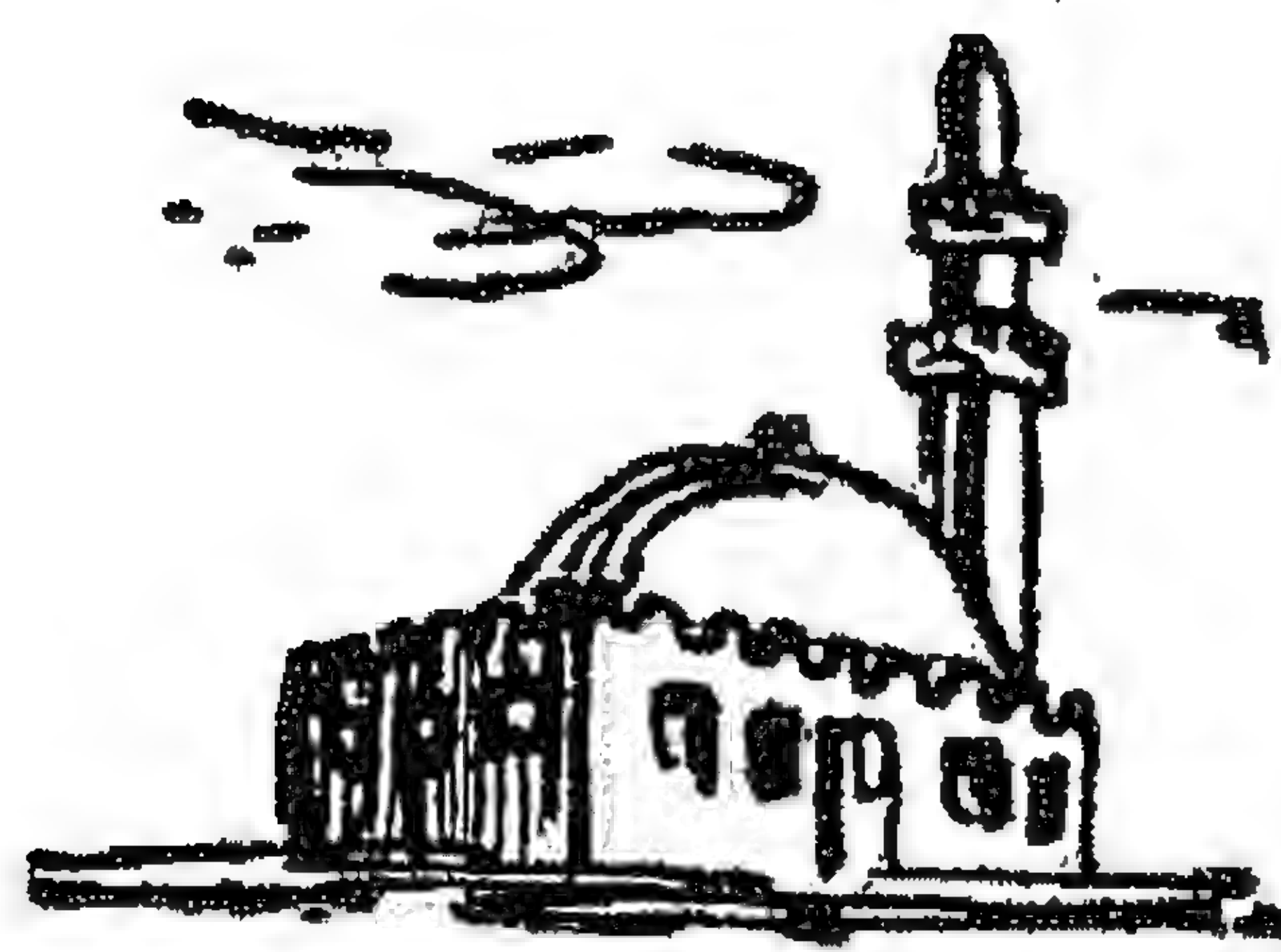
أما الثريات البرنزىة الباقية فى الجامع فلا تعدو أربعا يزدان بها البلاط الأوسط . وقد أصيبت هذه الثريات بأضرار جسيمة ، وجددت قواعدها وأقراصها المستديرة ، وزودت بكتوس حاملة للمصاييح فى عصور مختلفة .

وأقدم هذه الثريات واحدة عُلقت فى سفود ، وركبت به كرتان من البرنز عاريتان من الزخرفة ، بينهما كرة ثلاثة حُفرت عليها خطوط متموجة . وبدن الثريا شبه مخروط ، رأسه من أعلى وقاعدته من أسفل ، ويزدان رأسه بزخرفة نباتية مجرمة ، أما قاعدته فقرص يحمل الأكاليل ، تدور به من

تخريما دقيقا تبدو فيه فروع الأوراق كالخيوط
الدقيقة الملفوفة ، تتفرع منها الأوراق تفرعات
بديعة رائعة : متوجة أطرافها حينا ، ومفروقة الى
وريقتين متنافرين حينا آخر . وتكسو الوجه
الأدنى من هذا القرص توريقات بارزة على
أرضية صماء ، وتتألف التوريقات من أوراق
نخيلية تخرج منها سيقان ملتفة لفائف دقيقة ،
آية في الأناقة والروعة . والقرص الثانى يماثل
هذا القرص فى كثير من زخارفه ، وإن كان يتميز
عنه بأن قاعدته مستديرة جوانبها مخرمة على
شكل توريقات . وترجع هذه الشرا الى القرن
الخامس عشر . أما الشرا الرابعة فتراجع الى القرن
السابع عشر ، وإن كانت تتبع الأسلوب القديم
ذاته .

أعلاه شرفات مسننة ، فى حين زين وجهه الأسفل
بتوريقات رائعة مزدحمة ، يقسمها اثنا عشر
شريطا نحاسيا بارزا أقساما مماثلة فى العدد .
وتذكرنا التوريقات النباتية بتوريقات جامع
تنمال ، وبالزخارف المزدحمة التى يزخر بها باب
قصة أودية بالرباط . ولهذه الشرا قاعدة مسدسة
بداخلها قبة مفصصة . ومن زخارفها القديمة يمكن
ارجاع تاريخ هذه الشرا الى عصر الناصر رابع
خلفاء الموحدين .

أما الشريتان الثانية والثالثة فتجعان الى عصر
بنى مرين ، وتتميزان بقرصيهما الجميلين ، وقاعدة
احدهما سداسية حفرت فى وسطها قبية صغيرة
مفصصة ، تحيط بها توريقات نخيلية مخرمة



مدارس فاس

تعريف المدرسة وذكر المعاهد العلمية السابقة عليها

المدرسة مؤسسة يأوى اليها الطلبة لتلقى العلوم الدينية والفقه ، ويتولى التدريس لهم فيها كبار العلماء والمحدثين . والمدارس مما حدث في الاسلام ، ولم تكن تعرف في العصر الاسلامى الأول ، ولكنها ظهرت أول ما ظهرت في خراسان ، حوالى عام ٣٩٠ للهجرة (١٠٠٠ م) . وأول من أثر عنهم بناء المدارس في الاسلام أهل نيسابور . ثم امتد مجال انتشار المدارس الى بغداد حوالى عام ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ م) ، فأسس الوزير السلجوقى العظيم نظام الملك المدرسة النظامية ببغداد . وفى عام ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) ، أقيمت أول مدرسة في دمشق . ومنها انتقلت فكرة بنائها الى مصر على يدى صلاح الدين ، وذلك منذ ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) . ثم ظهرت في شمال افريقيا بعد ذلك بما يقرب من قرن . ولكى نفهم المقصود بالمدرسة ينبغى أن نلم بببذة عن المعاهد العلمية التى مهدت لظهور المدارس .

يعد المأمون العباسى أول من أقام معهدا للعلم في بغداد ، سماه بيت الحكمة (١٩٨ هـ) ، على غرار جامعة جنديسابور . كذلك أقام المعتضد بالله ، أبو العباس أحمد بن الموفق بالله أبى أحمد طلحة ، دورا ومساكن ومقاصير : رتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ، وأجرى عليهم الأرزاق السنوية ليقتصد كل من اختار علما أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه .

وفى الموصل أسس جعفر بن محمد الموصلى دارا للعلم ، زودها بمكتبة تزخر بعدد ضخم من الكتب فى جميع فنون المعرفة . وأسس الفاطميون فى مصر دورا مماثلة لنشر الدعوة الفاطمية ، وكان فى قصرهم مكتبة ، يقال انها كانت أعظم مكتبة فى الاسلام ، كانت تشتمل على نحو أربعين غرفة مليئة بالكتب من جميع فروع المعرفة والعلوم . كما أنشأ يعقوب بن كلس ، وزير العزيز بالله نزار ، فى داره مجلسا للعلم كان يتردد عليه فيه طائفة من العلماء والفقهاء .

ثم أقام الحاكم بأمر الله فى القاهرة عام ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) ، دار الحكمة شمالى القصر الفاطمى الغربى . وكان داعى الشيعة يجلس فيها ، ويجتمع اليها من التلاميذ من يتكلم فى العلوم المتعلقة بالمذهب الشيعى . وجعل الحاكم لها جزءا من أوقافه التى وقفها على الجامع الأزهر وجامع المقس وجامع راشدة . وغلبت شهرة هذه الدار على شهرة دور العلم السابقة كلها ، وألحقت بها مكتبة كانت تحتوى على قاعة للمطالعة ، ومجلس للاجتماعات ، وغرفة للتدريس . كما بنى الحاكم دورا مماثلة فى القسطنطينية وحلب . وأنشأ الحسن ابن عمار فى طرابلس الشام دارا للحكمة تشبه دار الحكمة بمصر . وكانت هذه المعاهد وأمثالها تقوم بوظيفة من أكبر وظائف الدولة هى اعداد الدعاة ، وتزويدهم بالعلوم الخاصة بالمذهب الشيعى .

نشأة المدارس في المشرق وانتقالها الى المغرب
وبينما كانت دار الحكمة وغيرها من المراكز العلمية تقوم بوظيفتها ، كانت المدرسة تنمو وتترعرع في الدول السنية بالشرق . وقامت المدرسة بمحاربة المذهب الشيعي في فارس (مذهب بني بويه) ، وعينت بنشر المذاهب السنية . وكان تأسيس المدرسة باديء ذي بدء من صميم أعمال الخير والبر ، لذلك ساهم عدد كبير من الناس في بنائها ، كما بنى كثير من الفقهاء مدارس على نفقتهم الخاصة ... فأسس أبو حاتم البستي المتوفى عام ٤٣٠ هـ (١٠٣٩ م) مدرسة في مرو ، كانت بها مكتبة وغرف لايواء الطلبة الغرباء .

وفي عهد السلطان محمود الغزنوي ظهرت أربع مدارس هي : المدرسة البيهقيية التي أسسها البيهقي ، والمدرسة السعيدية التي أسسها الأمير نصر بن سبكتكين حاكم نيسابور ، ومدرسة أبو سعد اسماعيل بن علي بن المثنى الاستراباذي الصوفي الواعظ ، ومدرسة رابعة بناها ابن اسحق الاسفرايني . وهكذا شهدت فارس مولد هذا النظام الجديد ، وهو المدرسة . ومنها انتشر الى الأقطار الاسلامية الأخرى .

وبدأت الحكومات تشترك ، منذ النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة ، اشتراكا فعليا في حركة تأسيس المدارس . فأصبحت المدرسة منظمة رسمية من منظمات الدولة ، يتخرج فيها عيال الدولة وموظفوها ... وذلك حين بعث الوزير نظام الملك : أبو علي الحسن بن علي بن اسحق ابن العباس الطوسي — وزير طغرلبيك وألب أرسلان وملكشاه — هذه الحركة التي ما كادت تزدهر محليا مدة خمسين عاما حتى ماتت علي أيدي وزراء طغرلبيك .

ويعد « نظام الملك » أول من حقق استخدام

المدرسة في الأغراض التي أنشئت من أجلها ، وهي : الدعاية للمذاهب السنية ، ومحاربة المعتقدات الشيعية . فأنشأ عدة مدارس في خراسان وفي بغداد والبصرة وأصفهان . وكان أشهر هذه المدارس كلها المدرسة النظامية ببغداد التي أسسها عام ١٠٦٥ م . وشرع نظام الملك في بنائها عام ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) ، وفرغ من عمارتها وأعدها عام ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) ، أي في عامين . وقام بالتدريس فيها الشيخ أبو اسحق الشيرازي الفيروزبادي صاحب كتاب التنبيه في الفقه على مذهب الامام الشافعي . واقتدى الناس بنظام الملك في بناء المدارس ، فانتشرت المدارس في جميع أنحاء الدولة السلجوقية في بغداد ونيسابور ومرو .

ثم أنشأ الخليفة المستنصر بالله العباسي المدرسة المستنصرية ، وخصصها للمذاهب الأربعة ، وجعل لكل مدرس خمسة وسبعين طالبا ، ومعلما للقرآن ، وآخر للحديث . وكان بها مكتبة وحمامات ومارستان ومطابخ . وأفلتت هذه المدرسة ، لحسن الحظ ، هي والمدرسة النظامية ، من تخريب هولاكو .

وذكر ابن بطوطة هاتين المدرستين في رحلته في بداية القرن الثامن للهجرة ، فقال : « ان أعظم أسواقها (يعني بغداد) سوق الثلاثاء ، وفي وسط المدينة المدرسة النظامية وفي آخره المستنصرية ، ونسبتها الى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر أمير المؤمنين الظاهر بن أمير المؤمنين الناصر . وبها المذاهب الأربعة لكل مذهب ايوان فيه المسجد ، وموضع التدريس ، وجلس المدرس في قبة خشب صغيرة ، علي كرسى عليه البسط ... وهكذا ترتيب كل مجلس من المجالس الأربعة . وفي داخل المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء » .

وانتشرت حركة بناء المدارس في سوريا في القرن الخامس للهجرة ... اذ أخذها السلطان نور الدين محمود بن زنكى عن السلاجقة ، ونشرها في الشام والجزيرة ، وأقيمت في عهد هذا السلطان مدارس في دمشق وحلب وحماة وبعبك وحمص والرقّة والبصرة . ويرجع السبب في كثرة انشاء المدارس في الشام والجزيرة الى أن هذا السلطان كان سنياً من غلاة السنيين ... بل كان زعيم السنيين في هذه البلاد .

وكان العلماء يفتدون الى هذه المدارس من نيسابور وبغداد ومن قرطبة وغرناطة ومراكش . وأقدم المدارس التي تبقت لنا منها آثار المدرسة المجاورة لجامع أورفا بتركيا ، ويرجع تاريخها - وفقاً لنقش كتابي - الى عام ٥٠٧ هـ (١١١٣ م) . وفعل الأمراء الأتابكة ما فعله السلطان نور الدين محمود ، فكثرت عدد المدارس في بلاد الشام . وأسست دار الحديث النورية ، والمدرسة الصالحية ، والمدرسة العسرونية ، والمدرسة العمادية ، ومدرسة الكلاسة ، والمدرسة العادلية ، والمدرسة الأسدية .

ومن مدارس الشام انتقل نظام المدرسة الفارسية الى مصر على يد صلاح الدين . والواقع أنه كان بمصر مدرستان قائمتان قبل قدوم صلاح الدين ... ذلك أن مصر ، في الفترة الأخيرة من الخلافة الفاطمية ، كانت قد تأثرت تأثراً ما بحركة العودة الى المذهب السني . ففي عام ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) أنشأ رضوان بن ولخش - وزير الخليفة الحافظ لدين الله - مدرسة بالاسكندرية ، كما أنشأ العادل أبو الحسن علي ابن السلار - وزير الخليفة الظافر - مدرسة أخرى بالاسكندرية عام ٥٤٦ هـ (١١٥٢ م) .

وكان ابن السلار في نزاع متواصل مع وزير

شيعي هو نجم الدين بن مصال . وكان في أول أمره شيعياً ، ثم نبذ المذهب الشيعي ، واعتنق المذهب السني . ومن هنا نشأت بينه وبين نور الدين محمود - زعيم السنيين في الشام - علاقة من المودة ، فأنشأ ابن السلار مدرسة عام ٥٤٦ هـ ، وقام على التدريس فيها امام من أعظم الأئمة في الفقه والحديث ، هو الحافظ السلفي الذي أدركه صلاح الدين ، وكان يتوجه الى الاسكندرية لسماع حديثه مع أولاده وأهله .

وكان سبب بناء هاتين المدرستين بالاسكندرية في أواخر العصر الفاطمي ، ميل أهلها الى المذهب السني . ونجد مصداق ذلك في الحوادث التي جرت في نهاية الدولة الفاطمية ... ففي عام ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) استولت جيوش شيركوه على الاسكندرية ، وترك جزءاً من جيشه فيها وسار هو في الجزء الباقي الى قوص لجمع الخراج والمثونة . وأسرت جيوش الصليبيين الى الاسكندرية ، وحاصرتها حصاراً شديداً ، وكان عدد جند صلاح الدين قليلاً ، ومع ذلك فقد صمد أمام الصليبيين ، وأبدى من ضروب البسالة والاقدام ما أهله بعد ذلك للمنصب الكبير الذي شغله ، والدور الأعظم الذي قام به ... وذلك بفضل معونة أهل الاسكندرية له ، ولذلك لم تكن الاسكندرية في حاجة ماسة الى جهود صلاح الدين لمحاربة الشيعة ، وحفظ لأهلها هذا الصنيع .

ولكن مدرستي الاسكندرية في العصر الفاطمي كانتا فريدتين في نوعهما ، كما أن المدارس التي أدخلها صلاح الدين كانت تصطبغ بالصبغة السنية ، وتتبع النظام الديني الذي وضعه نظام الملك ... لذلك بعد صلاح الدين أول مؤسس للمدارس في مصر ، وأول من أدخل فيها هذا

النظام . وبينما كان جنده يخوضون المعارك في الشام وفلسطين ، وينتقلون من نصر الى نصر ، كان العلماء والفقهاء في الداخل يغزون الناس دينيا ، ويحاربون المذهب الشيعي ... فكثر انشاء المدارس في مصر والشام ، وأقيمت المدرسة الصلاحية بجوار ضريح الامام الشافعي عام ٥٧٥ هـ ١١٨٠ م ، وعهد صلاح الدين بينها الى الشيخ الفقيه الامام أبو البركات بن الموفق الجروشاني ، وكان فارسي الأصل ... فلا نعجب اذن أن نقيم أولى مدارس صلاح الدين فقيه من فارس موطن المدارس السنية الأولى . كذلك أقام صلاح الدين عام ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) المدرسة السيوفية ، ومدرسة زين التجار أو المدرسة الشرفية ، والمدرسة القمحية .

وأسست مدارس أخرى بمصر في عهده مثل : المدرسة القطبية أسسها الأمير قطب الدين حسروا عام ٥٧٠ هـ (١١٧٥ م) ، والمدرسة الأرسوفية أسسها غيف الدين عبد الله محمد الأرسوفي . ولم تحرم بلاد الشام من المدارس الأيوبية ، فقد أسست المدرسة العادلية بدمشق في عهد سيف الدين أبو بكر عام ٦١٥ هـ ، والمدرسة الظاهرية بحلب عام ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ، والمدرسة السلطانية بحلب في عهد الملك العزيز غيث عام ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) ومدرسة الفردوس بحلب في عهد الملك الظاهر غازي عام ٦٣٣ هـ ، والمدرسة الشرفية بحلب (٦٤٠ - ٦٥٠ هـ) ، والمدرسة الكاملية بحلب ، وغيرها من المدارس .

وكانت مدارس الشام مخصصة غالبا لتدريس مذهب واحد وفي بعض الأحيان لتدريس مذهبين ، هما الشافعي والحنفي ، وفي هذه الحالة كانت تشتمل على ايوانين متقابلين يحف بهما من الجانبين غرف للطلبة . أما في حالة المذهب الواحد فكانت

تشتمل على بيت للصلاة ، وبهو مستطيل بواجهته ثلاث بوائك ، ويتوسط البهو نافورة ، وقلما يوجد في جهة من جهات البهو أكثر من قاعة واحدة متسعة (ليوان) . أما في مصر فكانت معظم المدارس الأيوبية التي أدخلها صلاح الدين مخصصة لتدريس مذهب واحد : الشافعي أو المالكي أو الحنفي ... ما عدا المدرسة الكاملية التي كان يدرس بها الحديث ، والمدرسة الصلاحية التي كانت تدرس بها المذاهب الأربعة .

ثم انتقل نظام المدارس السنية من مصر الى المغرب الأدنى ، ومن هناك انتشرت في كافة أنحاء المغرب ، ولكنها وصلت الى المغرب الأقصى متأخرة ثلاثين سنة عن ظهورها في المغرب الأدنى . وكانت مدارس المغرب تشتمل على مساكن للطلبة تهزج حول الصحن المركزي الذي يقوم في أحد جوانبه بيت الصلاة . وغالبا ما كانت تزود بمئذنة ، شأنها في ذلك شأن المدرسة المصرية .

ولكن المدرسة تخضع عادة للتقاليد المحلية ... ففي فارس أثرت الايوانات الساسانية على بناء المدارس العراقية والشامية والمصرية ، فأصبحت قاعاتها ألونة تفتح على الصحن ، وتعلوها قبوات ضخمة نصف اسطوانية متكسرة . وكانت بعض مدارس مصر تتألف من ايوانين متقابلين بينهما فناء ، ويرتبط الايوانان معا عن طريق غرفه متصلة ، ويعلو مدخل المدرسة عادة مئذنة ، مما يجعلنا نعتقد أن المدرسة المصرية تأثرت حتما بنظام المسجد .

ثم تعددت الألوان بتعدد المذاهب التي تدرس في المدرسة . وأصبحت معظم مدارس مصر في العصر المملوكي مدارس لتدريس المذاهب الأربعة ، فأضحى تخطيط المدرسة يشبه تخطيط الكنائس ، اذ تعامت الايوانات على مربع

الصحن . ويتجلى هذا النظام في مدرسة السلطان حسن ، ومدرسة زين الدين يوسف . غير أننا نعتقد أن هذا التخطيط المتعامد في المدرسة المملوكية ما هو الا تطور لتخطيط الجامع ، فقد استبدلت بالمجنبات التي تدور بالصحن ثلاثة ألونة تضاف الى ليوان المصلى أو المسجد .

أما في بلاد المغرب فقد اشتقت المدرسة نظامها من نظام الأربطة ١ ، وهو نظام معمارى قديم ... اذ كانت المدرسة تتألف من صحن مركزى يتوسطه حوض ، وتحيط به — من الشمال والشرق والغرب — غرف صغيرة ضيقة أعدت لاقامة الطلبة . وكان يشغل الجهة القبليّة — قبالة المدخل الرئيسى عادة — بيت للصلاة ، أسقفه هرمية . وتختلف المدرسة المغربية عن المدرسة المصرية أو الشامية في أنها لم تكن مدارس وقبورا ، أى أنها لم تكن تشتمل على ضريح ملحق ببنائها ، في حين كانت المدارس المصرية والشامية لا تكاد تخلو من هذا الجزء الاضافى .

وبنو مرين هم أعظم بناءة المدارس في بلاد المغرب ، وأكثرهم نشاطا ، وأوفرهم همة . وكان ذلك مظهرا من مظاهر حماسهم الدينية التي تجلت

(١) الرباط : حصن دينى أعد لاقامة المسلمين الذين وقفوا حياتهم على الدفاع عن بلادهم ، والجهاد في سبيل الله ضد أعداء الاسلام فترة من الزمن قبل الجهاد أو بعده . ويكون في نفس الوقت مكانا لمن تفرغ لعبادة الله فيدفع بدعائه البلاد . والرباط معهد ذو صبغة دينية وحربية ويبدو ان فكرة الرباط فكرة اسلامية . ويشبه الرباط في ذلك الاديرة التي يعيش فيها الفرسان المترهبون . وكان يتألف من صحن مركزى تحيط به غرف في جهاته الشرقية والغربية والشمالية ، ومزود في الجهة القبليّة بمسجد صغير . وكان للرباط مئذنة تؤدى وظيفتين : الاولى للاذان ، والثانية للمراقبة وارسل الاشارات التي تنذر بالخطر .

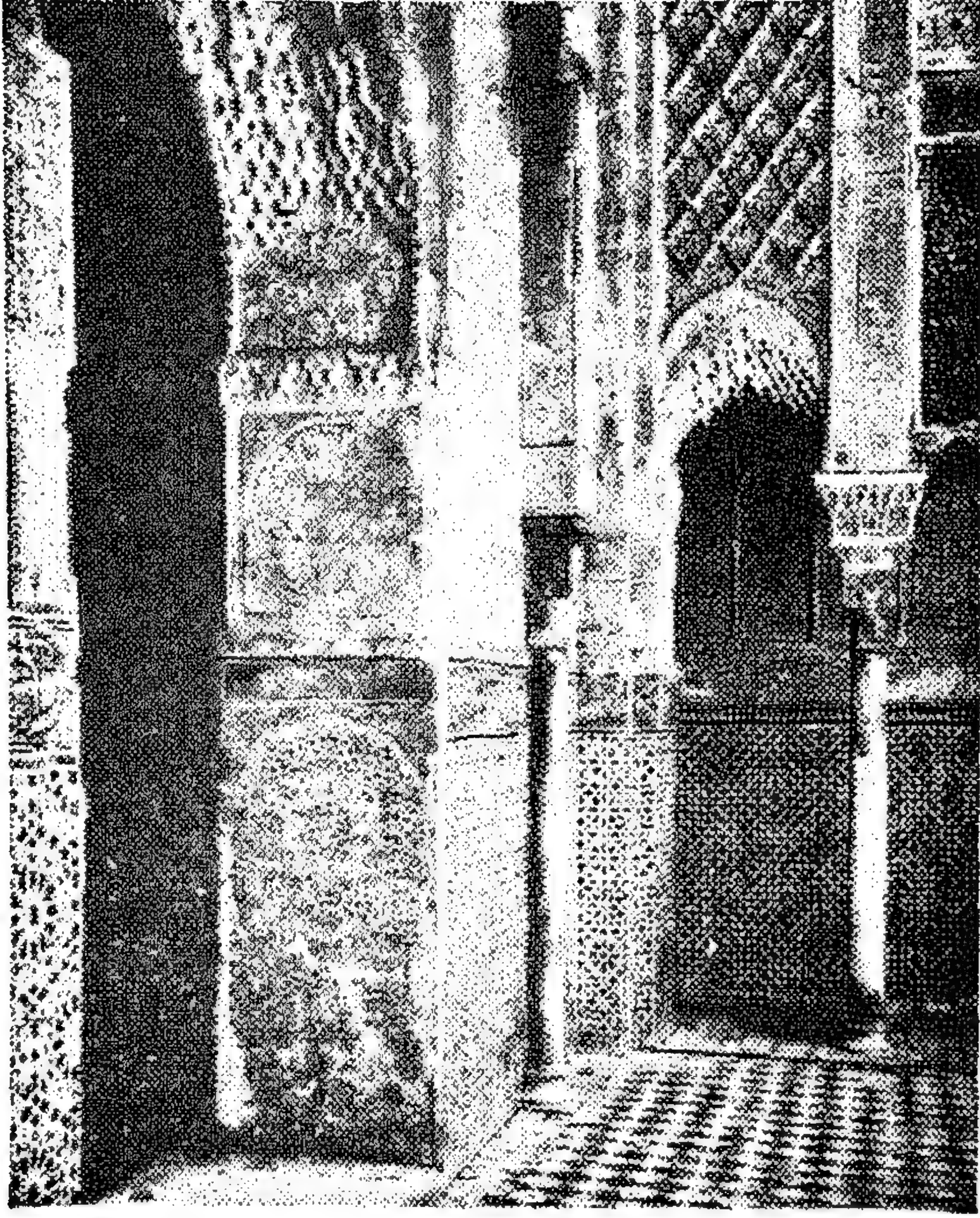
ولقد انشا هرثمة بن اعين اول رباط بافريقية عام ١٧٩ هـ (٧٩٣ م) هو رباط المنستير . وكان القرن الثالث الهجرى هو القرن الذهبى لبناء الأربطة . فقد اقامت أسرة بنى الاغلب عددا كبيرا منها على السواحل : منها رباط سوسة الذى اقامه زيادة الله بن الاغلب عام ٢٠٦ هـ (٨٢١ م)

بحق في جهادهم بالأندلس مع اخوانهم الغرناطين ، وفي محاربتهم للمعتقدات الموحدية ... فانتصروا للسنة ، وشجعوا العلوم الفقهية التي أنكرها أتباع المهدي بن تومرت . وقد اهتم بنو مرين اهتماما خاصا بمدينة فاس ، العاصمة الدينية والفنية لبلاد المغرب ، فأحضروا اليها الرخام من تلمسان ، واستخدموه في كسوة أرضيات مدارسهم وصناعة أعمدتها وتيجانها ، وافتتوا في كسوة جدرانها بالزخارف الجصية الدقيقة ، وتغطية أزرها بالنسيفاء المعروف بالزليجى ، فجاءت مدارسهم أروع وأجمل وأزهى من القصور التي أقامها بنو الأحمر بغرناطة . ومن بين هذه المدارس التي أقيمت : مدرسة الصفارين ، ومدرسة الصهريج ، ومدرسة العطارين ، ومدرسة بوعنانية .

مدرسة الصفارين ١

هى أقدم مدارس مدينة فاس قديم (فاس بالى) وهى الأثر الوحيد الذى تبقى لنا من مدارس القرن الثالث عشر الميلادى . أسسها السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرىنى (٦٥٧ — ٦٨٥ هـ / ١٢٥٨ — ١٢٨٦ م) عام ٦٧٠ هـ (١٢٧١ م) . ولقد تعرضت هذه المدرسة منذ بنائها لاصلاحات وتجديدات متعددة ، أفقدتها شيئا فشيئا زخارفها الرائعة ، فاخفتت الكسوات الجصية التي كانت تزين الغرف الموزعة حول الصحن . ولحسن الحظ تبقت أجزاء قليلة من الزخارف المحفورة في الجص في بيت الصلاة الملحق بالمدرسة . ومدخل المدرسة على هيئة مرفق منحني في تخطيطه ، شأنه في ذلك شأن مدخل الدور المغربية . ويؤدى هذا المدخل الى صحن

(١) الصفارين : من الصفر ، وهو نوع من النحاس الأصفر أو الملائون الذى تصنع منه الاوعية والقدر ، وقد سميت هذه المدرسة بهذا الاسم نسبة الى حى الصفارين الذى أقيمت فيه . وهذا الحى يحى النحاسين فى القاهرة .



الجزء الجنوبي الشرقي من صحن مدرسة العطارين

الأبيض مستطيل كالصحن ، استمدت المدرسة منه اسمها ... غير أن هذا الحوض الرائع نقل في عهد أبي الحسن الى المدرسة المصبحية ، وبقي فيها حتى وقتنا هذا .

ويحيط بالصحن ، على الجانبين الشرقي والغربي فقط ، رواقان تستند عقودهما الخشبية على دعائم ضخمة . ويتصل بيت الصلاة بالصحن عن طريق ثلاث فتحات : الفتحة الوسطى منها يعلوها عقد كبير مقرنص ، كما يعلو كلا من الفتحتين الجانبيتين عتب خشبي منقوش . ونلاحظ أن مدخل المدرسة وعقد بيت الصلاة والمحراب تقع جميعا في محور البناء نفسه . ومدخل المدرسة يؤدي من الغرب الى الميضاة وما يحيطها من مراحيض .

والمدرسة مستطيلة ، طولها يقرب من ضعف عرضها ، أي أنها متصلة بالصحن تشبه حرف T لا تقوم فيها عقود أو دعائم على الإطلاق ، وليست لها مئذنة .

مستطيل يتوسطه حوض مربع . ويدور حول هذا الصحن غرف للطلبة تتوزع مباشرة على جهاته الثلاث : الشرقية والغربية والشمالية ، دون أن تطل على ممرات جانبية مسقوفة (أروقة) مثل بقية المدارس المغربية .

ويقوم المسجد على جانب الصحن المقابل للمدخل ، وإن كان محوره ينحرف قليلا عن محور المدرسة . والمسجد مربع يعلوه سقف هرمي . ويمتد شرقيه ممر يؤدي الى ميضاة المدرسة . ويتوسط هذه الميضاة فناء صغير يحيط به أحد عشر مرحاضا .

وتعلو مدخل المدرسة مئذنة من الآجر مربعة القاعدة ، تكسو واجهتها الشمالية زخرفة على هيئة معينات . ويعلوها طابق مربع أصغر كثيرا من الطابق الأدنى وأكثر منه رشاقة . وينتهي هذا الطابق بقببية صغيرة ركب بأعلاها سفود بارز به الكرات الثلاث التقليدية .

مدرسة الصهريج (المدرسة الكبرى)

تقع هذه المدرسة في المنطقة المحيطة مباشرة بجامع الأندلسيين ، في الجزء الغربي من مدينة فاس . وكانت هذه المدرسة تؤلف فيما مضى جزءا من مجموعة معمارية أقامها الأمير أبو الحسن المريني ، عام ٧٢١ هـ (٣٢١ م) ، في الوقت الذي كان فيه وليا لعهد أبيه السلطان أبي سعيد عثمان . وكانت هذه المجموعة المعمارية تشتمل على مدرسة الصهريج موضوع البحث ، ومدرسة السبعين (الخاصة بالقراءات السبع) ، وفندق .

وتشبه هذه المدرسة مدرسة فاس جديد التي أنشأها السلطان أبو سعيد عثمان عام ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) . ويتوسط مدرسة الصهريج صحن مستطيل ، عرضه أكبر من طولها بما يقرب من الضعف ، يتوسطه حوض ضخم من الرخام

ويلعب الخشب دورا هاما في زخرفة المدرسة ،
فإن دعائم الرواقين الجانبيين تدعم أعتابا خشبية
في مستوى الأسقف ، وتحمل في أعلاها عقودا
زخرفية لا تعدو كسوة خشبية محفورا عليها
توريقات رائعة من المراوح النحيلية ، وتعلو الجدران
قلاية خشبية محمولة على كوابيل خشبية كذلك .
وفصل الصحن عن الرواقين الجانبيين مشربيات
رائعة الجمال .

وتحتفظ مدرسة الصهريج بأقدم أمثلة للتربيقات
الزليجية التي تكسو أفاريز الجدران ، وتزدان
الأعتاب الخشبية بزخرفة نباتية تتخللها كتابات
كوفية بارزة .

مدرسة العطارين

أمر بنائها السلطان أبو سعيد عثمان ، في أول
شعبان عام ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) ، بجوار جامع
القرويين ، وأشرف على بنائها الشيخ محمد
عبد الله بن قاسم المزوار . وقد أجرى إليها المياه
من ساقية غزيرة الماء ، وزودها بطائفة من العلماء
لتدريس العلوم الدينية ، وخصص لخدمة الطلبة
اماما وعدة مؤذنين وبعض القومة .

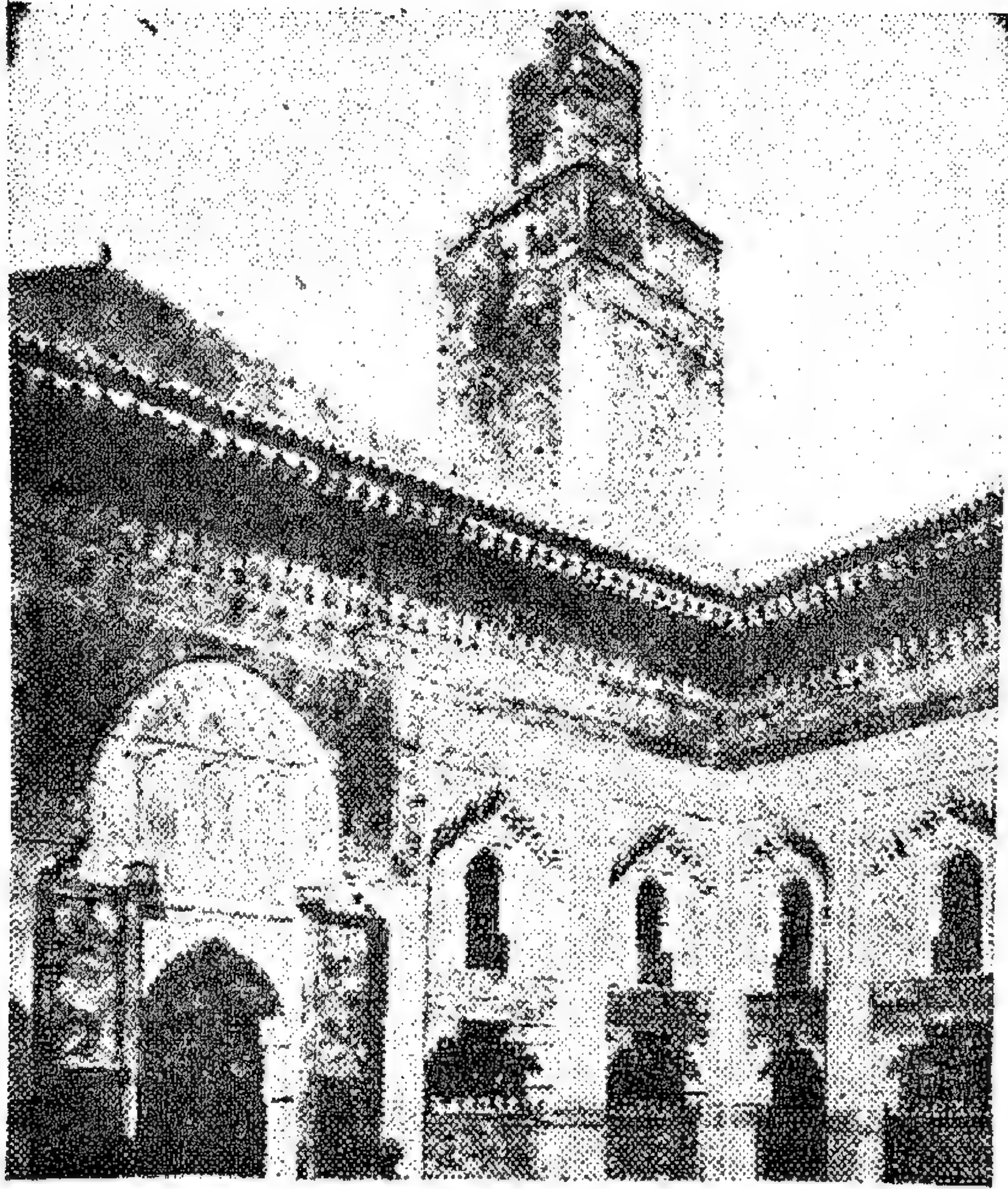
وهذه المدرسة من أجمل آثار بنى مرين
وأعظمها ، لتناسق أجزائها ، وجمال زخرفتها .
وتحمل المدرسة اسم الحى الذى أقيمت فيه .
وتصميم المدرسة بسيط فى مجموعه ، ويطابق
النظام الذى درسناه فيما سبق . ومدخلها منحني
يؤدى الى أسطوان صغير يفضى بدوره الى
الصحن . وبالأسطوان بابان : أحدهما يصل الى
مiazza المدرسة ، والآخر الى سلم يصعد الى غرف
الطلبة ، على نحو النظام الذى اتبع فى مدرسة
الصهريج . وليست بالطابق الأرضى غرف .
ويحيط بالصحن رواقان جانبيان فى كل منهما

خمس فتحات غريبة الوضع . وتدعم الفتحة
الوسطى دعامتان كبيرتان فى حين تدعم الفتحتين
التاليتين دعيمة كبيرة من جهة ، ودعيمة أصغر منها
من الجهة الأخرى . وتنعقد على مساند هذه
الدعائم الثلاث ثلاثة عقود خشبية يزيد تجاوزها
قليلا عن نصف الدائرة ، وهى مبطنة بوسائد
زخرفية تؤلف أسنة مشرشرة فى الأطراف . وعلى
الجانبين عقدان يقوم كل منهما على عمود رشيق
من الرخام يربطه بركن الصحن عقد باطنه مقرنص .
وتكسو أرضية الصحن تربيقات كبيرة من
الزليجى ، وتتوسطه فسقية فى وسطها خصة من
الرخام مستديرة ، محيطها مقصوص ، وتؤزر
الجدران تربيقات من الزليجى تعلوها زخارف
رائعة محفورة فى الجص .

وتيجان الأعمدة رخامية تحمل نقوشا كتابية :
بعضها فى مدح مؤسس الجامع ، وبعضها فى حمد
الله . والزخارف المحفورة على الخشب بمدرسة
العطارين تعد أروع أمثلة الحفر على الخشب فى
العمارة المرينية . وقد نجح الفنان فى حفر التوريقات
حفرا غائرا فى دقة تامة ، وبالسهولة التى تحفر
بها فى الجص .

ويزدان مدخل المدرسة بتربيقات من الزليجى
آية فى الروعة والجمال ، عليها كتابة مرسومة على
الزليجى ، ثم كتابة محفورة فى الرخام ، ثم حشوتان
كبيرتان زيتتا بزخارف جصية . وألوان هذه
التربيقات الزليجية متنوعة بين الأبيض والأسود
والأزرق الباهت والبنى الفاتح . وفى بنيقتى العقد
المرسوم فى الزليجى توريقات ملونة باللون الأسود
القاتم على أرضية بيضاء .

وبيت الصلاة مستطيل ، يتعامد محوره مع
محور المدرسة ، وينقسم قسمين غير متساويين
بوساطة ثلاثة عقود تقوم على دعائم أربع .



صحن مدرسة بوعنانية ومئذنتها

بنائها في ٢٨ من رمضان عام ٧٥١ للهجرة (٣٠ نوفمبر سنة ١٣٥٠ م) ، وأتم بنائها في آخر شعبان من عام ٧٥٦ للهجرة (٨ من سبتمبر عام ١٣٥٥ م) ، وعهد بالاشراف على بنائها الى مفتش الأوقاف بفاس ، ويعرف بأبي الحسين بن أحمد بن العسكر .

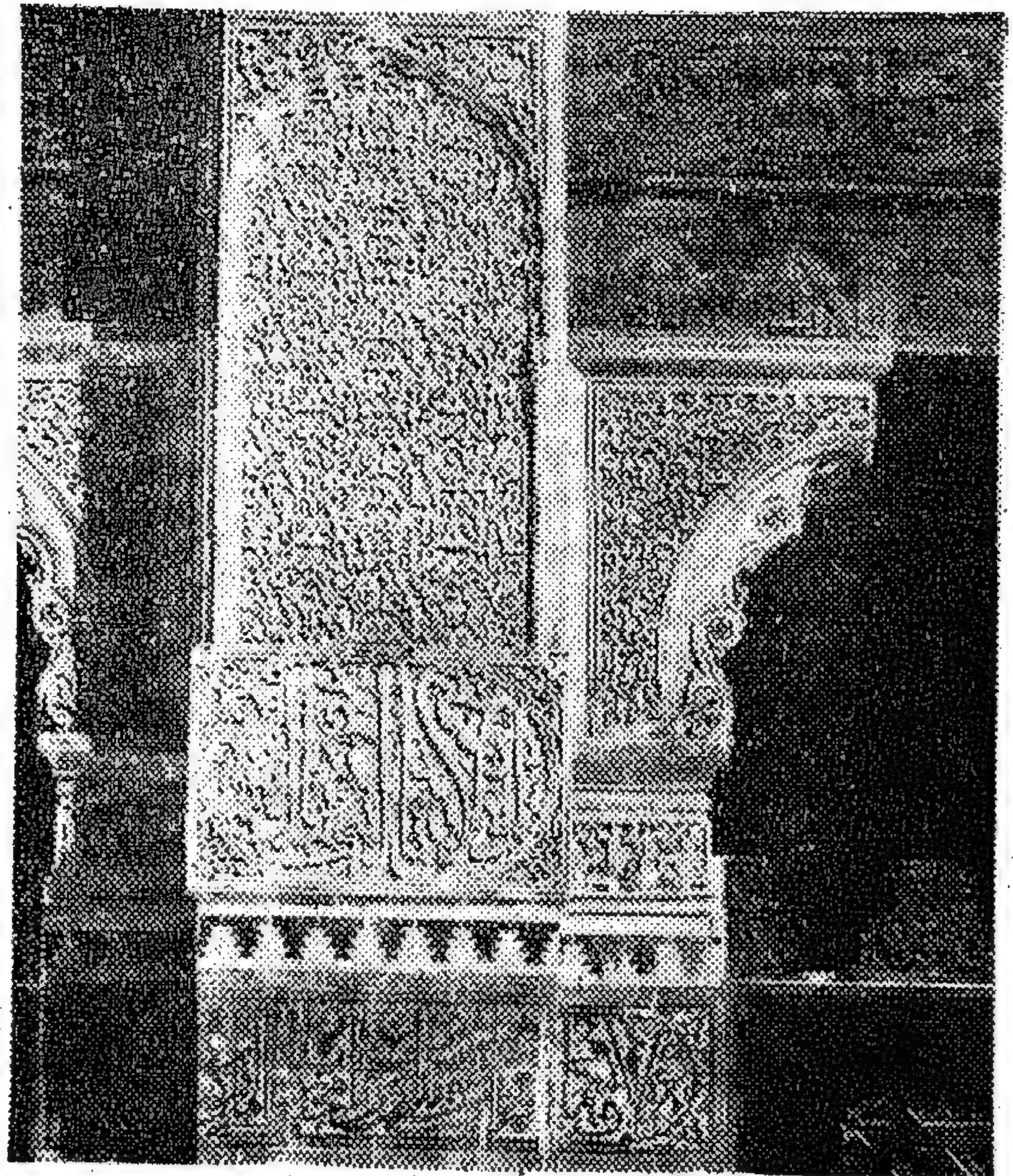
وتمتاز هذه المدرسة على غيرها باشتغالها على مسجد مزود بمنبر كسائر المساجد الجامعة ، ثم هي تحتوى على مدرسة لقراءة القرآن ، ومئذنة من أجمل مآذن المغرب . وللمدرسة بناء يعد فريدا من نوعه في بلاد المغرب ، هو « واجهة الساعة » . ومن أعلى مئذنتها يستطيع المرء أن يستمتع برؤية مآذن فاس بالى وفاس جديد ، ويتمكن المؤذن من الأذان للعدوتين معا . ولقد أقيمت هذه المدرسة لتنهض بكل ما يستلزمه الدين والعلم . ولا شك أن منشئها أراد لها أن تحتل المكان الأول في العاصمة الدينية والعلمية لبلاد المغرب .

والمدخل الرئيسى للمدرسة في شارع رئيسى كان يعرف باسم سوق قصر فاس ، ويقطع الشارع أمام

وقد احتفظت هذه المدرسة لحسن الحظ بأكثر زخارفها ، وتضىء المدرسة ست نوافذ صغيرة : أربع منها مغطاة بزجاج ملون يسود فيه الأزرق والأصفر والأخضر . ويقع المحراب في الجدار الجنوبي ، ويستند عقده على عمودين من الرخام الأبيض ، في حين يستند العقدان الزخرفيان الجانبيان على أعمدة من الرخام الأسود ، أبدانها مثمثة ، وتتدلى من وسط السقف ثريا من البرنز يرجع تاريخها الى تاريخ بناء المدرسة ، وتحمل نقوشا تتضمن اسم المنشئ .

مدرسة بوعنانية

كانت هذه المدرسة تعرف بادىء ذى بدء باسم المدرسة المتوكلية ، ثم أطلق عليها اسم بوعنانية تخليدا لذكرى منشئها السلطان المرينى ، أبى عنان فارس بن أبى الحسن بن أبى سعيد ، وتختتم بها سلسلة المدارس التى أنشأها بنو مرين ، لكنها تتميز عن سائر مدارسهم بعظمتها ، وكبر مساحتها ، وفخامة زخارفها . وقد شرع السلطان أبو عنان في



أحد عقود مدرسة بوعنانية

هذا المدخل عقد ضخيم يشبه الساباط . والى جوار هذا المدخل مدخل آخر ثانوى لا يفصله عن المدخل الرئيسى سوى جدار . والى غرب هذا المدخل بناء ضخيم يؤلف جزءا من المدرسة كانت تقام عليه ساعة يطلق عليها اسم «مجانة» ، مزودة بطاسات وكنوس من البرنز ، وقد شيدت هذه الساعة فى الأيام الأخيرة من بناء المدرسة (١٤ من جمادى الأولى عام ٧٥٨ للهجرة ٦ من مايو عام ١٣٥٧ م) ، تحت اشراف المؤقت أبى الحسن على بن أحمد التلمسانى المعدل . ولقد خربت هذه الساعة الأثرية فى الوقت الحاضر ، ولكن تبقى منها جزء كبير فى الواجهة المطلقة على الشارع . ويشتمل هذا الجزء على صف من ثلاثة عشر جرسا من البرنز ، يعلوه صف من نوافذ معقودة عقودا متجاوزة منكسرة ، بينها حشوات تحتشد فيها توريقات محفورة فى الجص . ويعلو هذا الصف افريز خشبى منقوش ، يقوم عليه صف من المساند الخشبية المثبتة على افريز عريض مزين بالتوريقات .

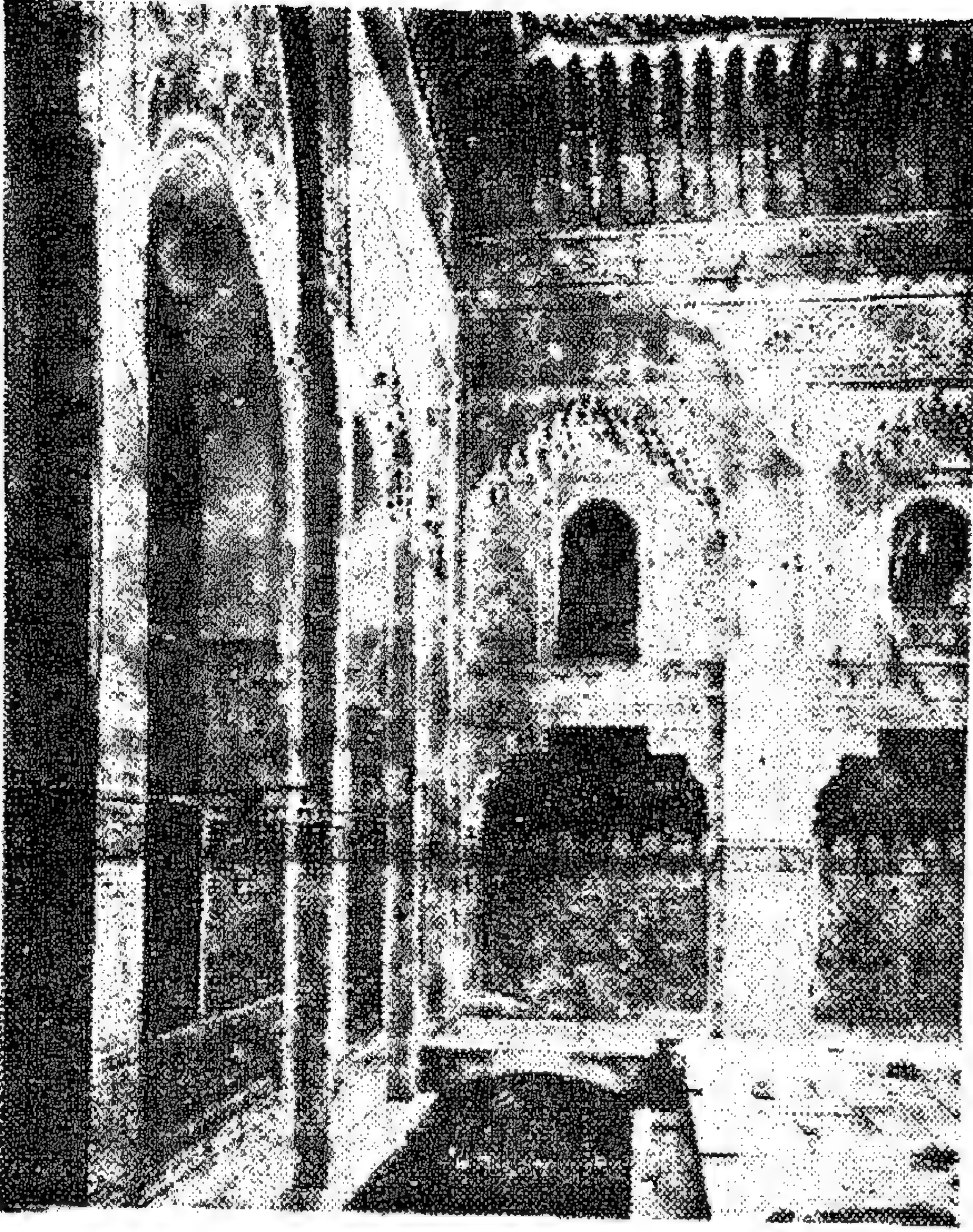
وفى جنوبها الغربى ، باب يؤدى الى أسطوان على شكل مرفق ، وينفضى هذا الأسطوان الى رواق تطل عليه ثلاث غرف . ويتصل هذا الرواق بالصحن من جهة القبلة . ويظل هذا المدخل الصغير ظلة كبيرة . وفتحة الباب يعلوها عتب من الخشب يحمل نقشاً كتابيا ، ويعلو هذا العتب ثلاثة عقود زخرفية محفورة فى الجص ، بطونها مقوسة أقواسا متصلة ، ورءوسها مدببة تكتظ بتوريقات متشابكة دقيقة . وتستند هذه العقود على عمدة تحصر فيما بينها ثلاث حشوات تحتشد فيها زخرفة جصية . وفى القسمين الأيمن والأيسر زخارف من توريقات نخيلية تشبه عقودا متصلة تؤلف شبكة من المعينات التى تماثل أزهار الزنبق ، بداخله توريقات أخرى أكثر دقة وأصغر حجما .

وفى القسم الأوسط شبكة معقدة من التوريقات التى تختلط فيها السيقان على هيئة خيوط دائرية ، تقطعها دوائر أخرى متداخلة فيما بينها . ويحيط بهذه العقود اطار كتابى ضيق يلتف به شريط عريض من الزخرفة بكيزان الصنوبر المحببة والقواقع البارزة ، بينها زخارف نباتية آية فى الروعة والجمال .

وتستند الظلة على كابولين كبيرين تكسوهما زخارف نباتية ، ويرتكز هذان الكابولان على مسندين صغيرين ، ثم على دعامتين تكتنفان المدخل .

والمدخل الرئيسى للمدرسة يشألف من باين متجاورين : الأكبر أو الرئيسى يقع فى محور المدرسة . ويصل المدخل بالصحن سلم درجاته مغطاة بالزليجى ، ومحاطة بالرخام الأبيض . ويؤدى هذا السلم الى رواق يمتد بطول الصحن ، ويدور حوله فى الشمال والشرق والغرب . ويمتد هذا الرواق شرقا الى ممر منحن ، ينتهى الى صحن صغير فى وسطه حوض . وتتوزع حول هذا الصحن من الجانبين الشرقى والغربى سبعة مراحيض . أما من الغرب فيمتد الرواق الشمالى الى ممر يفضى الى باب المثدنة .

ويتوسط المدرسة من الداخل صحن أشبه بالمربع منه بالمستطيل ، طول كل جانب من جوانبه نحو ثمانية عشر مترا . وتكسو أرضية الصحن لوحات من الرخام الأبيض ، ويتوسطه حوض مستدير يستخدم للوضوء . وتتوزع حول الصحن أبنية مختلفة ، ويدور حوله — كما سبق أن ذكرت — رواق تعترضه ، فى منتصف الرواقين الشرقى والغربى ، قاعتان للدرس مربعتان : طول كل قاعة نحو خمسة أمتار ، وتعلوها قبة من الخشب ذات ضلوع متشابكة .



الزاوية الجنوبية الغربية من صحن مدرسة بوغانية
(ويرى وادي فاس والقنطرة اسفل الصورة)

الأعلى من جدران المسجد بزخارف جصية جميلة .
وبالمسجد منبر لصلاة الجمعة مزين هو الآخر
بزخارف دقيقة .

وفصل الرواق الذي يدور حول الصحن عن
الصحن نفسه مشربيات خشبية ارتفاعها يقرب من
مترين ، مثبتة بين الدعائم ، وتكسو هذه الدعائم
تربيعات من الزليجي . أما الرواق فعلى درجة عالية
من الثراء الزخرفي ، وسقفه خشبية تزدان بزخارف
ملونة .

وترتفع المئذنة في الزاوية الشمالية الشرقية من
المدرسة . وهي مئذنة رشيقة تزدان بزخرفة من
الزليجي لونها أخضر .

وهكذا تتميز هذه المدرسة بتناسق تصميمها ،
وجمال بنائها وتعادل نسبها واثراء زخارفها ، وهي
لذلك تعد احدى روائع العمارة الأندلسية المغربية .

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم

ويعتقد الأستاذ « جورج مارسيه » أن هاتين
القبتين تشبهان في نظامهما الألوان الجانبية بمدرسة
السلطان حسن ، وإن كنا نعتقد أنهما تشبهان نظام
قاعتى الأختين وبنى سراج بقصر الحمراء . وتزدان
جدران هاتين القاعتين بزخارف جصية كثيفة . أما
الرواق فيدور حول هاتين القاعتين ثم يستمر بجدار
جانبي الصحن الشرقي والغربي مرة أخرى . وتطل
على هذا الرواق غرف للطلبة تتوزع على طابقين .
ويقع المسجد الى جنوب الصحن ، ولكن تفصله
عنه قناة صغيرة عرضها متران هي أحد فروع نهر
فاس . وأقيم على حافتها سلم يمتد على طول
الصحن يسهل للمصلين الوصول من القناة مباشرة .
ويصل الصحن بالمسجد قنطرتان صغيرتان :

ويقسم المسجد صف من أربعة أعمدة تقوم عليها
خمس عقود الى بلاطين عرضيين على نظام مسجدي
القرويين والأندلسيين . ويعلو كلا من هذين
البلاطين هيكل خشبي على شكل هرم ناقص مخرم
بالزخارف الهندسية الرائعة . وأعمدة هذا المسجد
من الرخام وتيجانها آية في الجمال ، وتشبه تيجان
مسجد سيدي الحلوى بتلمسان . وتحمل هذه
الأعمدة عقودا تشبه حدود الفرس ، يعلوها
جدار فاصل يتكئ عليه السقف . ويطل المسجد
على الصحن بثلاث فتحات كبرى تكتنفها فتحتان
صغيرتان ، وجميع هذه الفتحات معقودة على نظام
عقود الصحن . وتفتح في الجدار القبلي للمسجد
نوافذ صغيرة معقودة كانت مغطاة بالأواح الزجاج .
أما المحراب فخوخة ذات خمسة ضلوع تعلوها
نصف قبة مقرنصة . وعقد المحراب على شكل
حدوة الفرس يقوم على عمودين مشنئ الشكل من
الرخام . ويعلو عقد المحراب افريز زخرفي تفتح
فوقه ثلاث نوافذ معقودة تكسوها زخرفة جصية
مخرمة من التوريقات المتشابكة . ويزدان الجزء

مساجد من الشام

للعرب قط تعبير جمالى سوى زخرف القول ،
فمجدوا هذه الثقافات الطارئة دون أن يستغرقهم
التفوق الثقافى للشعوب التى أخضعوها . وما لبثوا
الا قليلا حتى اصطبغت هذه الثقافات بالصبغة
العربية ، وحتى لا نكاد نستطيع أن نميز ما يعزى
الى السريان والفرس والقبط والاسبان .

أما الفنون التصويرية فلم يكن لهم فيها حظ
كبير ، فاحتضنوا حضارات الشعوب المغلوبة ،
وشملوا رجال الفن من أهل الذمة برعايتهم ،
واستخدموهم فى تشييد عمارتهم وزخرفتها بعد أن
كيفوها وفقا لما يقتضيه دينهم وتقاليدهم ... فجاء
الفن الاسلامى مزيجا من فنون مختلفة من اليسير
تميز أصولها . وكان قوامه الفنون الساسانية
والبيزنطية والهندية والصينية وغيرها مما كان
مزهرا فى البلاد التى امتدت اليها أشعة الاسلام .

ثم أخذت هذه التقاليد الفنية المختلفة تنصهر
بمرور الزمن فى بوتقة الاسلام ، وتولد منها أسلوب
جديد له طابعه الخاص وشخصيته الواضحة ،
واتسم هذا الأسلوب بصفات تكاد تكون واحدة
فى كل أنحاء العالم الاسلامى نتيجة للوحدة الروحية
فى البلاد التى خضعت له . وساعد على تثبيت هذه
الوحدة الروحية بعض التقارب النفسى بين الشعوب
الشرقية ، وسهولة الاتصالات الفكرية والاقتصادية
فى بلاد العالم الاسلامى جميعها ، حتى فى أشد
عصوره انقساماً .

وكان لاختيار بنى أمية الشام مركزا للخلافة

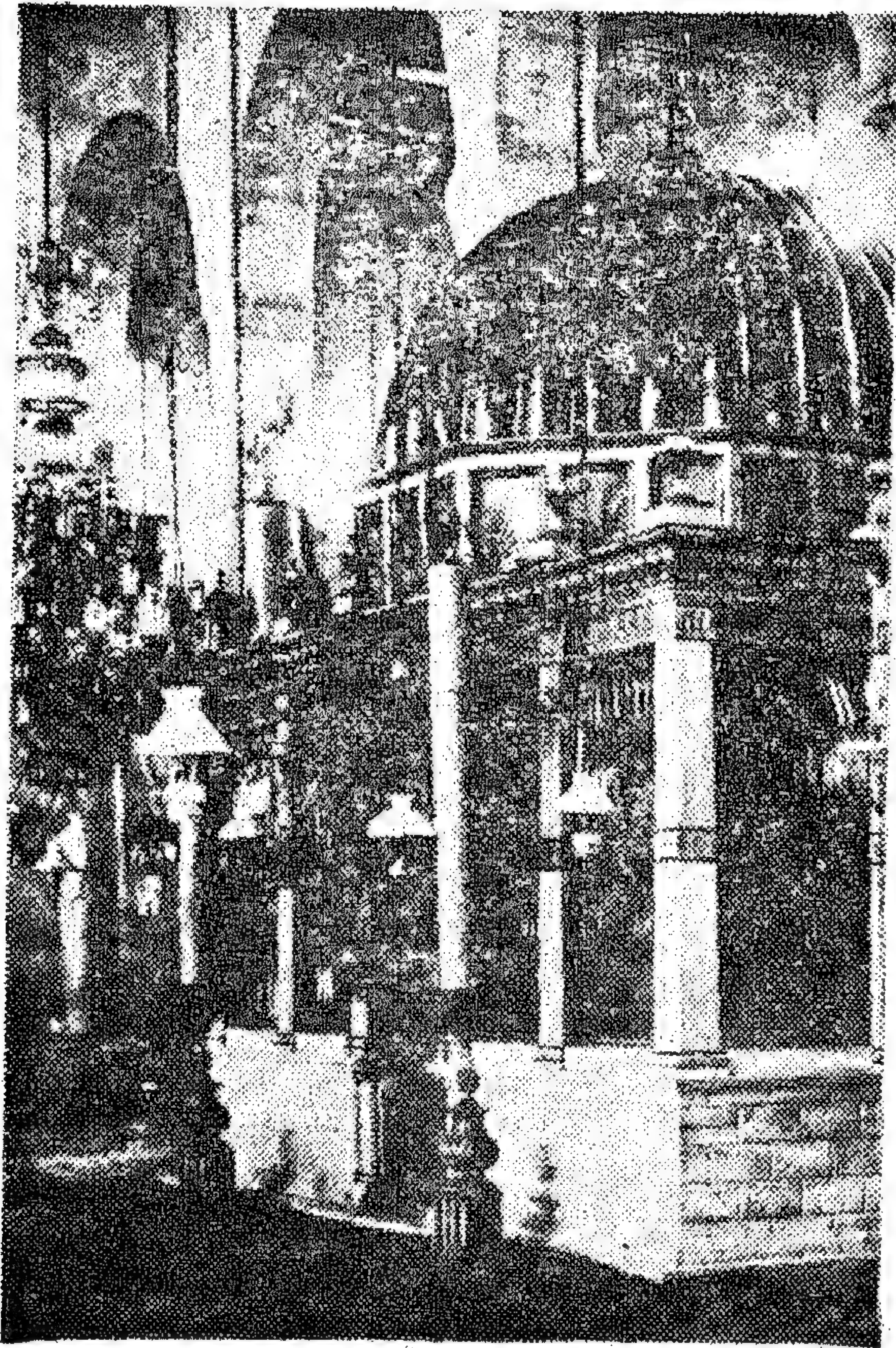
ربط الاسلام بين العرب ، ولم شعثهم ووجد
بصفوفهم ، وخلق منهم قوة هائلة ، فمضوا يهزون
العالم بانتصاراتهم ، ويخضعون أما عريقة فى
الحضارة . وما لبثوا أن تغلبوا على الامبراطورية
الساسانية ، واستولوا على أكثر ولايات
الامبراطورية البيزنطية فى سنوات معدودات .

وهكذا ارتفعت أعلام الاسلام فى فارس والعراق
والشام ومصر تمهيدا لما أحرزه بعد ذلك من
انتصارات تجاوزت كل تقدير فى الحسبان ... اذ
حرر بلاد المغرب والأندلس ، وطرق أبواب الهند
والصين والحبشة والسودان والأرض الكبيرة
(فرنسا) والقسطنطينية ، واستطاع أن يقيم
امبراطورية مترامية الأطراف تمتد من بلاد الصين
شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، وربط بين شعوبها
برابطة روحية قوية هى رابطة الدين . ثم نشأت
رابطة أخرى قوية من التقارب الاجتماعى بين
العرب وأهل البلاد المفتوحة عن طريق المصاهرة ،
وأصبح اندماج العرب والأعاجم من الوجهة
الفسولوجية والاجتماعية جيلا بعد جيل ، وطبقة
بعد طبقة ، حقيقة واقعة ... وهكذا دان للعرب
وثنيون ومسيحيون يتميز العدد الأعظم منهم بسمو
فى الثقافة وتفوق فى الحضارة .

وما كاد العرب يخلدون بعد الفتوح الى حياة
السلم حتى أخذوا فى استقرارهم يحوطون أنفسهم
بكل مظاهر الأبهة والاستمتاع بالحياة ، فأقبلوا
على الترف ، وحرصوا على التزين . ولم يكن

اتتهى الى نصف الكنيسة وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى ، ودخل خالد بن الوليد عنوة من الجانب الشرقى ، وانهى الى النصف الثانى — وهو الشرقى — فاحتازه المسلمون ، وصيره مسجدا ، وبقي النصف المصالح عليه — وهو الغربى — كنيسة بأيدي المسيحيين .

وهكذا شاطر المسلمون نصارى دمشق كنيستهم الكبرى ، وأقاموا في نصف الكنيسة الشرقى صلاتهم . فلما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة (٨٨ — ٩٦ للهجرة ، ٧٠٧ — ٧١٤ م) رأى أن يقيم مسجدا جامعا للمسلمين ، لا يقل عظمة عن الكنائس البيزنطية الكبرى ... فقد « رأى الشام بلد النصارى ، ورأى لهم فيها بيعة حسنة قد بولغ في زخارفها ، وانتشر ذكرها — كالقيامة ، وبيعة



مشهد يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) بجامع دمشق

الأموية أثره البالغ في تأثرهم ببعض الطرز الفنية التى كانت سائدة في الشام حيث ازدهرت مدارس الفن الهلينستى والبيزنطى المتأثر ببعض أساليب الفن الساسانى بحكم الجوار . وشاهد المسلمون العمائر المسيحية البيزنطية بالشام ، وكان من الطبيعى أن يتأثروا بها حين شرعوا في تشييد أبنيتهم الدينية والمدنية تضارع في عظمتها أبنية الروم وكنائسهم ، فاعتمدوا بادىء ذى بدء على الصنائع السوريين والقبط ، وتعلمدوا على أيديهم ، وأقاموا أبنية نطالع فيها التقاليد الفنية البيزنطية والساسانية .

والواقع أن بلاد الشام ، على الرغم مما أصيبت به من جراء الغزو الفارسى والفتح الإسلامى ، كانت أكثر بلاد حوض البحر المتوسط تحضرا ، ولم يكن يضارعها ويفوقها في ميدان الفكر والفن سوى بيزنطة . وهكذا تلقى الأمويون تراث الهلينية ، واستخدموا الفنانين المحليين في أبنيتهم ، لذلك جاء الفن الأموى فنا هليسنى الطابع . ويذكر البلاذرى في كتابه « فتوح البلدان » أن الوليد بن عبد الملك ابن مروان كتب الى عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم مسجد المدينة وبناءه من جديد ، « وبعث اليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعا من الروم والقبط من أهل الشام ومصر ، فبناه وزاد فيه » .

الجامع الأموى بدمشق

جامع دمشق يقوم على موضع كنيسة يوحنا المعمدان (St. Juan Babtist) التى أقامها الامبراطور تيودوسيوس داخل معبد الاله جوبيتر الدمشقى . وهو معبد وثنى قديم ، احتفظت الكنيسة بجدرانه الخارجية وأبراجه الصماء الأربعة . فلما دخل أبو عبيدة بن الجراح مدينة دمشق من الجهة الغربية

لد ، والرها — فاتخذ للمسلمين مسجدا شغلهم به
عنهن ، وجعله إحدى عجائب الدنيا .

بأمر الوليد بمفاوضة أصحاب الكنيسة في التخلي
عن شطرهم ، وعرض عليهم مالا كثيرا مقابل تنازلهم
عن هذا الشطر . فأبوا ، فاتتزعهم منهم قهرا « وطلع
لهدمه بنفسه . وكانوا يزعمون أن الذي يهدم
كنيستهم يجن ، فبادر الوليد وقال : أنا أول من
يجن في الله . وبدأ الهدم بيده ، فبادر المسلمون
وأكملوا هدمه .

واستقدم الوليد لبناء الجامع الجديد عددا كبيرا
من الصناع والبنائين من مختلف أنحاء العالم
الاسلامى . وقيل انه كتب الى ملك الروم يطلب
منه أن يوجه اليه مائتى صانع من بلاده ، وأن
ملك الروم أجابه الى ما طلب . وقيل انه كتب
الى ملك الروم ، حين أزمع تجديد جامع المدينة ،
قائلا : « انا نريد أن نعلم مسجد نبينا الأعظم ،
فأعنا فيه بعمال وفسيفساء » . فبعث اليه
الامبراطور بأعمال من فسيفساء وبضعة وعشرين
عاملا .

وذكر ابن جبير أنه وجه الى ملك الروم
بالقسطنطينية يأمره بأشخاص اثنى عشر ألفا من
الصناع من بلاده ، وتقدم اليه بالوعيد في ذلك
أن توقف عنه ، فامتثل أمره مدعنا بعد مراسلة
جرت بينهما في ذلك . وذكر المقدسى أن الوليد
استحضر لبناء جامع دمشق حذاق الفنانين من
فارس والهند وافريقية وبيزنطة . ويبدو أن في
هذا القول بعض المبالغة ، إذ أن الهند لم تكن قد
دخلت بعد في ملك الدولة الأموية .

أما مساهمة الصناع البيزنطيين فأمر لا شك
فيه ، إذ أن جدران الجامع كله « أنزلت بفصوص
من الذهب ، وخلطت بها أنواع من الأصبغة
الغريبة قد مثلت أشجارا ، وفرعت أغصانا منظومة

بالفصوص بدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة وصف
كل واصف ، فجاء يغشى العيون وميضاً وبصيصاً .

ويبدو من دقة هذه الزخارف التي تؤلفها
الفسيفساء أن هذه الفسيفساء أنزلت بأيدي عمال
بيزنطيين لم يشترك معهم صناع محليون من
دمشق ... إذ أن أسلوب الزخرفة بيزنطى بحت ،
لأن الزخارف تمثل مناظر طبيعية وأشجارا وقصورا
طابعها كلاسيكى بحت يمكن أن نطلق عليه الطابع
البومبيني ، في حين تمثل زخارف الفسيفساء في
قبة الصخرة مناظر نباتية ذات طابع تجريدى يكشف
عن اشتراك الفنانين السوريين في عملها وصنعها .

عنى الوليد بن عبد الملك ببناء جامع دمشق ،
حاضرة الدولة الأموية ، عناية كبيرة ، وبلغ في بنائه
الغاية في التألق والاتقان ، وجعل منه بحق تحفة
من تحف فن العمارة الاسلامية في عصر مبكر
لم يكن للمسلمين آثار تذكر . واستغرق بناء
الجامع عشر سنوات ، وأنفق فيه نفقات كثيرة
(قيل انها بلغت مائة صندوق ، في كل صندوق
ثمانية وعشرون ألف دينار ومائتا ألف دينار) .
فلما أتمه قال لأهل دمشق : « يا أهل دمشق انكم
تفخرون على الناس بأربع : بهوائكم ومائكم
وفكاكتكم وحمائمكم ، فأحببت أن أزيدكم خامسة
وهي هذا المعبد » .

ويزعم بعض مؤرخى الفن أن الوليد لم يهدم
الكنيسة ، وإنما فتح الجدار الفاصل بين الجزء
الشرقى الذى كان يشغله المسجد القديم ، والجزء
الغربى الذى كانت تقوم فيه الكنيسة ، وأقام
مكانه رواقا يؤدى الى المحراب ، وشيد فوق
منتصف هذا البلاط قبة . ويستدل هؤلاء
المؤرخون على ذلك بأن الجامع يحتفظ في تخطيطه
بنظام البازيليكا ، وأن أعمدته وتيجانها كلها
كلاسيكية قديمة ، وأن الأبراج الأربعة التى كانت



بيت المال بجامع دمشق

ضخمة . وينتهي هذا البلاط الأوسط بالمحراب ، وهو يشبه المجاز في الكنائس .

وأسقف هذه البلاطات منشورية ، وتقوم في منتصف البلاط الأوسط قبة حجرية أضيفت في عصر متأخر . ويحيط بالصحن مجنبات ثلاث تطل عليه بعقود متجاوزة تشبه حدوة الفرس . وكان الجامع الذي بناه الوليد يشتمل على أربع صوامع للأذان لم يبق منها سوى واحدة في الزاوية الجنوبية الغربية . أما المئذنتان اللتان نراهما اليوم بالمسجد فمتأخرتان .

وجامع دمشق أول جامع استخدمت فيه المآذن للأذان ، وتبعه في ذلك جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، إذ أدخلت فيه — في ولاية مسلمة

تقوم في أركان الكنيسة ظلت تستخدم مآذن للمسجد .

الا أن الأستاذ « كريسويل » يصر على أن الكنيسة التي أقامها تيودوسيوس كانت تقوم في وسط المعبد الوثني القديم المستطيل ، وأنها لم تكن تشغل جانباً منه بحيث تستند على أحد جدرانها كما هو الحال في جامع الوليد . ويؤكد كريسويل أن الكنيسة هدمت كلها ، وأقيم الجامع على موضعها . ويؤيد ذلك ما ذكره المؤرخون من أن الوليد هدم الكنيسة كلها ، فالمسعودي قرأ في جدار المسجد بالذهب على اللازورد : « أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين » .

وادعاء هؤلاء المؤرخين بقاء الكنيسة بمائل ادعاءهم بقاء جدار كنيسة سانت بنجنت بقرطبة ، مع أن الأمير عبد الرحمن الداخل هدمها ، وأقام على موضعها مسجده الجامع ، وأن الأمير عبد الرحمن الأوسط أضاف إلى بلاطات هذا الجامع الأول بلاطين جانبيين الغربي منهما هو الذي نراه اليوم .

ويتألف المسجد الجامع بدمشق من صحن مستطيل مكشوف ، وبيت للصلاة مسقوف طوله ١٣٦ متراً وعرضه ٣٧ متراً ، ويتكون هذا الجزء المسقوف من ثلاثة بلاطات تمتد من الشرق إلى الغرب بحذاء جدار القبلة ، يفصل فيما بينها ثلاثة صفوف من عقود نصف دائرية متجاوزة بعض الشيء ، تقوم على أعمدة رخامية ، ويعلو كل عقد منها طاقتان نافذتان معقودتان . ويتوسط البلاطات الثلاثة بلاط عمودي على جدار القبلة أكثر ارتفاعاً من بقية البلاطات ، تعلو منتصفه قبة حجرية

ابن مخلد عام ٥٣ هـ - أربع صوامع . ومن
مآذن جامع دمشق انتشر نظام المآذن المربعة
بصفة خاصة في بلاد المغرب والأندلس . ولا يزال
هذا النوع من المآذن منتشرا في المغرب ، ويطلق
عليه الاسم القديم وهو الصومعة .

ولقد أصيب جامع دمشق بأضرار جسيمة ، فقد
أحرق خمس مرات ، وأعيد بناؤه وجدد ، وفقد
كثيرا من عناصره الأولى ، ولكنه لا يزال يحتفظ
بتخطيطه الأول في العصر الأموي ... ففي عام
٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) امتدت اليه النيران من دار
مجاورة له فالتهمت أسقفه ، وأحرق فسيفساءه ،
وهدمت قبته وشوهدت عمارته . ثم أصلح وأعيد
اليه بهاؤه القديم . وفي عام ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م)
حدث زلزال عنيف في مصر والشام تسبب في اسقاط
قمة المئذنة الشرقية وسقوط ١٦ شرفة ، وتشقق
القبلة المعروفة بقبة النسر وسقوطها . وفي عام
٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) احترقت مئذنته الشرقية . وفي
عام ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) قام الظاهر بيبرس بإزالة
الصناديق والخزانة من الجامع ، ومنع المجاورين
والزهاد من المبيت فيه ، وأصلح وزراته
وفسيفساءه ، ونظف عمده ، وذهب تيجانها ،
وبنى مشهد زين العابدين .

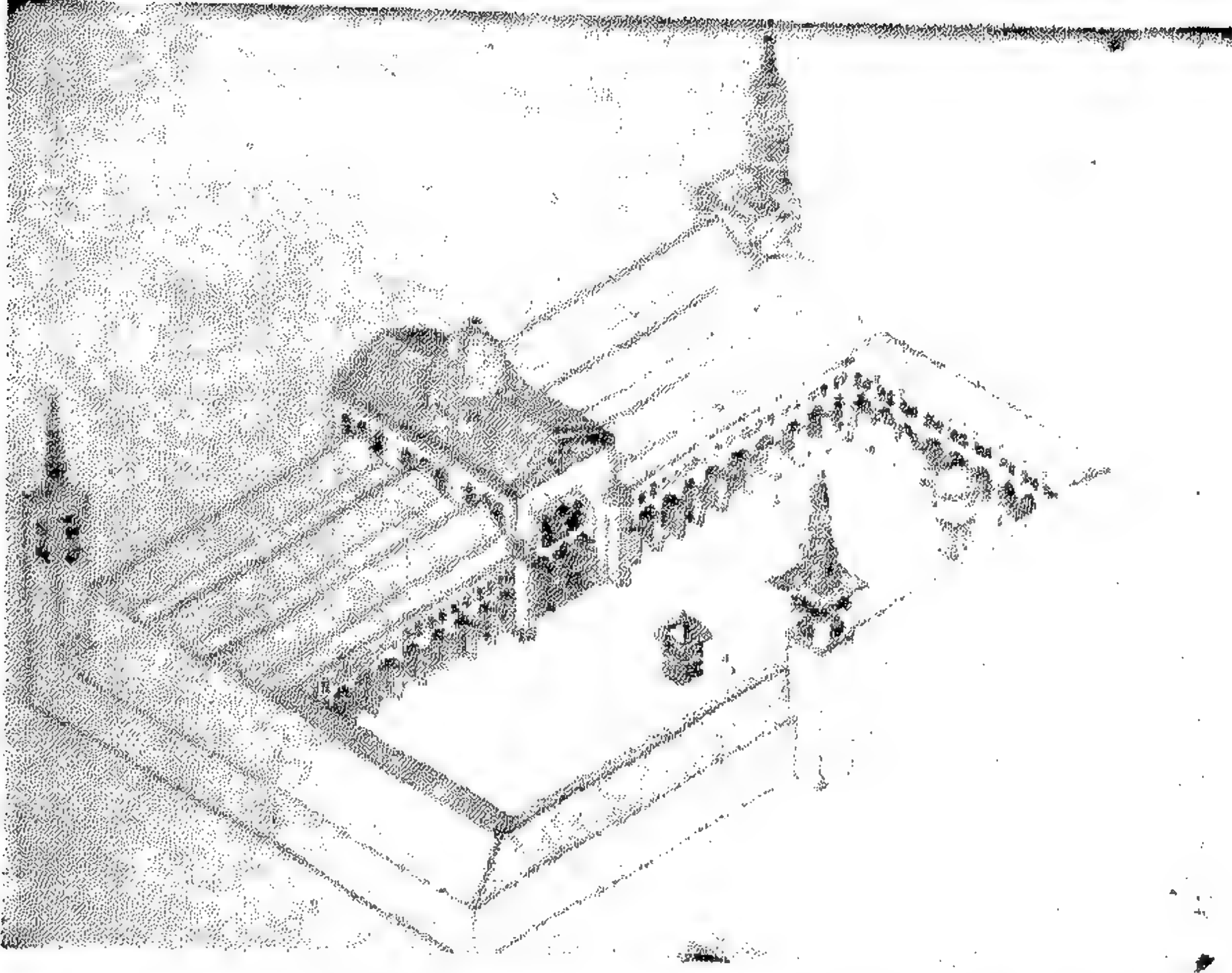
وعنى الملك الناصر محمد بن قلاوون بتجميل
هذا الجامع ، فأمر بأصلاح وزراته الرخامية . وفي
عام ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) احترق سوق اللبادين
وسوق جيرون ، وامتدت النيران منهما الى سور
الجامع . وفي عام ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) احترق
المسجد بسبب الأسواق التي كانت تحيط به ، ثم
أعيد بناء منارة عيسى . وفي عام ٧٩٤ هـ (١٣٩١ م)
احترق سور الزجاجين والجلوديين والنحاسين
والوراقين والصباغة ، واحترق الجامع ما عدا قبة

زكريا . ثم احترق الجامع مرة أخرى عام ٨٠٣ هـ
وسقطت أسقفه وأزيلت أبوابه .

وفي عام ١١٧٣ هـ (١٧٥٩ م) تهدمت أجزاء
من قبة النسر والمجنية الشمالية على أثر زلزال .
وفي عام ١٣١٠ هـ أحرق المسجد ، ثم أصلح القسم
الشرقي منه عام ١٣١٧ هـ (١٩٠٠ م) وتم اصلاح
القسم الغربي منه بعد ذلك . ولم يتبق من المسجد
القديم الا بقايا من الرخام المجزع في بعض الأبواب
وبعض الفسيفساء على عقود الأبواب وعقود
الصحن وخواصر العقود . وتبقت في صحن
المسجد قبة بيت المال ، وهي بناء مثنى يقوم على
ثمانية أعمدة رخامية وتعلوه قبة مكسوة
بالرصاص .

ولجامع دمشق في وقتنا الحاضر ثلاث مآذن :
أحدها المئذنة القديمة الواقعة في الركن الجنوبي
الغربي ، وأحدى المئذنتين الأخريين من بناء
السلطان الملك الأشرف قايتباي . أما الفوارة
الرخامية المقامة في وسط الصحن فترجع هي وقبتها
الى عام ٣٩٦ هـ (١٠٠٥ م) .

ولقد زار هذا الجامع عدد كبير من الرحالة
المسلمين في العصور الوسطى ، ووصفوه وصفا
دقيقا . ومن هؤلاء المؤرخ الجغرافي شمس الدين
أبو عبد الله محمد بن أحمد البناء الشامي المقدسي ،
فقال : « قد رفعت قواعده بالحجارة ، وجعل عليها
شرف بهية ، وجعلت أساطينه أعمدة سود على
ثلاثة صفوف واسعة جدا . وفي الوسط ازاء
المحراب قبة كبيرة ، وأدير على الصحن أروقة
متعالية فوقها عقود صغيرة ، وقد بلط جميعه
بالرخام ، وكسيت جدرانها الى ارتفاع قامتين
بالرخام المجزع ، ثم الى السقف بالفسيفساء الملونة
المذهبة ، وبها صور أشجار وأمصار وكتابات في
غاية الحسن والدقة ولطافة الصنع .. وطلبت



رسم يبين جامع دمشق بصورته الحالية وترى فيه مآذنه الثلاثة

وقد شاهد ابن جبير هذا الباب من قبل ، ووصفه وصفا رائعا بقوله : « وعن بين الخارج من باب جيرون ، في جدار البلاط الذي أمامه ، غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر ، قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار ، ودبرت تدييرا هندسيا ... فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازين مصورين من صفر ، قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما : أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثاني تحت آخرها . والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البازين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ، ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا . وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوى ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها ، وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها الأول ... »

« ولها بالليل تدبير آخر . وذلك أن في القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة ، وتعرض في كل دائرة

رءوس الأعمدة بالذهب . وعقود الأورقة وجدرانها كلها مرصعة بالفسيفساء . والشرافيات مكسوة من الوجهين بالفسيفساء ، والسطوح كلها مكسوة بالرصاص . وعلى المئمة في الصحن بيت مال على ثمانية عمد ، مرصعة حيطانه بالفسيفساء . وفي المحراب وحوله فصوص عتيقية وفيروزية كأكبر ما يكون من الفصوص ، وعلى الميسرة محراب آخر دون هذا ... وعلى رأس القبة أترجة فوقها رمانة كلتاها ذهب . »

ثم يذكر الأبواب التي يدخل منها الداخلون الى الجامع فيقول : « ويدخل اليه العامة من أربعة أبواب : باب البريد عن اليمين كبير ، وهو مكون من ثلاث فتحات ، غشيت مصاريعها بالنحاس المذهب . وعلى الباب وجانيه ثلاثة أروقة ، كل باب منها يفتح الى رواق طويل قد عقدت قناطره على أعمدة رخام ، وكسيت جدرانها بالرخام والفسيفساء . وجميع السقوف مزوقة أحسن تزويق . وفي هذه الأروقة موضع الوراقين ومجلس خليفة القاضي . وهذا الباب بين المغطى والصحن يقابله عن اليسار باب جيرون على ما ذكرنا . غير أن الأروقة معقودة بالعرض ، يصعد اليها في درج يجلس فيه المنجمون وأضرابهم . »

ويشير اشارة سريعة الى باب الساعات فيقول : « وباب الساعات في زاوية المغطى الشرقية عليه مصراعان ساذجان . »

وهذا الباب هو الذي وصفه الرحالة ابن فضل الله العمري في القرن الرابع عشر للميلاد ، وذكر أنه سمي كذلك نسبة الى ساعة مائية يعلم بها كل ساعة « تمضي عليها عصافير من نحاس وحية وغراب من نحاس أيضا ، فاذا تمت الساعة خرجت الحية ، وصفرت العصافير ، وصاح الغراب ، وسقطت حصاة في الطست . »

زجاجة من داخل الجدار في الغرفة ، مدبرا ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة ، وخلف الزجاج مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت ، عم الزجاج ضوء المصباح ، وفاض على الدائرة أمامها شعاعها ، فلاحت للأبصار دائرة محمرة ، ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل ، وتحمر الدوائر كلها ... وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج الى موضعها ، وهي التي يسميها الناس المنجاة » .

وتشبه هذه الساعة ساعة يطلق عليها منجاة تقع على أحد جدران المدرسة البوعنانية بفاس ، وكانت مزودة بطاسات وكتوس من البرنز .

وقد زار جامع دمشق الرحالة الجغرافي أحمد ابن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه ، كما زاره ابراهيم بن أبي الليث الكاتب عام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) ، ووصفه وصفا رائعا . ويعد وصف ابن جبير للجامع أروع هذه الأوصاف تصورا لحقيقة الجامع ، وهو وصف تفصيلي دقيق ، وذكر تخطيط الجامع في قوله : « وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق الى الغرب ، سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة ، والخطوة ذراع ونصف . وقد قامت على ثمانية وستين عمودا منها أربع وخمسون سارية وثمانى أرجل جصية تتخللها ... » .

ثم يصف البلاط الأوسط وقبته فيقول : « وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم ، مرصعة بفصوص من الرخام ملونة ، قد نظمت خواتيم ، وصورت محاريب وأشكالا غريبة ، قائمة في البلاط الأوسط تقل قبة الرصاص مع القبة التي تلى المحراب ... » .

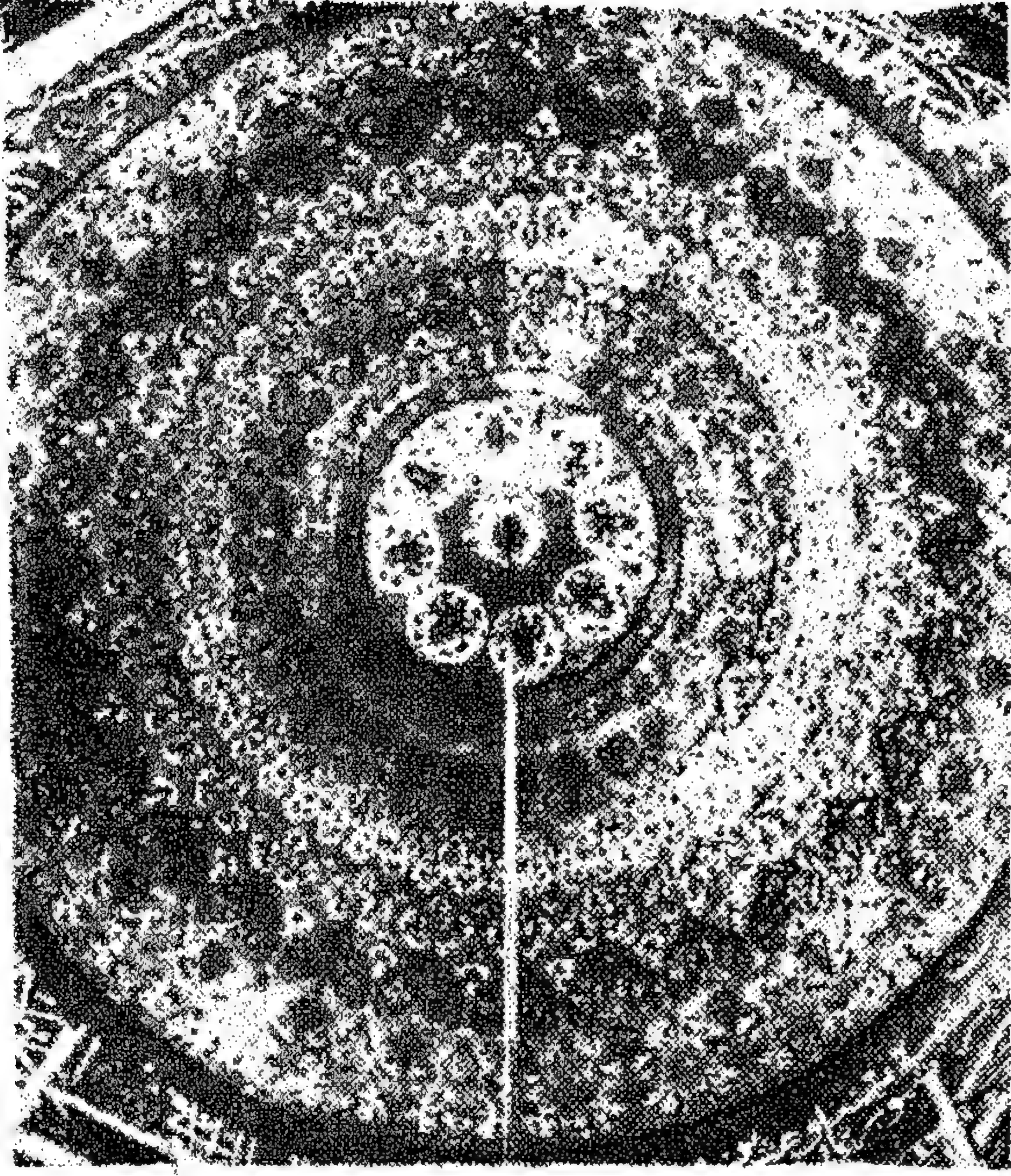
ثم يصف المآذن الثلاث فيقول : « وللجامع

ثلاث صوامع : واحدة في الجانب الغربى ، وهي كالبرج المشيد تحتوى على مساكن متسعة وزوايا فسيحة راجعة كلها الى أغلاق يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير ، والبيت الأعلى منها كان معتكف أبى حامد الغزالي ... وثانية بالجانب الغربى على هذه الصفة ، وثالثة بالجانب الشمالى على الباب المعروف بباب الناطفين » .

ويذكر بيت المال فيقول : « وفي الصحن ثلاث قباب : احداها في الجانب الغربى منه ، وهي أكبرها ، وهي قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج ، مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة كأنها الروضة حسنا ، وعليها قبة الرصاص كأنها الثنور العظيم الاستدارة ، يقال انها كانت مخزنا لمال الجامع ... وقبة أخرى صغيرة في وسط الصحن ، مجوفة مشنة من رخام قد ألصق أبدع الصاق ، قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام ، وتحتها شباك حديد مستدير وفي وسطه أنبوب من الصفر يمج الماء الى علو ، فيرتفع وينثنى كأنه قضيب لجين يشره الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافا له واستحسانا ... » .

ويذكر ابن جبير أيضا ما أصاب الجامع من حريق فيقول : « وكان هذا الجامع المبارك ظاهرا وباطنا منزلا كله بالفصوص المذهبة ، مزخرفا بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة ، فأدركه الحريق مرتين ، فتهدم وجدد وذهب أكثر رخامه فاستحال روثقه ... »

ويستمر ابن جبير في وصف الجامع وصفا طويلا لا يترك فيه صغيرة أو كبيرة . ومن العجيب حقا أن يحتفظ جامع دمشق بمشهد رأس القديس يوحنا المعمدان ، وكان موجودا من قبل بالكنيسة المسماة باسمه . وقد زاره ابن جبير ووصفه قائلا : « ومن مشاهد المكرمة وآثاره المعظمة أولها



الجزء الداخلى .. قبة الصخرة بيت المال

قد نقل تصميمها من قبة كنيسة القيامة التي تكاد تساويها حجما ، والتي تقع على مقربة منها . وبالغ مهندس القبة في تنميق زحارفها ، وأسرف في تزيينها بالنسيفساء وأنواع الفصوص .

شرع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في بناء قبة الصخرة في عام ٧١ هـ (٦٩٠ م) ، وأتم بناءها عام ٧٢ هـ ، واختار لبنائها أكثر المواضع ارتفاعا من ساحة الحرم الشريف بيت المقدس ، وهو المكان الذي قيل ان ابراهيم عليه السلام اقتدى فيه ابنه ، وهو المكان الذي صعد منه الرسول الى السماء على البراق ليلة الاسراء .

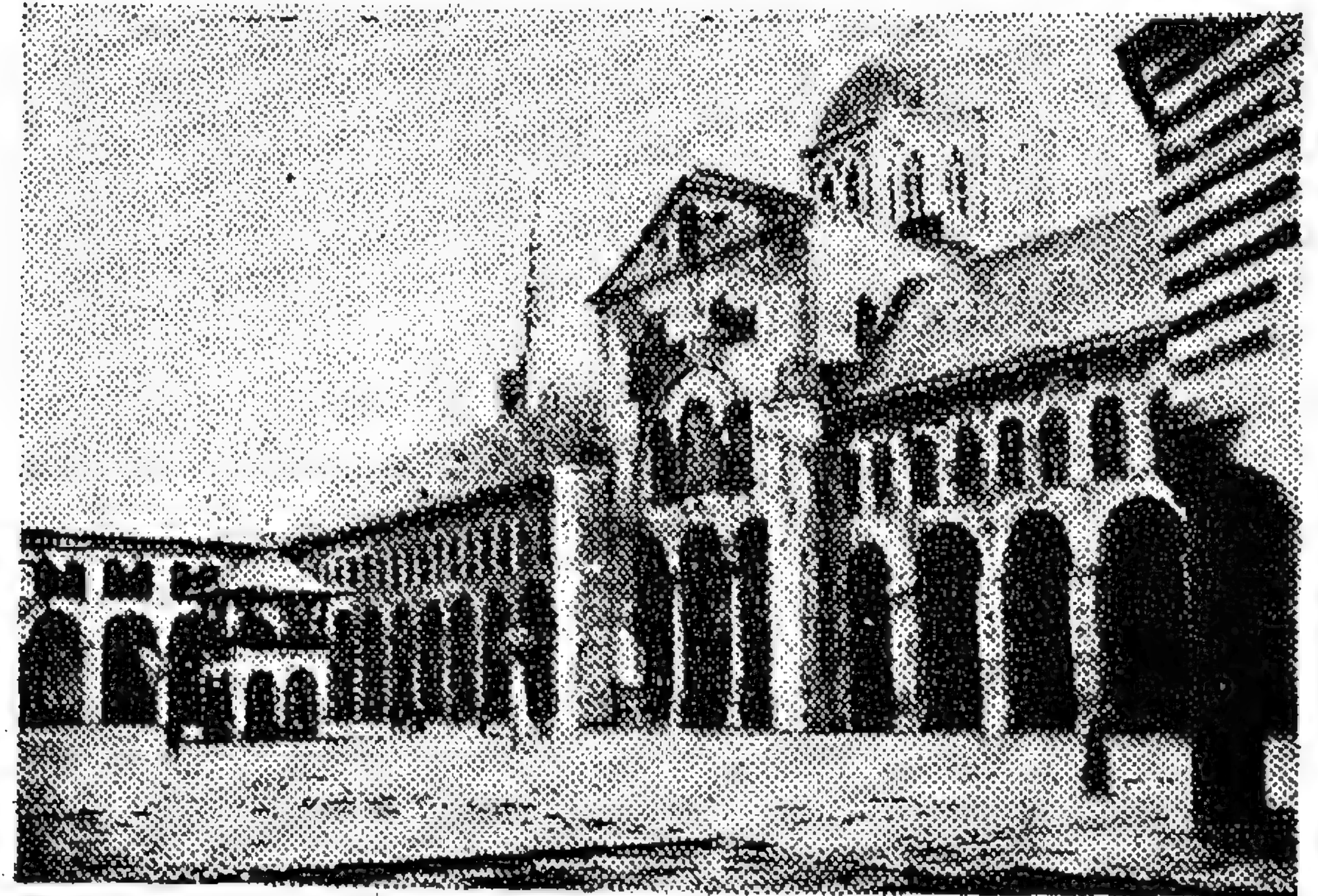
وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد أقام في هذا الموضع مسجدا عند زيارته لبلاد الشام عام ١٦ هـ زمن الفتوح ، وأقيم بالفعل في هذا الموضوع مصلى من الخشب سمي بمسجد عمر . فلما كانت أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، أمر بإنشاء هذه القبة ، فسميت بقبة الصخرة نسبة الى

مشهد رأس يحيى بن زكرياء عليهما السلام ، وهو مدفون بالجامع المكرم في البلاط القبلى قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية ... وعليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة ، وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف ... » .

قبة الصخرة بيت المقدس

تعد قبة الصخرة أروع العماائر الأموية في بلاد الشام ، وتنفرد بين المساجد الإسلامية بتصميمها الغريب الذى يقربها من نظم الأضرحة المسيحية المثمنة أو المستديرة . وتشبه في نظامها بعض الأبنية المسيحية المثمنة التي أقامها الامبراطور جستنيان في أنطاكية ككنيسة العذراء .

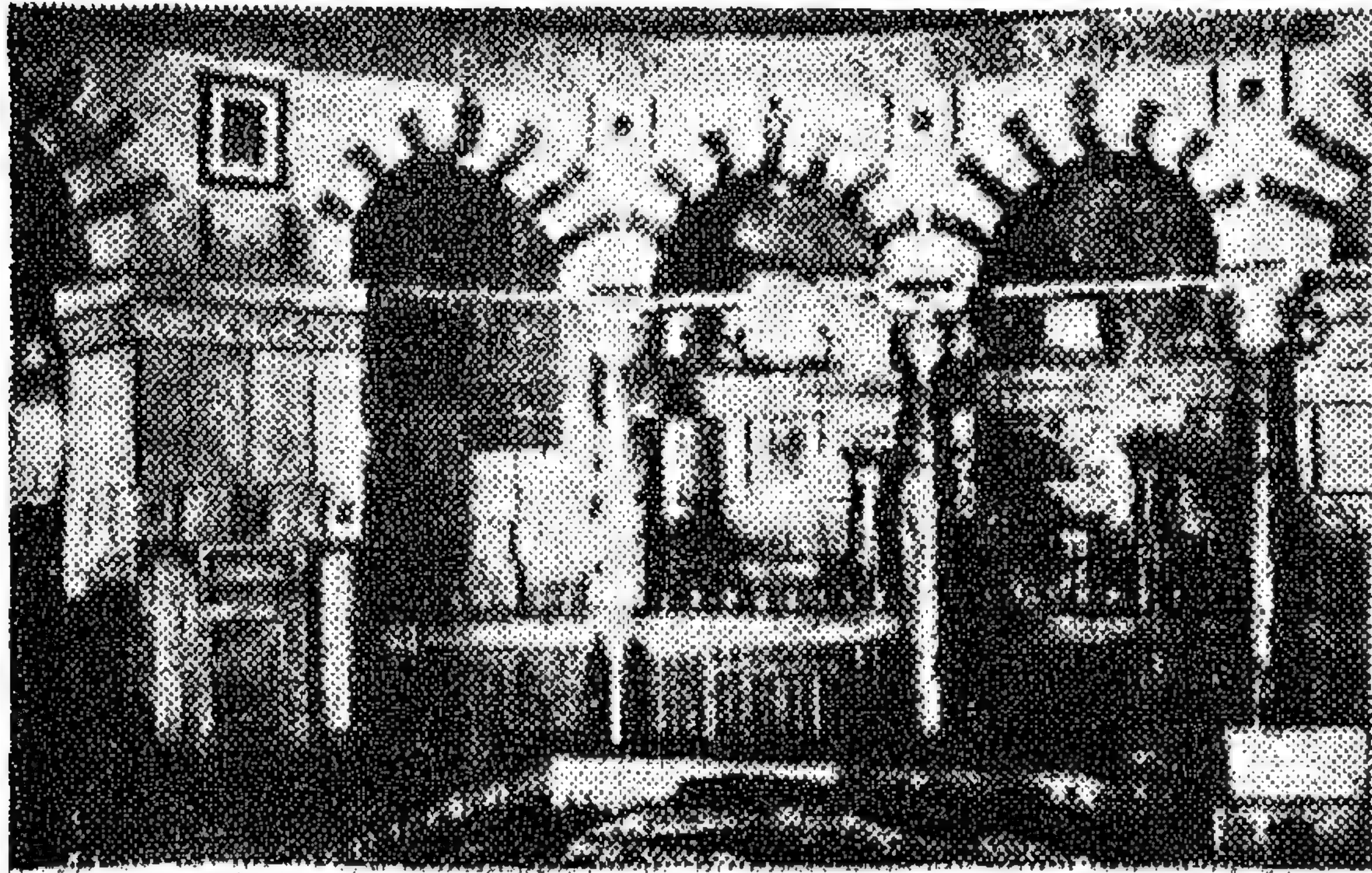
وتقع قبة الصخرة في وسط الحرم الشريف بيت المقدس ، وكانت هذه البقعة موضع احترام اليهود والمسيحيين والمسلمين على السواء . ويغلب على الظن أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذى يرجع اليه الفضل في انشائها ، كان يرمى من وراء ذلك الى غرض معين هو تعظيم الصخرة المقدسة ، واحاطتها بسياج يحفظها من عبث العابثين ... كما أنه أراد أن يقيم بناء ينافس الكنيسة المشهورة المجاورة لها والتي تحتفظ بالضريح المقدس . وقد يكون مهندس قبة الصخرة



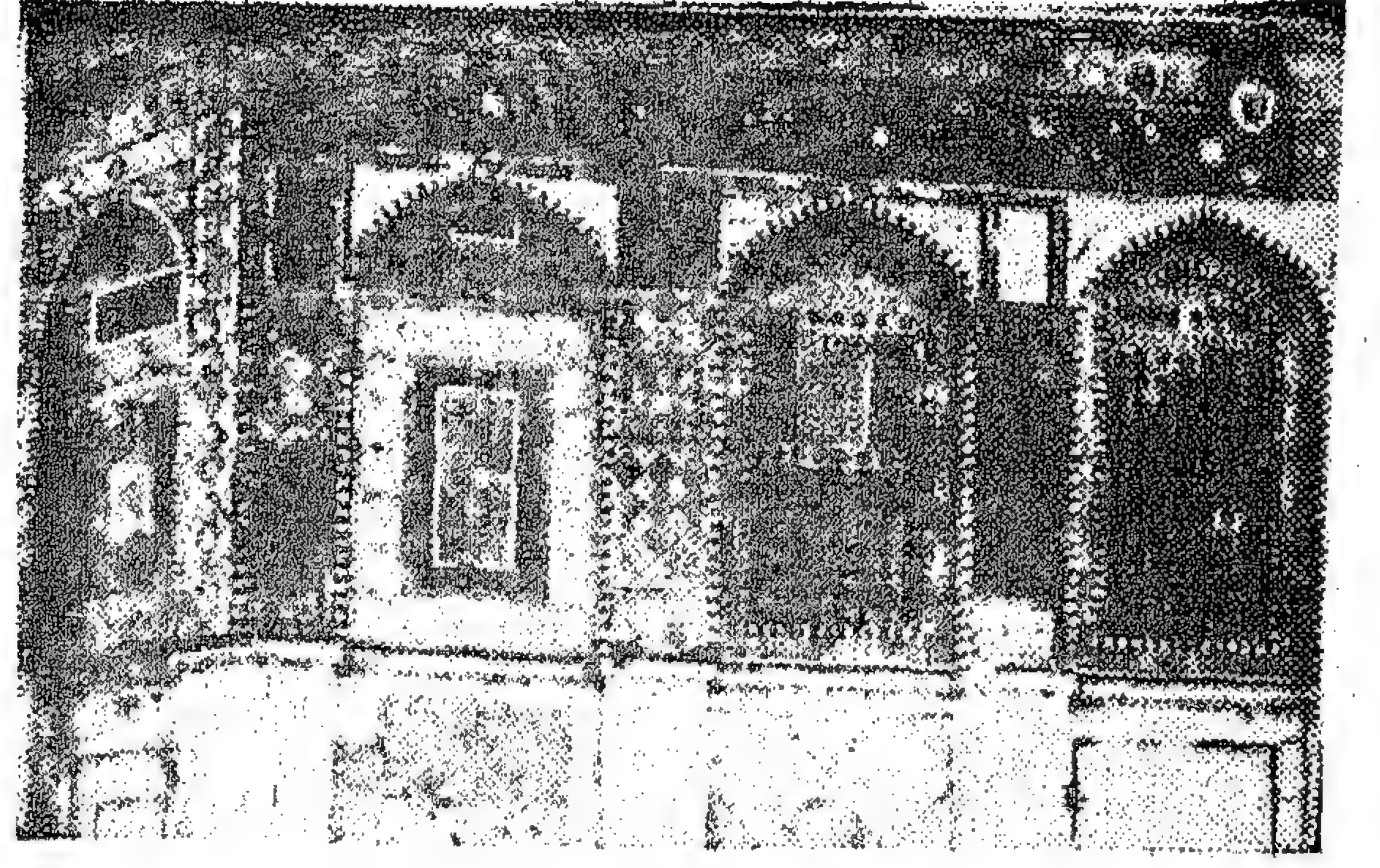
مسجد الجامع الاموى بدمشق وترى ليه واجهة بيت الصلاة

بين روائع العمارة المسيحية في بلاد الشام . ولقد جاء بناء قبة الصخرة في وقت كان الاسلام محتاجا فيه الى ابنية فخمة رائعة ليجارى الكنائس الرومانية العظيمة . وقد وفق الخليفة في بنائها توفيقا تاما ، وتأنق في زخرفتها تأنقا رائعا ، فكانت قبة الصخرة بحق تحفة اسلامية لجمالها وابداع زخارفها وبساطة تصميمها وتناسق اجزائها . وقد ظل تصميمها فريدا في العمارة الاسلامية في عصورها المختلفة ، لأن نظام المساجد لا يتفق على الاطلاق مع نظام البناء المثلث . وليس معنى هذا أن الاسلام لم يستخدم هذه الأبنية المثلثة ، فقد كانت هناك أبنية اسلامية ذات تصميم مركزي ، ولكن هذه الأبنية اتخذت لأغراض أخرى ، وكانت وقفا على الأضرحة .

وقبة الصخرة بناء حجري مثلث ، طول ضلعه ٢٠.٥٠ مترا ، تتوسطه قبة شديدة الارتفاع مصنوعة من الخشب ومغطاة من الخارج بطبقة من الرصاص ، ومكسوة من الداخل بطبقة جصية . وتقوم القبة على رقبة أسطوانية تنفتح فيها ١٦ نافذة ، وتتكىء هذه الرقبة على دائرة من العقود نصف دائرية ، وتقوم هذه العقود بدورها على دائرة من الأعمدة والدعائم ، وبين هذه الدائرة من العقود والمثلث الخارجى مثلث أوسط من الأعمدة والدعائم ، ويدور بين هاتين الدائرتين من الأعمدة



الصخرة وجولها العقود القائمة على العمود والدعائم

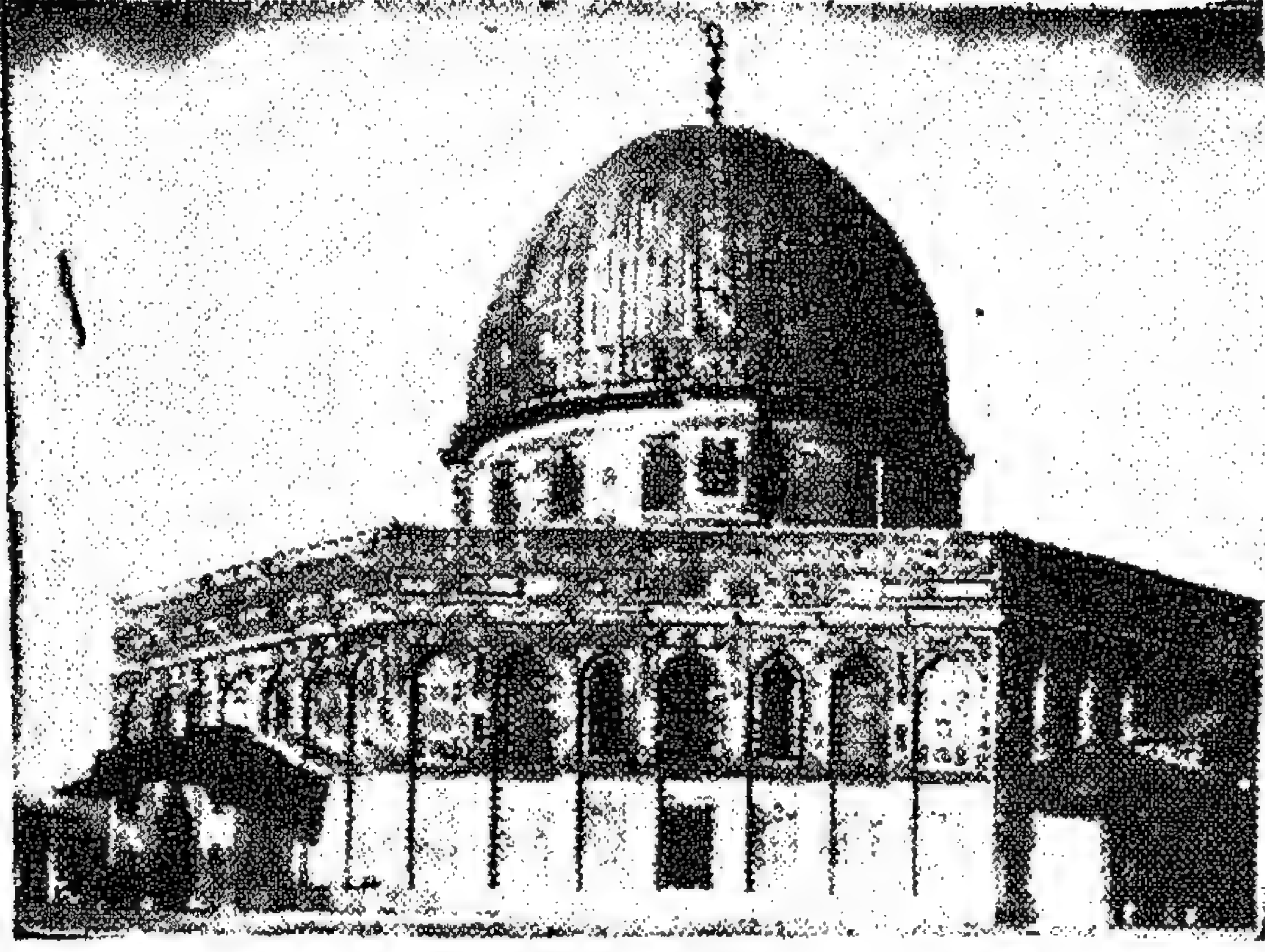


جانب من الجوانب الخارجية لقبة الصخرة

الصخرة المقدسة ، وأطلق عليها أحيانا اسم جامع عمر نسبة لجامع عمر الذي أقيمت قبة الصخرة على بقعته .

على أن بعض المؤرخين العرب يعللون بناء قبة الصخرة تعليلا لا يقبله المنطق . ويذكر اليعقوبى (المتوفى عام ٢٨٤ هـ) أن « عبد الملك منع أهل الشام من الحج ، وذلك أن عبد الله بن الزبير كان يأخذهم اذا حجوا بالبيعة ، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج الى مكة ، فضج الناس وقالوا : تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا ؟ فقال : هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله قال : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي ، ومسجد بيت المقدس وهو يقوم لكم مقام المسجد » . وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد الى السماء تقوم لكم مقام الكعبة ، فبنى على الصخرة قبة ، وعلق عليها ستور الديباج ، وأقام لها سدنة ، وأخذ الناس يطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة » .

ولحن لا نرجح هذا التعليل لأن عبد الملك لا يمكن أن يقدم على تغيير شعائر الدين الاسلامي فيأمر بتحويل الحج عن الكعبة . ولكننا نعتقد أن الخليفة الأموي أراد أن يقيم بناء يعتز به الاسلام



منظر عام لقبة الصخرة ببيت المقدس

النص ... ثم ان اسم الخليفة المأمون وألقابه مكتوبة بخط يختلف كل الاختلاف عن خط بقية النص الكتابي ، مما يقطع بأن هذا الاسم وضع في عهد هذا الخليفة . ويبدو أن الخليفة المأمون قد أصلح القبة التي بناها عبد الملك عام ٧٢ هـ فحاش اسم عبد الملك ، وكتب اسمه هو بدلا عنه ، ولكنه نسي أن يغير التاريخ ، وبقي التاريخ شاهدا على بناء عبد الملك للقبة .

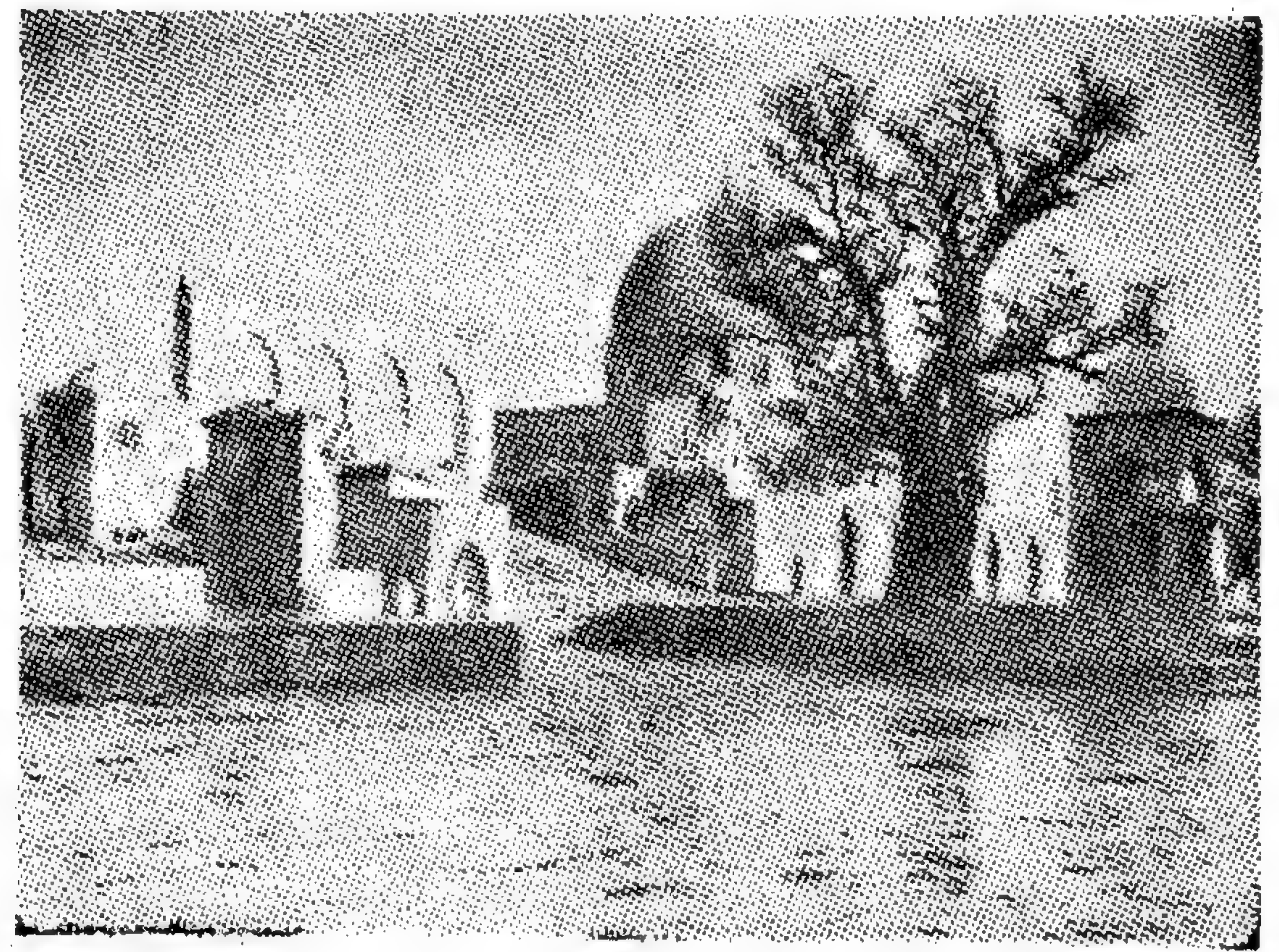
أما الجدران الخارجية لقبة الصخرة ، فتبدو كشن طول كل ضلع من أضلاعه الثمانية ١٢ مترا ونصف متر ، وارتفاعه تسعة أمتار ونصف متر . ويزدان كل ضلع من هذه الأضلاع بسبع طاقات مستطيلة معقودة في أعلاها ، نصفها الأدنى مغطى بتريعات من الفسيفساء من عهد صلاح الدين ، ونصفها الأعلى تكسوه تشبيكات نافذة يتسلل منها الضوء الى داخل الرواقين . وينفتح في الطاقة الوسطى من الجهات الأربع الأصلية باب . وكانت جدران القبة مغطاة قديما بتريعات الفسيفساء ، ولكن السلطان سليمان القانوني استبدل بهذه التريعات عام ٩٥٢ هـ (١٥٤٥ م) خشوات من الخزف الرائع .

رواقان مخصصان للصلاة . ونلاحظ أن دائرة أعمدة القبة تحيط بالصخرة .

والصخرة قطعة من الصخر غير منتظمة ، طولها ١٨ مترا من الشمال الى الجنوب ، وعرضها ١٣ مترا من الشرق الى الغرب ، وأكثر أجزائها ارتفاعا لا يتجاوز مترا ونصف متر . وفي أسفلها غار كبير بداخله محراب صغير ، ويربط أبدان الأعمدة عند منتصفها سياج يفصل بين الأروقة والصخرة . وترتبط تيجان الأعمدة فيما بينها بأوتار خشبية تلافيا للضغط الناشئ من القبة .

وتزدان قبة الصخرة من الداخل بزخارف رائعة من الفسيفساء تمثل مناظر الأشجار والأواني التي تنفرع منها السيقان النباتية . وفي عنق القبة زخرفة من الفسيفساء فيها نقش من الكتابة الكوفية ، مرسومة بالفصوص المذهبة على أرضية زرقاء اللون ، تتضمن بعض آيات قرآنية وعبارة تشير الى تاريخ بناء القبة نصها : « بنى هذه القبة عبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين » .

والخليفة المأمون الذي نطالعه في هذا النص ، هو الخليفة العباسي عبد الله المأمون بن هرون الرشيد ، ولا يتفق عهده والتاريخ المذكور في



الحرم الشريف ببيت المقدس

وقد زار هذه القبة الرحالة الفارسي ناصر خسرو
في النصف الأول من القرن الخامس للهجرة ،
ووصفها وصفا رائعا فقال :

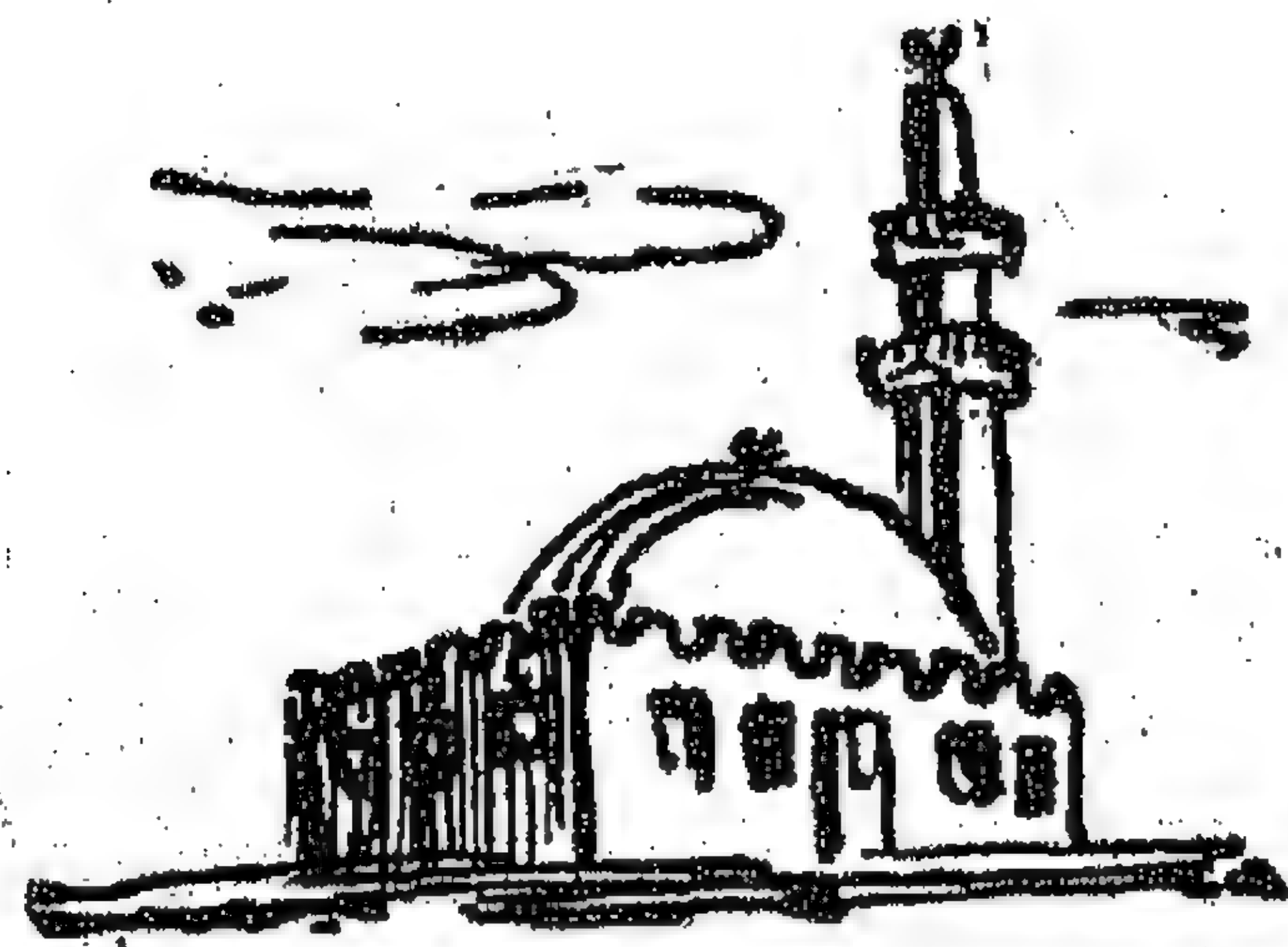
« قبة الصخرة بيت مشمن منظم ، كل ضلع من
أضلاعه الثمانية ثلاث وثلاثون ذراعا ، وله أربعة
أبواب على الجهات الأربع الأصلية : باب شرقي
وآخر غربي ، وثالث شمالي ، ورابع جنوبي . وبين كل
بابين ضلع . وجميع الحوائط من الحجر المنحوت ،
وارتفاعها عشرون ذراعا . ومحيط الصخرة مائة
ذراع ، وهي غير منتظمة ، لاهى مدورة ولا مربعة ،
ولكنها حجر غير منتظم كحجارة الجبل . وقد
بنوا على جانب الصخرة الأربعة أربع دعائم
مربعة ... بين كل دعامتين على الجوانب الأربعة
عمودان أسطوانيان من الرخام بالارتفاع نفسه .
وعلى قمة تلك الدعائم وهذه الأعمدة الاثنى عشر
بنوا القبة التي تحتها الصخرة ، والتي يبلغ محيطها
مائة وعشرين ذراعا . وبين حائط هذا البناء
والدعائم والأعمدة ثمانى دعائم أخرى مبنية من
الحجارة المنحوتة . وبين كل اثنتين منها ثلاثة
أعمدة من الرخام الملون على أبعاد متساوية بحيث

يكون في الصف الأول عمودان بين كل دعامتين ،
ويكون هناك ثلاثة أعمدة بين كل دعامتين ، وعلى
تاج كل دعامة أربعة عقود ، على كل عقد طاق
وعلى كل عمود عقدان فوق كل منهما طاق ...

« وهكذا يكون على العمود متكأ لطاقتين
وعلى الدعامة متكأ لأربعة ... فكانت هذه القبة
العظيمة في ذلك الوقت مرتكزة على هذه الدعائم
الاثنى عشر المحيطة بالصخرة ، فتراها على بعد
فرسخ كأنها قمة جبل لأنها من أساسها الى قمته
ثلاثون ذراعا . وهي تستند الى أعمدة ودعامات
ارتفاعها عشرون ذراعا ...

« والصخرة أعلى من الأرض بمقدار قامة
الرجل ، وقد أحيطت بسيياج من الرخام حتى
لا تصل يد اليها .. والصخرة حجر أزرق لونه ، لم
يطأها أحد برجله أبدا .. وفي ناحيتها المواجهة
للقبلة انخفاض كأن انسانا سار عليها ، فبدت
آثار أصابع قدميه فيها كما تبدو على الطين الطرى .
وقد بقيت عليها آثار سبع أقدام . وسمعت أن
ابراهيم عليه السلام كان هناك ، وكان اسماعيل
طفلا فمشى عليها ، وهذه آثار أقدامه » .

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم



مساجد من العراق

جامع الكوفة

اختط سعد بن أبي وقاص مدينة الكوفة عام ١٧ هـ (٦٣٨ م) بعد أن افتتح المدائن ، حاضرة الدولة الساسانية ، وبدأ بتأسيس المسجد الجامع بالكوفة ، وأقام فيما يلي جدار القبلة دارا للامارة ملاصقة له . واختطت كل قبيلة خطة حول الجامع ، وأقيمت الأسواق في ساحته . وكانت الكوفة على هذا النحو أشبه بقرية مبانيها ساذجة بسيطة .

ويروي البلاذري أن سعدا لما انتهى الى موضع الجامع « أمر رجلا فعلا بسهم قبل مهب القبلة فأعلم على موقعه ، ثم علا بسهم آخر قبل مهب الشمال وأعلم على موقعه ، ثم علا بسهم آخر قبل مهب الجنوب وأعلم على موقعه ، ثم علا بسهم قبل مهب الصبا فأعلم على موقعه ، ثم وضع مسجدها ودار امارتها في قيام العالى وما حوله » ، أى أن سعدا حدد أطراف المربع الذى اتخذ شكل الجامع بأسهم أربعة .

وهكذا أقيم جامع الكوفة على قطعة من الأرض مربعة ، وجعل له ظلة من عروش النخل ، تقوم على أعمدة من الرخام ، أحضرت من بقايا القصور الفارسية في الحيرة . ولم يكن لهذا الجامع الأول جدران خارجية تحيط به ، واستبدل بالجدران خندق محفور ، توضيحا لحدود الجامع ، حتى لا يقتحمها أحد بينان . وأقيمت أسقف المسجد فوق الأعمدة مباشرة ، دون أن ترتفع على هذه الأعمدة عقود مثل بقية المساجد .

ولم يكن لهذا الجامع الأول مجنسات تحيط بصحنه ، ولم يكن له محراب ولا منبر ولا منذنة . لذلك جاءت عمارته ساذجة بدائية .

فلما ولي زياد بن أبيه البصرة والكوفة عام ٥٠ هـ (٦٧٠ م) في عهد معاوية بن أبي سفيان ، رأى إعادة بناء هذا المسجد الجامع ، فبعث في احضار بعض عرفاء البنائين من فارس ، وشرع « زياد » في تجديد بناء الجامع ، وجلب له الآجر ، وأساطين حجرية ، استقطعها من جبال الأهواز ، فكان العمود يتألف من أقراص مستديرة متراكبة ، وفرغ جوفها وصب فيه الرصاص ، ورفعت الأعمدة الى ارتفاع يبلغ ثلاثين ذراعا (أى ما يقرب من ثلاثة عشر مترا ونصف متر) ، وأقيمت الأسقف على هذه الأعمدة مباشرة ، دون أن ترتفع على عقود أو قسي ، وفي ذلك يقول الطبرى :

« ولما أراد زياد بنيانه ، دعا بينائين من بنائى الجاهلية ، فوصف لهم موضع المسجد وقدره ، وما يشتهى من طوله في السماء وقال : أشتهى من ذلك شيئا لا أقع على صفته ^١ فقال له بناء (كان بناء لكسرى) : لا يجىء هذا إلا بأساطين من جبال أهواز تنقر ثم تثقب ثم تحشى بالرصاص وبسفاقيد الحديد فترفعه ثلاثين ذراعا في السماء ثم تسقفه » .

وبنى الجامع على هذا النحو ، وأقيمت له مجنسات تحيط بالصحن ، وبلطت أرضيته بالحصى والملاط ، بعد أن كانت أرضا تربة مملوءة بالحصى والحجر .

(١) أى اريد بناء ليس له مثيل في الاتقان والعظمة .

ويبدو أنه بلطها لسبب ، هو أنه عندما قدم الكوفة عام ٥٥ للهجرة قصد من فوره مسجدها الجامع فخطب خطبة مقتضبة لم يهدد فيها أهل الكوفة كما فعل في البصرة ، ولكنه ترفق ، وأظهر لنا وتسامحا ومنها قوله : « ... ثم ذكرت أنكم أهل حق ، وأن حقكم طالما دفع الباطل ، فأتيتكم في أهل بيتي ، فالحمد لله الذي رفع مني ما وضع الناس ، وحفظ مني ما ضيعوا » ، ولكنه ما كاد ينتهي من هذه الخطبة حتى حصبه أهالي الكوفة . واشتهر بذلك رجل من أصحاب الرسول هو حجر بن عدي ، وقد ضرب به المثل في ذلك .

ويبدو أن الجامع كان يتألف من خمسة بلاطات ، تفصلها فيما بينها صفوف من الأعمدة لا تعلوها عقود ، وكان يحيط بالصحن ثلاث مجنبات تشتمل كل منها على بلاطين . وقد وصف ابن جبير هذا الجامع عند زيارته للعراق عام ٥٨٠ هـ فقال :

« والجامع العتيق في آخرها مما يلي شرقي البلد ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق ، وهو جامع كبير في الجانب القبلي منه خمسة أبلطة ، وفي سائر الجوانب بلاطان . وهذه البلاطات على أعمدة من السوارى الموضوعة من صم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة مفرغة بالرصاص ، ولا قسي عليها ، على الصفة التي ذكرناها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي في نهاية الطول متصلة بسقف المسجد ، فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها ، فما أرى في الأرض مسجدا أطول أعمدة منه ولا أعلى سقفا . ولهذا الجامع المكرم آثار كريمة ، فمنها بيت بازاء المحراب عن يمين المستقبل للقبلة يقال انه كان مصلى ابراهيم الخليل وعليه ستر أسود صونا له ، ومنه يخرج الخطيب لأبسا ثياب السواد للخطبة ... فالناس يزدهمون على هذا الموضع المبارك للصلاة فيه . وعلى مقربة منه مما يلي الجانب

الأيمن للقبلة محراب محلق عليه بأعواد الساج ، مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير ، وهو محراب أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه . وفي هذا الموضع ضربه الشقي اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف » .

وذكر ابن جبير أن بجوف الجامع (أي الجهة الشمالية منه) سقاية كبيرة من ماء الفرات فيها ثلاثة أحواض كبار لعلها كانت تستخدم للوضوء . ومن هذا الوصف نستنتج أن جامع الكوفة لم يتغير نظامه عما كان عليه أيام زياد بن أبيه .

وتقع خرائب الكوفة القديمة اليوم بين الكوفة الحديثة التي أقيمت منذ أيام يزيد بن عمر بن هبيرة والنجف . وتتألف هذه الخرائب من مرتفعات ممتدة كثيرة الحفرات والأخاديد ، كانت تستخدم حتى عهد قريب محاجر يستغلها الناس في أبنيتهم ، وينتزعون من أطلال دورها وأبنيتها الأحجار وقوالب الآجر . وقامت مديرية الآثار العراقية عام ١٩٣٦ بعمل حفائر أثرية في هذه الأطلال أسفرت عن كشف الجدار القبلي للمسجد الأول لصق آثاره . قصر الامارة المشيد بالآجر والجص . وفي هذا الجدار كشف عن غرفتين احدهما ذات ثلاثة مداخل ، منها مدخل معقود كان يدخل منه الأمير الى المسجد . ويمكننا أن نتخيل ما كان عليه جامع الكوفة من آثار جامع واسط عاصمة العراق في العصر الأموي ، الذي بناه الحجاج بن يوسف الثقفي عامل الخليفة عبد الملك بن مروان على غرار جامع الكوفة عام ٧٥ هـ . وجامع واسط بناء مربع ، جدرانه مبنية من الآجر والجص ، وبيت

(١) يغلب على الظن أن جدران جامع الكوفة كانت مزودة بركائز من الآجر نصف اسطوانية تتوزع بانتظام ، إذ أن قصر الامارة الملاصق للجامع ما زالت تقوم بجدرانه من الخارج ركائز على هذه الصورة . وهذه الطريقة كانت شائعة في العمائر العراقية قبل الاسلام .



مئذنة جامع ابي دلف بسامرا

الصلاة فيه يتألف من خمسة بلاطات تمتد على تسعة عشر رواقا . ويحيط بصحن الجامع مجنبات ثلاثة . وكانت أعمدة المسجد سوارى مؤلفة من أقراص حجرية متراكبة تصل في جوفها أصابع الحديد .

هذا وقد لعب جامع الكوفة دورا هاما في الحضارة العراقية ... فكان مركزا من مراكز الحياة العامة : يجتمع فيه الناس ، وتذاع منه قرارات الدولة ، ويعلن منه الأمير سياسته الجديدة . كما كان لجامع الكوفة أثر عميق في النهضة الأدبية والعلمية ، فكان الكميّ الشاعر يقوم بالتدريس فيه ، وكان الشاعر نصيب بن رباح ينشد أشعاره في الجامع . كذلك أمر عبد الملك بن مروان الأخطل بمدحه على منبر الكوفة .

المسجد الجامع وجامع ابي دلف بسامرا

أسست سامرا عام ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) في عهد الخليفة المعتصم بالله ثامن خلفاء بني العباس ، وقصة انشائها قصة عجيبة ، فقد اشترى الخليفة المأمون العباسي عددا كبيرا من الأتراك واستخدمهم في جيشه . وجاء المعتصم من بعده فاعتمد على العنصر التركي ، واتخذ الأتراك حرسا له ، واستكثر منهم حتى أصبحوا يؤلفون غالبية الجيش العباسي . وأسندت اليهم أرفع مناصب الدولة ، وضاعت بغداد بهم ، ونال الناس على أيديهم متاعب كثيرة ، فشكوا منهم الى الخليفة ، واضطروا الى قتل عدد كبير منهم . فثقل ذلك على المعتصم وفكر في بناء مدينة تتسع لهم ويجعلها عاصمة له ، فأقام مدينة سامرا . وتقع سامرا شرقي نهر دجلة ، على بعد نحو ٦٠ مترا شمالي بغداد بالقرب من نهر القاطول الذي حفر مجراه زمن الرشيد .

ويذكر اليعقوبي أنه خرج يوما للصيد فمر في

طريقه على صحراء لا عمارة فيها ولا أنيس الا ديرا للنصارى فتوقف بالدير ، وسأل من فيه من الرهبان عن اسم هذا المكان ، فقبل له انه سر من رأى ، وأنه كان مدينة سام بن نوح ، وأنه سيعمر على يدى ملك جليل مظفر ينزلها وينزلها ولده . فأصر المعتصم على بناء مدينته في هذا الموضع ، واشترى الأرض من أصحاب الدير .

وجمع المعتصم لبناء مدينته أبرع البنائين ، وأرباب المهن وأصحاب الصناعات من سائر أنحاء العالم الإسلامي ، فخططوا الأراضي التي تقام عليها القصور . وأمر المعتصم بتخطيط القطاعات لرجال الصناعة والفن ، وخصص لقواده الأتراك ورجال جيشه قطائع بعيدة عن الأسواق والخطط ، وأقام

قصر الجوسق وحاطه بالجنان والبحيرات . ثم أقام المسجد الجامع بسامرا وسط المدينة وأقيمت حوله الأسواق ، كل سوق خصصت لتجارة من التجارات أو صناعة من الصناعات . ثم شيد ابنه الوائق القصر الهاروني . وبنى المتوكل فيها قصر العروس وقصر بلكوارا والقصر المختار والقصر الوحيد بين عامي ٢٤٠ - ٢٤٥ هـ . وقد أورد ياقوت في معجم البلدان أسماء سبعة عشر قصرا بنيت في عهد المعتصم والمتوكل ، وذكر أن هذه المدينة لما عمرت سميت بسرور من رأى ، واختصر الاسم الى سر من رأى ، فلما خربت واستوحشت سميت ساء من رأى ، واختصرت الى سامرا . وأغلب الظن أن اسم سامرا مشتق من اسم (Castellum Sumere) أو حصن سومير .

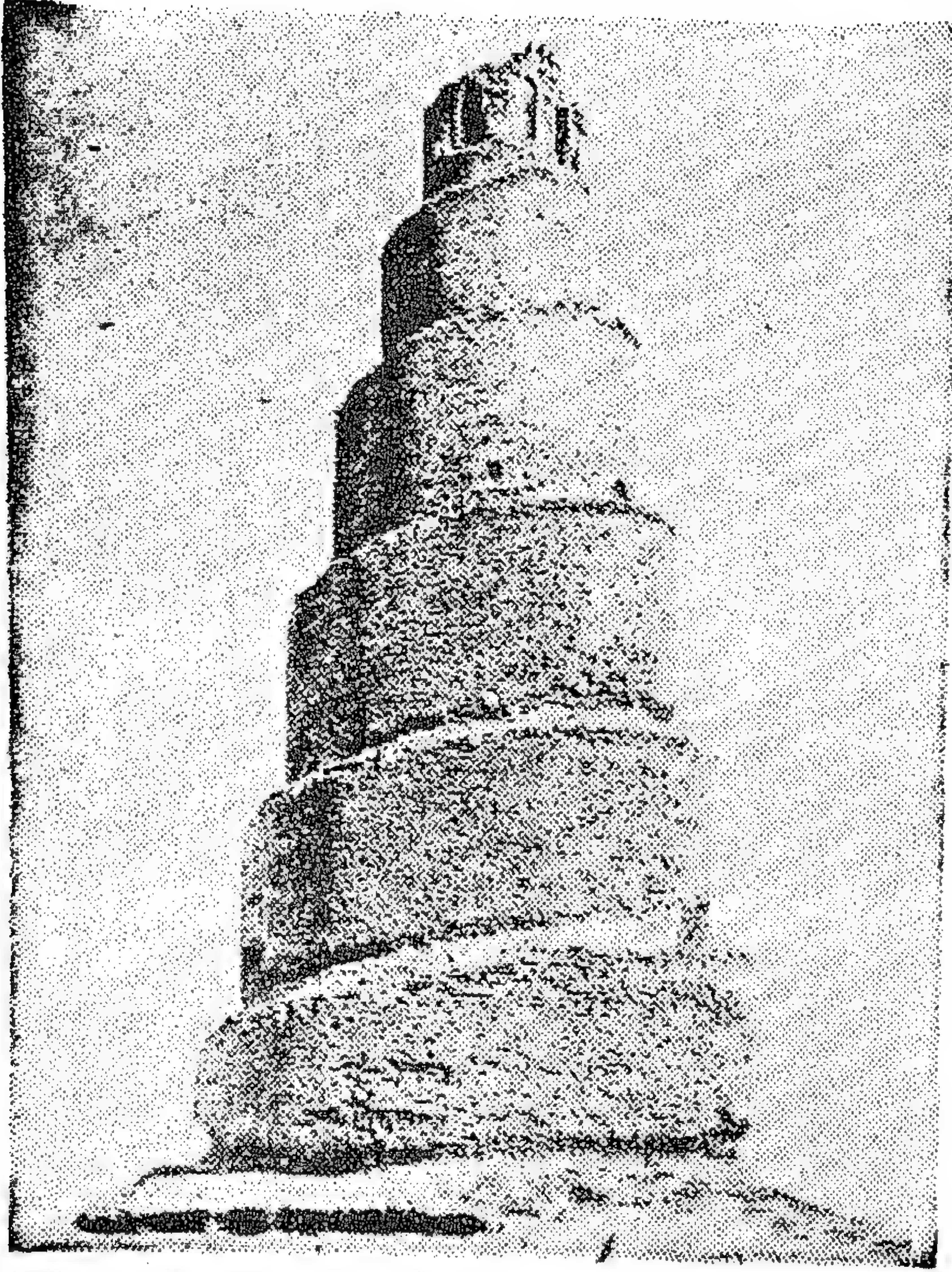
وازدهرت سامرا زمنا في عهد هذا الخليفة ... الا أن جعفر المتوكل أراد أن يؤسس مدينة تنسب اليه ، ويتخذها حاضرة لدولته ، فاختار موقعا يسمى الماحوزة يقع شمالي مدينة سامرا ، وأسس فيه مدينة سماها بالجعفرية نسبة اليه . وسميت أيضا بالمتوكلية . ويذكر الطبري أن المتوكل أمر بهدم قصرى المختار والبديع بسامرا وحمل ما فيهما من خشب الساج لاستخدامه في بناء قصره الجديد المسنى بالجعفرى .

وهكذا هجرت سامرا بانتقال المتوكل الى الجعفرية ، الى أن قتل المتوكل عام ٢٤٧ هـ ، فنقل ابنه المنتصر العاصمة الى سامرا . عندئذ خربت الجعفرية وعادت سامرا الى الحياة ، وظلت حاضرة الدولة العباسية حتى عام ٢٧٦ هـ ، ولكن أهميتها ضعفت خلال هذه الفترة ، خاصة في عهد المستعين والمعتز والمهتدي . ثم انتقلت العاصمة العباسية الى بغداد منذ عام ٢٧٦ هـ ، وكان هذا إيذانا بانهايار سامرا : فخربت قصورها ، وهدمت آثارها ،

وأصبحت أطلالها الدارسة تثير الأسى في نفوس الناس ، حتى أطلقوا عليها اسم ساء من رأى ، واختصر الى سامرا . وقد شاهد ابن جبير في رحلته بالعراق أطلال المدينة فقال : « وهى اليوم عبرة من رأى ، أين معتصمها ووائقها ومتوكلها ؟ مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها الا بعض جهات منها ، وهى اليوم معمورة » .

وقد بقيت في سامرا اليوم آثار جامعين جليلين : المسجد الجامع ، وجامع أبى دلف بالجعفرية . وقد اهتمت دائرة الآثار القديمة بالعراق بترميم هذين الجامعين ، ورفع الأتقااض التى كانت قد دفنت قاعدتى مئذنتيهما ، بحيث أعيدت هاتان المئذنتان الى مثل حالتها الأولى .

ويذكر اليعقوبى أن المتوكل أقام جامع سامرا عام ٢٣٢ هـ (٨٤٧ م) ، وأقام فى صحنه نافورة ، وخطط ثلاثة طرق فسيحة عرض كل منها خمسون مترا ، تدور بالمسجد تسهيلا لدخول المصلين ، وجعل فى كل طريق منها سوقا ، ثم أحاط الجامع بساحة فسيحة . ولم يتبق من هذا الجامع اليوم سوى جدرانها الخارجية ومئذنته . والبناء كله من الآجر الجيد المحروق فى الأفران . ويبلغ طول جدار المسجد ٢٤٠ مترا وعرضه ١٥٨ مترا ومساحة مسطحة ٣٨ ألف متر مربع ، وهى أكبر من مساحة جامع قرطبة وجامع عمرو . ويدعم جدران الجامع الخارجية أبراج أسطوانية فى الأركان الأربعة ، تتوزع بينها أبراج نصف أسطوانية ، ويتخلل الجدار القبلى صف من نوافذ صغيرة رءوسها على هيئة عقود من خمسة فصوص تحيط بها طرر مستطيلة . ونلاحظ أن هذه الأبراج صماء وظيفتها أشبه بوظيفة الركائز الداعمة لجدران القصور والمساجد . وتبعد هذه الأبراج عن الجدار نحو



مئذنة جامع سامرا

الأعمدة الرخامية . وينفتح في جدار القبلة الى يمين المحراب ويساره فتحتان كاتتا تؤديان الى غرف متصلة لصق الجامع .

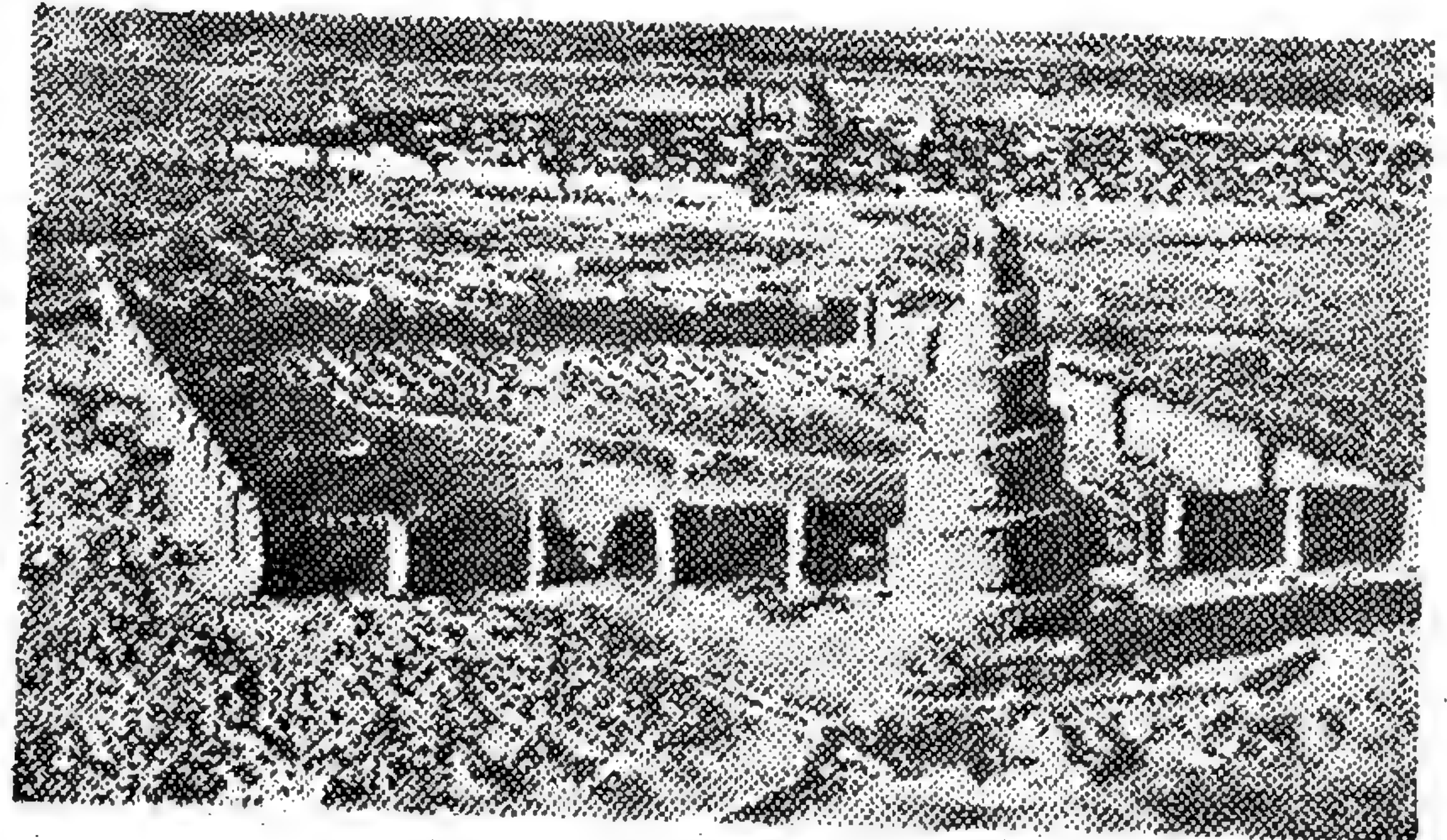
وأهم ما يستلفت النظر في خرائب هذا الجامع مئذنته المملوية ، وتقع على بعد ٢٥ مترا خارج الجدار الشمالى للجامع وفي محور الباب الأوسط . وهى مئذنة محروطة ، بوجه عام ، تقوم على قاعدة مربعة طول ضلعها ٣٢ مترا ، ويصعد الى أعلاها عن طريق صاعد أو أحدور سطحه مائل عريض (يبلغ عرضه ٢٥ متر) ، يدور حول بدنها من الخارج خمس مرات دورانا لولبيا ، وفي كل دورة يضيق قطر أسطوانة كل طابق .

وتنتهى المئذنة من أعلى ببناء أسطوانى ، طول قطره ستة أمتار وارتفاعه ستة أمتار . ويبلغ ارتفاع المئذنة من القاعدة حتى القمة اثنين وخمسين مترا . ويبدأ الأحدور اللولبى الذى يدور حول

مترين ، ويبلغ قطر كل برج منها نحو أربعة أمتار ونصف متر .

وكان بيت الصلاة يشتمل على تسعة بلاطات تفصلها فيما بينها صفوف من دعائم ضخمة مشنة ، مبنية بالآجر ، وتقوم على قواعد مربعة ، وتلتصق بهذه الدعائم أربعة أعمدة من الرخام مستديرة أو مشنة تيجانها على هيئة الناقوس ، وتعلو الدعائم مباشرة أسقف خشبية مسطحة . ويشبه جامع سامرا فى ذلك جامع الكوفة وجامع بغداد . ويبدو أن هذه الدعائم كانت تزدهن بكسوة من الجص نقشت فيها زخارف نباتية أقرب ما تكون الى الزخارف الهندسية . ويذكر المقدسى أنها كانت مغطاة بزخرفة من المينا . وقد فسر مؤرخو الفن هذه الكلمة بأنها فسيفساء من الزجاج . وأكد هرتسفلد أنها من عمل صناع الزجاج الذين أحضرهم المعتصم من البصرة ، وقد أثبتت الحفائر التى أجراها عام ١٩١٠ صدق رأيه ، اذ عثر على بقايا قطع من الفسيفساء المزججة .

وكانت تحيط بالصحن ثلاث مجنبات ، تشتمل المجنبتان الشرقية والغربية منها على رواقين ، بينما تشتمل المجنبة الشمالية على ثلاثة أروقة تفضل بينها صفوف من الدعائم المثمنة . وأثبتت حفائر هرتسفلد مكان المحراب ، ولم تكن جوفته مستديرة وانما كانت مستطيلة ، طولها متران و ٥٩ سنتيمترا وعرضها ١٧٥ م . وكان يحف بها زوجان من



منظر عام للمسجد الجامع بسامرا

بدن المئذنة ، موصلا الى القمة ، من وسط الضلع القبلى للقاعدة ، أى قبالة الباب الشمالى للجامع . وينتهى هذا الأحدور الى باب يفتح فى وسط الجزء الجنوبى من الطابق الأسطوانى الأعلى الذى يتوج المئذنة .

وهذا الطابق يشتمل على غرفة صغيرة يبلغ ارتفاعها ستة أمتار ، ويزدان جدارها الدائرى بشمانى طاقات مقعرة صغيرة تعلوها عقود منقوخة مديبة تقوم على أعمدة صغيرة من الآجر ، وتقوم إحدى هذه الطاقات مقام المدخل ، ويدور حول محور هذه الغرفة من الداخل درج لولبى يصل الى أعلى المئذنة . ولما كانت قاعدة المئذنة مطمورة فى باطن الأرض فقد ظن أن الأحدور اللولبى يبدأ من سطح الأرض ، الا أن أعمال الترميم كشفت عن بداية هذا الأحدور ، وأتاحت لنا تنظيف القاعدة المربعة ، بعد أن أزيل ما كان يغطيها من أتربة وأنقاض . ويبدو أنه كان يحيط بهذا الأحدور اللولبى سياج خشبى مثبت فى جدران المئذنة وذلك لوجود فتحات كان يثبت فيها .

ونستطيع أن نشاهد فى وسط الصحن آثار نافورة ذكر اليعقوبى أن مياهها كانت لا تفر عن الجريان . وكانت هذه النافورة تنتصب على حوض مستدير من الحجر ارتفاعه سبع أذرع أطلق عليه اسم كأس فرعون . وقد كشفت الحفائر الأثرية التى أجراها هرتسفلد أنه لم يبق من النافورة سوى الأساس الأسطوانى للحوض وهو مصنوع من الآجر . وعثر فوق هذا الأساس الأسطوانى على أجزاء من أبدان أعمدة من الرخام وأجزاء من التيجان الجصية الملونة والمزينة بقطع من الزجاج المذهب ، مما يجعلنا نعتقد أن هذه النافورة كانت تتألف من دائرة من الأعمدة تحيط بكأس فرعون المذكور ، ويعلوها جوسق خشبى .

أما جامع أبى دلف فقد بناه المتوكل عام ٢٤٦ هـ (٨٦١ م) فى مدينة الجعفرية ، وقد تبقى من هذا الجامع بعض عقود بلاطاته وبعض الدعائم المستطيلة ، كما تبقى جزء من جداره الخارجى ، ويشبه جدار جامع سامرا . وأهم ما تبقى من هذا الجامع مئذنته التى تشبه شيها تماما مئذنة جامع سامرا شكلا وبناء ، وإن كانت أصغر منها حجما .

وترتفع مئذنة جامع أبى دلف على بعد تسعة أمتار ونصف متر خارج الجدار الشمالى للجامع ، فى محور الباب الأوسط الذى يفتح فى هذا الجدار . وقاعدة هذه المئذنة تكاد تكون مربعة طول جانبيها الشمالى والجنوبى ١٠ر٨٥ أمتار والشرقى والغربى ١٠ر١٠ أمتار ، وتعلو هذه القاعدة عن مستوى سطح الأرض نحو مترين و ٧٠ سنتيمترا ، وفى كل وجه من أوجهها الشمالى والشرقى والغربى ثلاث عشرة طاقة ، وبالوجه الجنوبى عشر طاقات ، وذلك لتوسط مدخل الأحدور فى هذا الوجه . ويصعد هذا الأحدور اللولبى دائرا حول المئذنة ثلاث دورات الى ارتفاع ١٦ مترا ، وعرض هذا الأحدور لا يتجاوز المتر . ولا شك أن مهندس هاتين المئذنتين واحد ، وأغلب الظن أنه فارسى الأصل ، وأنه اقتبس صورة المئذنة من الزيجورات البابلية ، وإن كان تصميم هذه الزيجورات مربعا أو مستطيلا فى معظم ما وصل إلينا من أمثلة .

ويرى الأستاذ كريسويل أن هذين الجامعين كانت تحيط بهما من الخارج جدران أخرى من الجهات الشرقية والغربية والشمالية مؤلفة زيادات للمسجد كما هو الحال فى زيادات جامع ابن طولون بالقطائع ، ولعلها الطرق الثلاثة التى ذكرها اليعقوبى فيما سبق . وكانت كل من المئذنتين تقع فى جدار الزيادة الشمالية بين الجدار الشمالى للجامع وجدار الزيادة ، وكانت قاعدة المئذنة تتصل بالمسجد عن



بعض عقود بيت الصلاة بجامع أبي دلف بسامرا

أنشأ بين عامي ٦٢٥-٦٣١ هـ (١٢٢٧-١٢٣٣ م) مدرسة ببغداد خصصها للمذاهب الأربعة .

وقد وصف الرحالة ابن بطوطة هذه المدرسة عند زيارته لبغداد فقال : « وبها المذاهب الأربعة ، لكل مذهب ايوان فيه المسجد وموضع التدريس . وجلس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط . ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتمًا ، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما عليه . وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة . وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء » . وقد وصلت إلينا بقايا هذه المدرسة في حالة من السوء يرثي لها بسبب الإهمال الشديد الذي تعرضت له ، والأضرار

طريق قنطرة ، وهو النظام ذاته الذي نراه في جامع ابن طولون .

وتعد مئذنتا سامرا النموذج الذي احتذاه مهندس أحمد بن طولون في بناء مئذنته عام ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) . وتقع مئذنة ابن طولون - شأنها في ذلك شأن مئذنتي سامرا - في منتصف الزيادة الشمالية للجامع في محور القبلة . ويبدو أن أحمد ابن طولون طبق طراز مئذنتي سامرا على مئذنته بالقطائع لتأثره بهما في حياته الأولى بهذه المدينة . وتتألف مئذنة ابن طولون من قاعدة مربعة تقوم عليها ساق أسطوانية ، يلتف حولها درج دائري عرضه ٩٠ سم ، له سياج دائري كذلك . ولكن ثبت أن بناء هذه المئذنة أعيد من جديد على يد السلطان حسام الدين لاشين عام ١٢٩٦ م ، فقد تعرضت مئذنة ابن طولون منذ أن أحرقت الجيوش العباسية مدينة القطائع لأضرار جسيمة . فلما احتفى حسام الدين لاشين في خرائب الجامع نذر أن يعمره ويقف عليه الأوقاف إذا من الله عليه بالخلاص ، فلما تحققت أمنيته واعتلى السلطنة عام ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) أوفى بنذره ، وأعاد بناء المئذنة من جديد على الصورة التي كانت عليها .

المدرسة المستنصرية ببغداد

ذكرنا عند الحديث عن مدارس المغرب كيف ظهر نظام المدارس أول الأمر في خراسان ، وكيف انتشر في عصر السلاجقة على يد نظام الملك الذي شيد المدارس العظيمة في نيسابور ومرو وبغداد^(١) لتعليم المذاهب السنية ، وعلى الأخص المذهب الشافعي . وذكرنا كذلك أن الخليفة المستنصر بالله ابن الظاهر

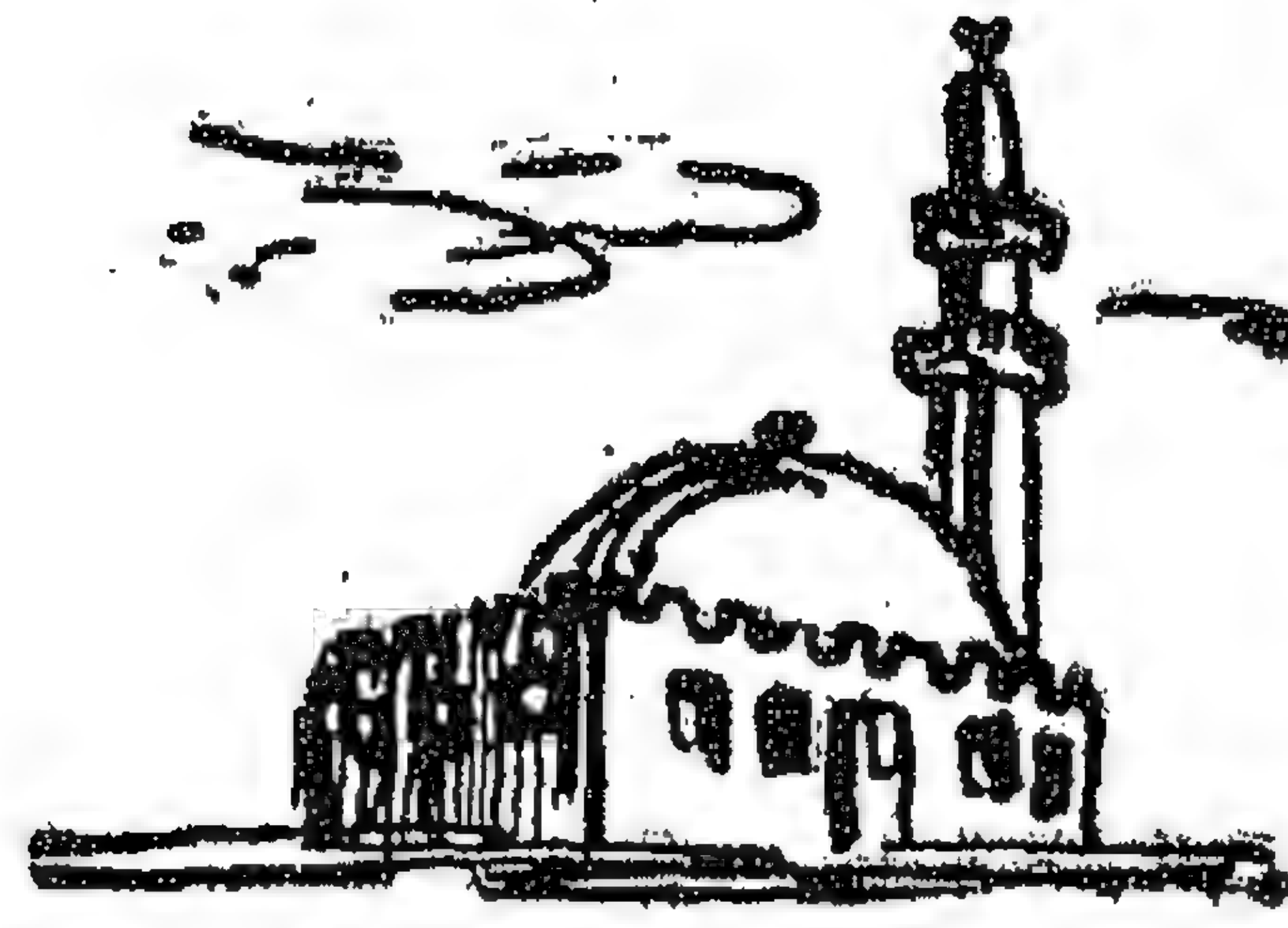
(١) أقام نظام الملك في بغداد مدرسة تعرف بالمدرسة النظامية .

الجسيمة التي لحقتها طوأل القرون الستة الأخيرة .
فقد تهدمت بعض جدرانها وسدت بعض مداخلها
وفتحت بها مداخل أخرى ثم استخدمت بعد ذلك
لأغراض حكومية ، فقامت دائرة الآثار العراقية
بترميمها عام ١٩٤٦ حتى أعيد إليها مظهرها القديم
بفضل جهود علماء الآثار الغربيين .

وتتألف المدرسة من صحن مستطيل ، يتوسط
كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان كبير
يبلغ عرضه نحو ستة أمتار ، ويعادل ارتفاعه ارتفاع
طابقى الغرف . ويحف بهذا الإيوان من جانبيه
الصحن الكبيرين قاعتان للدرس ، وتتوزع بين هذه

الإيوانات والقاعات غرف للطلبة على طابقين . وجميع
هذه القاعات والغرف والإيوانات مفتوحة على
الصحن ، وعقودها من النوع الفارسي . ويعلو كل
إيوان أو قاعة ثلاثة عقود فارسية متدرجة الارتفاع
والبروز ، يحيط بها إطار مستطيل . أما عقود
الغرف فصغيرة تزدان بنيقاتها بزخرفة من التوريقات
الرائعة المحفورة في الحجر ، وهو المادة التي بنيت
منها المدرسة ، ويفصل كل عقد عن الآخر كتف
ضخم . وتتكون الزخارف من تلافق قطع صغيرة
من الحجر تؤلف الزخرفة ببيقات العقود .

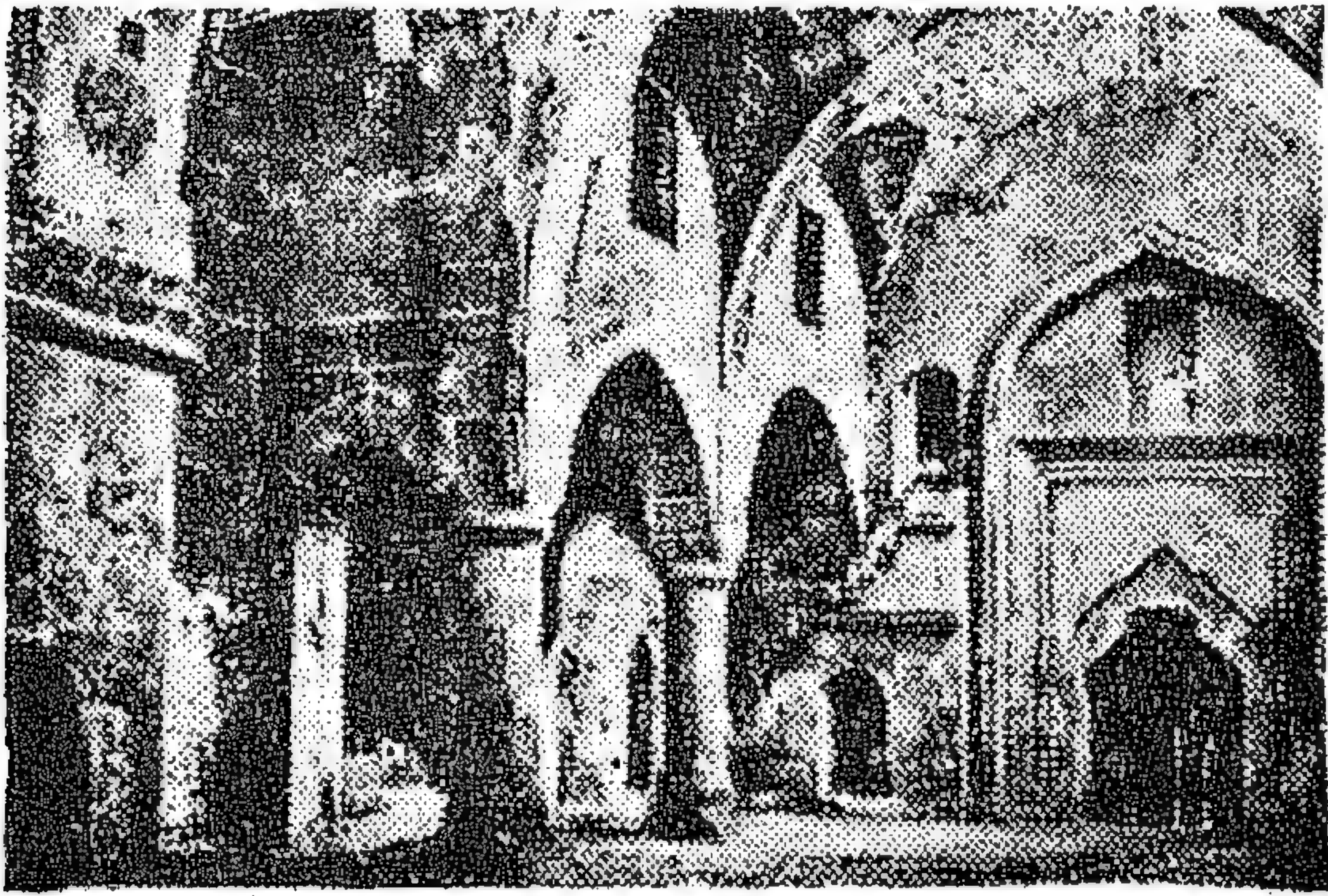
الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم



مساجد من تركيا

مسجد ديوريكى ومدرسته

الأسطوري التي تذكرنا بنظائر لها في الفن الحيى القديم ، ومع ذلك فان بجامع ديوريكى بعض أجزاء أقل تأثرا بالفن الأرمينى ... فهناك بوابتان نطالع في زخارفهما أسلوبا أقرب ما يكون الى الأسلوب السورى ، فنوزيع الزخارف فيهما أفضل ، وتتفق في مجموعها مع الخطوط المعمارية . وأروع أجزاء هذا الجامع مدرسته التي لا يفصلها



قاعة التدريس بجامع ديوريكى بتركيا

عن المحراب سوى جدار القبلة ، وهى بناء ضخمة بسيط الزخرفة تدل الكتل الضخمة التي تتكون منها الجدران والقبسات على المجهود المعماري الهائل الذى بذله المهندس في بنائه . وتبدو هذه المدرسة لأول وهلة بعقودها المدببة وقبواتها المصلبة كما لو كانت بناء قوطيا .

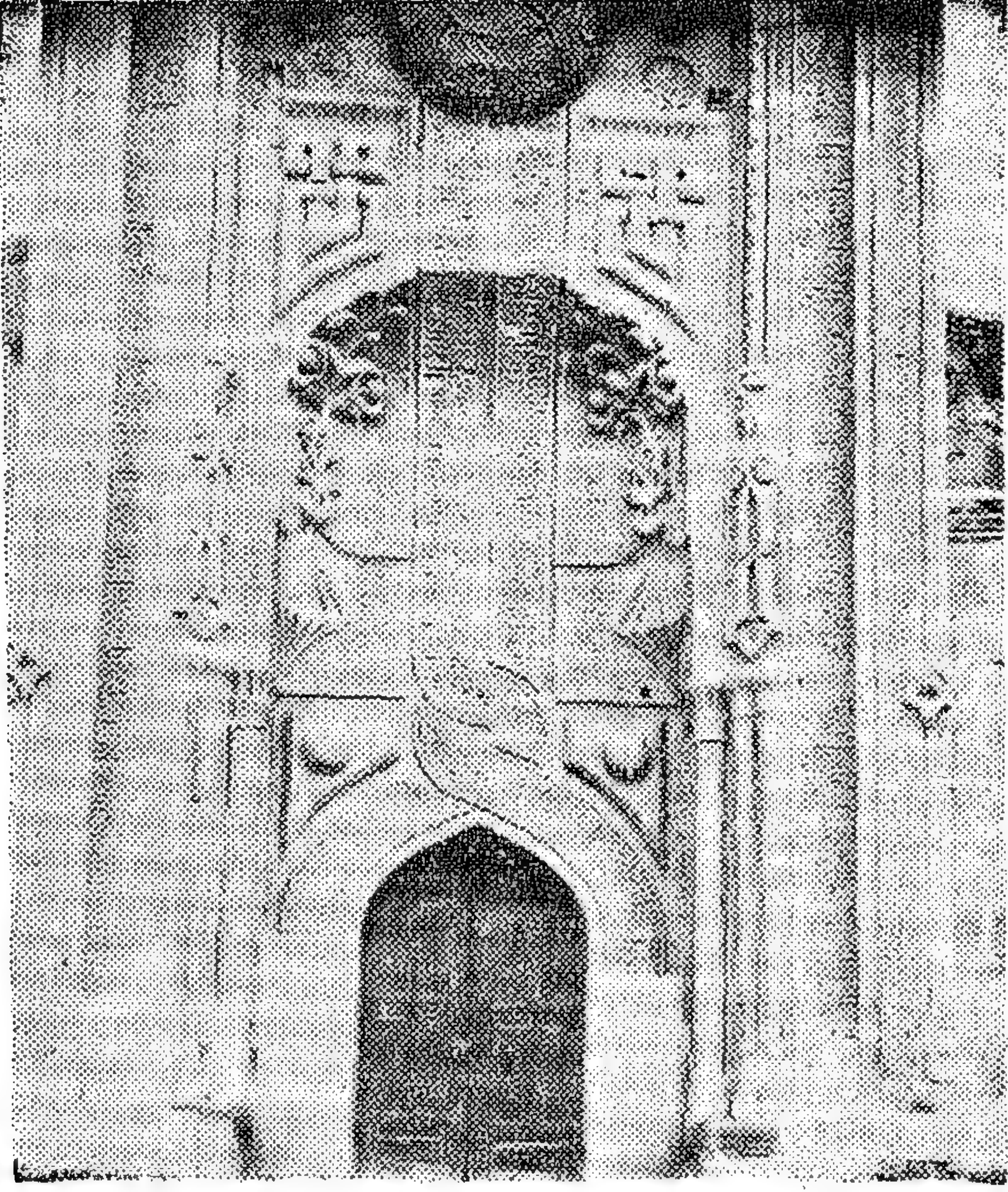
مدرسة صيرت جالى بقونية

كانت قونية عاصمة دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى في القرنين السادس والسابع للهجرة ، لذلك اهتم سلاطين السلاجقة — وعلى الأخص علاء الدين أبو الفتح كيخسرو بن كيقباد برهان —

بعد هذا الجامع من أهم الآثار السلجوقية في الأناضول ، وتاريخ بنائه مسجل في ثلاثة نقوش كتابية تشير الى أنه تم عام ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) . ولقد قام ببناء هذا المسجد أحد بنائى أرمينيا ممن دخلوا في خدمة السلطان السلجوقى ، ولذلك جاء تصميم هذا المسجد أقرب الى النظام البازيليكي منه الى نظام المساجد . ولم يحتفظ الجامع بصحن وهو أحد العناصر الرئيسية بالمساجد . ويكفى لبيان مدى تأثر بناء هذا الجامع بعمارة البازيليكيات أن إحدى بواباته لا ينقصها سوى تماثيل القديسين العمادة حتى تصبح بوابة من الطراز القوطى ... وتؤدي هذه البوابة الى قاعة طولها ٤٠ مترا وعرضها ٣٠ مترا ، تنقسم الى خمسة بلاطات تفصلها أربعة صفوف من الدعائم . وتقع المدرسة خلف جدار المحراب ، وبنائها من طراز بناء الجامع .

وتعلو جميع أروقة الجامع والمدرسة قبوات . وأكثر ما يلفت النظر في هذا الجامع زخارفه التي توحى بشراء لا ذوق فيه ولا جمال ... لأن الزخرفة لا تخضع هنا لقواعد أو مقاييس ، وإنما طبقت على البناء أو علقت فيه كما تعلق محتويات الجانوت ، ووزعت بغير ترتيب على الجدران مما يدل على عدم وجود أى علاقة بين الزخرفة والخطوط العضوية للتكوين .

وتتجلى في زخارف جامع ديوريكى بعض موضوعات لا تمت للفن الاسلامى بصلة ، مثل النسر ذى الرأسين ، وبعض الصور ذات الطابع



باب مدرسة ابنجة بقونية

منها يؤلفان عقد المدخل ويلتفان برأس العقد في دائرة ، ثم يمتدان رأسيا حتى أعلى الواجهة . والشريطان الآخران يحفان رأسيا بجانب الواجهة من أسفلها الى أعلاها . وتتضمن هذه الكتابة آيات قرآنية أما بقية الزخرفة فقوامها توريقات من سعف النخيل .

ولم يتح لهذا الجامع أن تكمل عمارته ، فقد عجل الغزو المغولي بالقضاء على دولة السلاجقة وهي في أوجها ، وكانت مئذنة الجامع رشيقة في تكوينها ، تشق بارتفاعها السامق عنان السماء ، كما كانت تغطي بدنها الأسطوانى كسوة من الفسيفساء . ول سوء الحظ هدمت هذه المئذنة على أثر زلزال حدث عام ١٩٠١ م ولم يبق منها سوى قاعدتها المربعة ، وتزدان بحشوتين من التوريقات المتداخلة قوامها سعف النخيل ، ويحيط بهاتين الحشوتين شريطان يدوران حولهما ويتشابكان فيما بينهما .

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم

بتجميلها فأمهروها بالمساجد ، وزودوها بالمدارس والقصور والخانات ، حتى أصبحت قونية بحق مركزا من أهم المراكز الفنية في العالم الاسلامى . أسست هذه المدرسة عام ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) ، كما يتجلى ذلك في النقش الكتابى المسجل على مدخلها ونصه : « ... السلطانى رسم بعبارة هذه المدرسة المباركة في دولة السلطان الأعظم ، ظل الله في العالم ، غياث الدنيا والدين ، علاء الاسلام والمسلمين أبى الفتح كيخسرو بن كيقباد ، قسيم أمير المؤمنين الفقير الى رحمة ربه بدر الدين بن مصلح أدام الله توفيقه .. وقفها على الفقهاء والمتفقهة من أصحاب أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه في سنة أربعين وستمائة » . وتتألف هذه المدرسة من ايوان لبيت الصلاة به محراب تحف به قاعتان لكل منهما قبة .

وكانت هذه المدرسة تسمى مدرسة الزجاج لكثرة زخارف الفسيفساء بأجزائها الداخلية . وأسلوب الزخرفة ايرانى يشبه الزخارف التى نشاهدها بالمساجد السلجوقية في ايران . وقد نقش الصانع الذى قام بعمل هذه الزخارف اسمه على جامة من الحزف في عقد الايوان « محمد بن محمد ابن عثمان البناء الطوسى » . ومعنى هذا أن هجرة الأتراك العثمانيين الى آسيا الصغرى صاحبها وفود بعض الفنانين الايرانيين وأجمل ما في المدرسة مدخل من الرخام تحيط به زخارف هندسية محفورة آية في الروعة . وعقد المدخل مدبب ، ويزدان بفصوص مثلثة الفتحات .

مسجد ابنجة ومدرستها بقونية

أقام هذا الجامع بناء تركى اسمه كالول بن عبد الله ، وهو البناء الذى شيد مدرسة الوزير صاحب عام ١٢٥٨ م . وتمتاز واجهة هذه المدرسة بأنها مغطاة كلها بأشرطة أربعة من الكتابة ، اثنان

مساجد من إيران

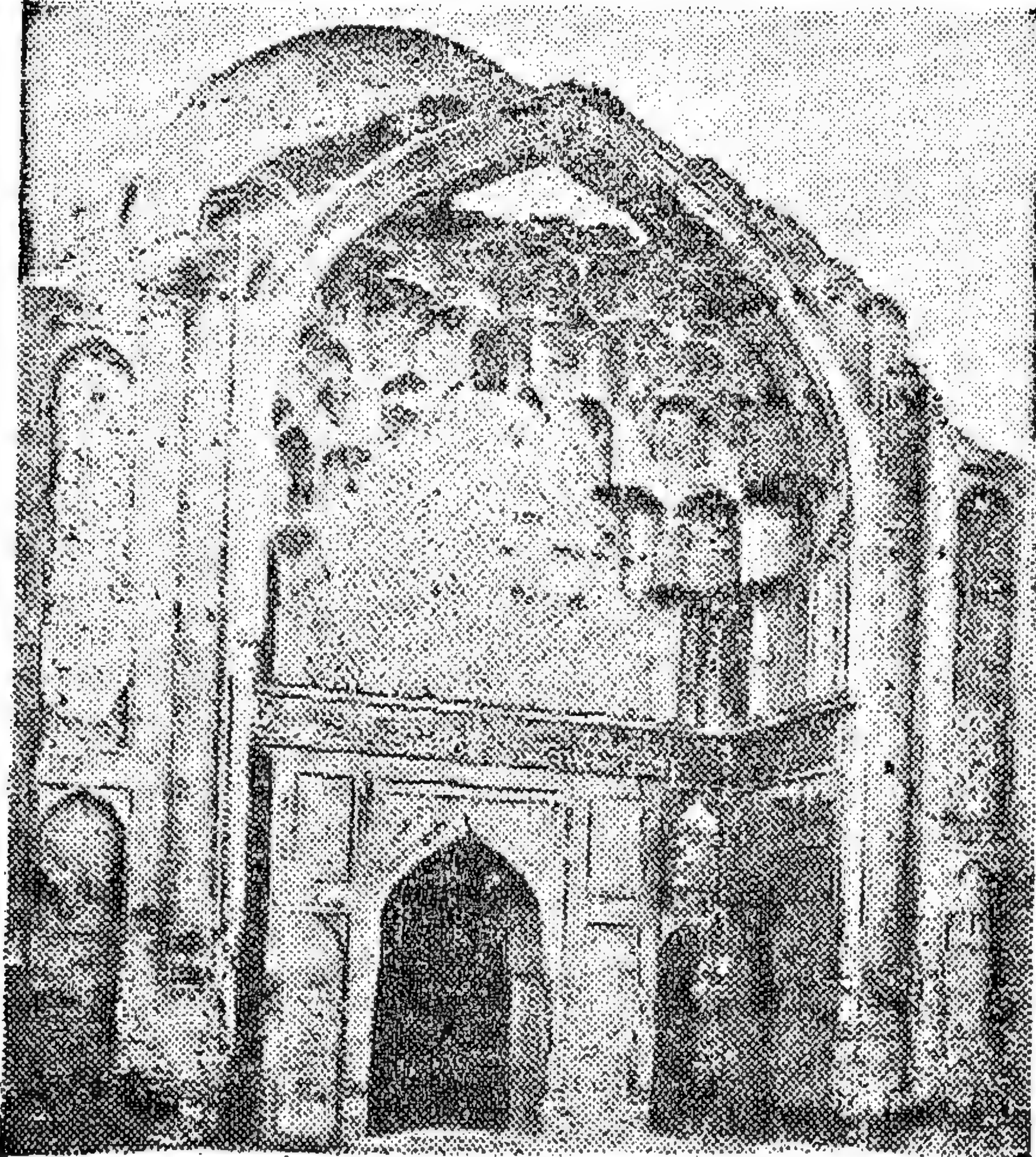
مدرسة وجامع قرامين
من العصر السلجوقي

وفصل هذا الباب بزخارفه ومناطقه الزخرفية عن جدار قبة الواجهة طراز من الكتابة بالخط الثلث ، تمتد داخل جوفه الواجهة ، ومحراب الجامع مغطى بالزخارف الجصية الكثيفة وضعت بطريقة تبهر الأبصار . ولتتبع سياق التوريقات وحركات سيقانها يحتاج الأمر الى بذل مجهود كبير . ومع اكتظاظ جدار القبلة بهذه الزخارف التي كان الغرض منها تجميل القبلة ، فقد ضاع معنى التناسق والتآلف بسبب الغلو في التعقيد والاسراف في الحشد ، بل ان هذه الزخرفة المزدهمة سيطرت على ما عداها من زخارف فتضاءلت طرة المحراب بطرازها الكتابي أمام هذه التكوينات الزخرفية التي تدل على أن نقاش هذا المحراب كان صانعا حاذقا لصناعته ، أكثر

أقيم هذا الجامع ، وفقا للنقش التاريخي المسجل على واجهته ، عام ٧٢٣ هـ (١٣٢٢ م) . ويحتفظ بوحدة معمارية كبرى على الرغم من الحالة السيئة التي وصل اليها بها . ويمثل بعناصره المعمارية مرحلة جديدة للوصول الى نظام المساجد الايرانية البحتة . ويتألف من صحن حوله أربعة ايوانات متعامدة ، ويعلو بيت الصلاة أو الايوان الرئيسي قبة رائعة الجمال . والواجهة الرئيسية للجامع مبنية بالآجر ، ويحف بها من الجانبين طاقات طولية تقطعها أفاريز عرضية ، ويكسو الواجهة داخل عقد المدخل حشوات ملساء مغطاة بلوحات القاشاني المزينة بزخارف هندسية من نجوم وخطوط متداخلة .

ويؤدي الايوان الجنوبي المطل على الصحن الى بيت الصلاة . وواجهته جوفة مستطيلة ، تعلوها نصف قبة قائمة على مقرنصين من الآجر في ركني الواجهة من الداخل ، تتراب على كل منهما أربع حطات من المقرنصات ، لتحول هذه القاعدة المربعة الى رقبة نصف مستديرة تتكئ عليها قبة الواجهة . ويحيط بالواجهة من الخارج عقد ضخيم على نظام الايوانات تكسو بطنه حشوات من الفسيفساء الملونة تحتشد فيها زخارف هندسية .

وينقسم جدار الواجهة من الداخل الى مناطق رأسية وأخرى أفقية ، تتوزع فيها الزخارف في شيء من التناسق والتآلف . ويشغل بنيتي عقد الباب زخارف هندسية آية في الروعة والجمال ،



واجهة ايوان بيت الصلاة بجامع قرامين

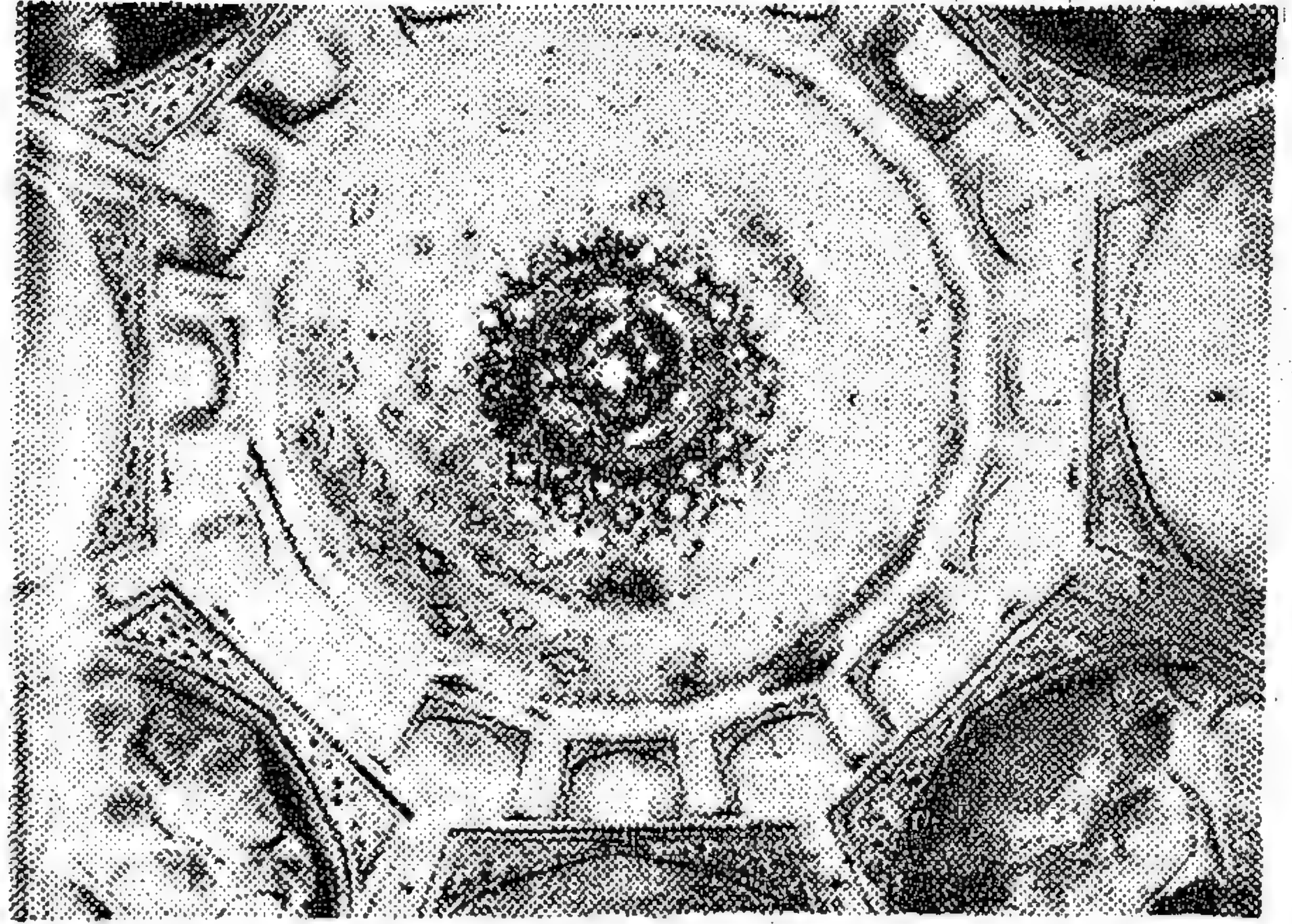
وايوان بيت الصلاة مربع ، يقوم في كل ركن من أركانه الأربعة مقرنص من ثلاث حطات يحيط به عقد منكسر ، تزدان بنقش بزخارف هندسية متداخلة ومجدولة ، ويحدد جوفات المقرنص بحطاته أشربة بارزة . وتتوسط جوانب قاعدة القبة عقود ملساء تقتصر زخارفها على مجرد ترتيب قطع الحجر ترتيباً هندسياً . ويتحول هذا الطابق المربع الى مشمن أقيمت في أركانه الثمانية مقرنصات غير مجوفة ، فتحت بين كل اثنين منها نافذة معقودة ثم يعلو هذا الطابق افريز بارز متعدد الضلوع يكاد يكون دائرياً ، تقسوم عليه خوذة القبة نصف الكرية . وتزدان هذه القبة من باطنها بالفسيفساء .

الجامع الأزرق ١ بتبريز من العصر التيموري

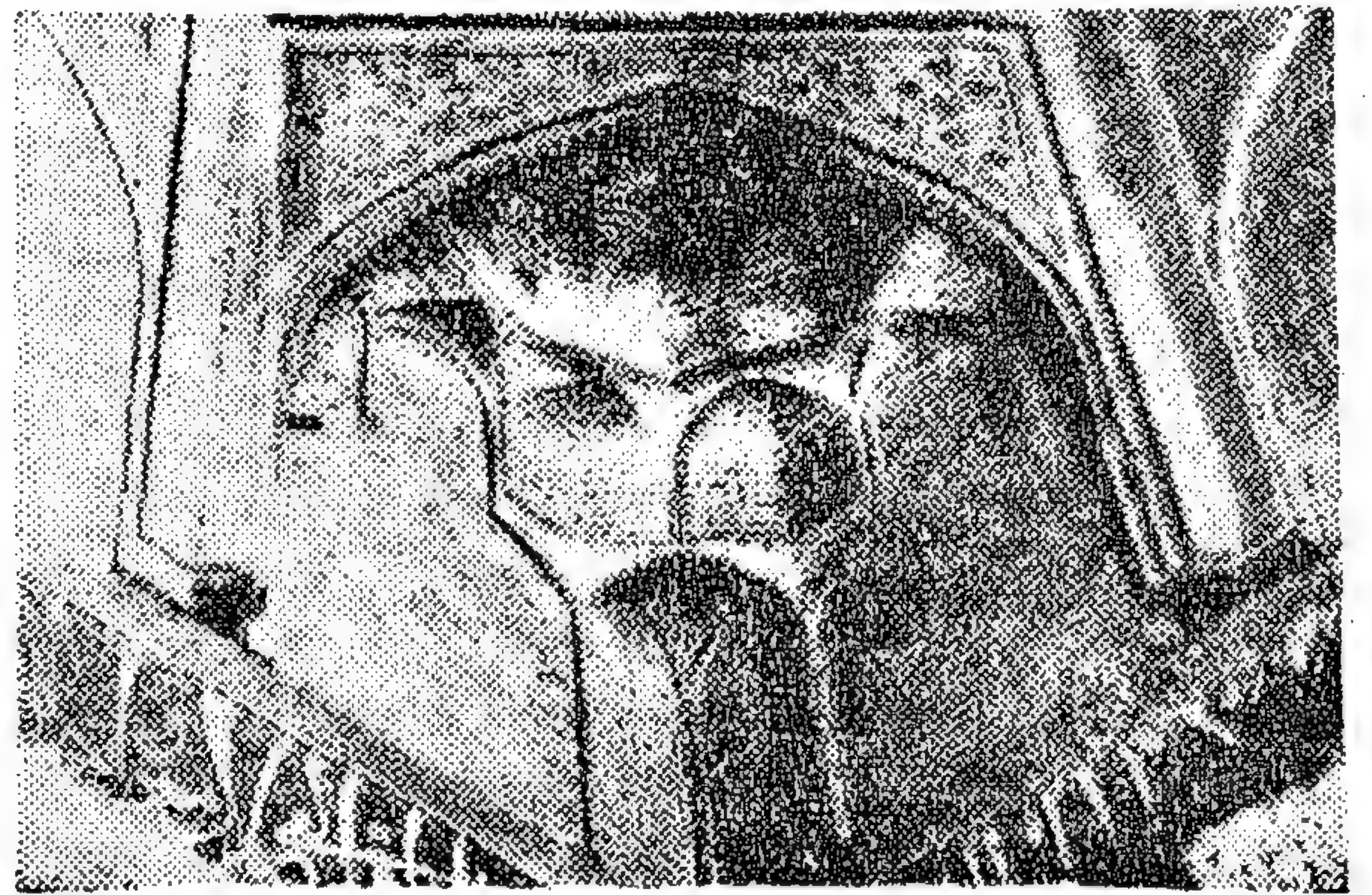
أقامت هذا الجامع الأميرة التيمورية صالحة خاتون عام ١٤٦٥ م ، وتم بناؤه على يدى البناء نعمة الله بن محمد ، وكان فناً مشهوراً بإجاده لفن الخط . وبالرغم من أن أجزاء كثيرة من هذا الجامع قد تهدمت ، نتيجة لتعرضه للاهمال طوال العهود التي سيطر فيها الشيعة ، فانه يعد أجمل آثار العصر التيموري على الإطلاق . ولا شك أن تدهم بعض أجزائه وتصدع البعض الآخر ، يعد خسارة كبرى للآثار الإسلامية في هذا العصر بإيران .

ويشبه هذا الجامع في تصميمه بعض الكنائس البيزنطية ، وان كان لا يزال يحتفظ بنظام المعابد الفارسية بفتحاته الاثنى عشرة وقاعاته المحيطة بقبته . وتذكرنا القاعة الوسطى المربعة والتي تعلوها قبة ، بصحون المساجد الجامعة القديمة ،

(١) غلبت هذه التسمية على الجامع بسبب لون القاشاني الأزرق الذي يغطي جدرانه .



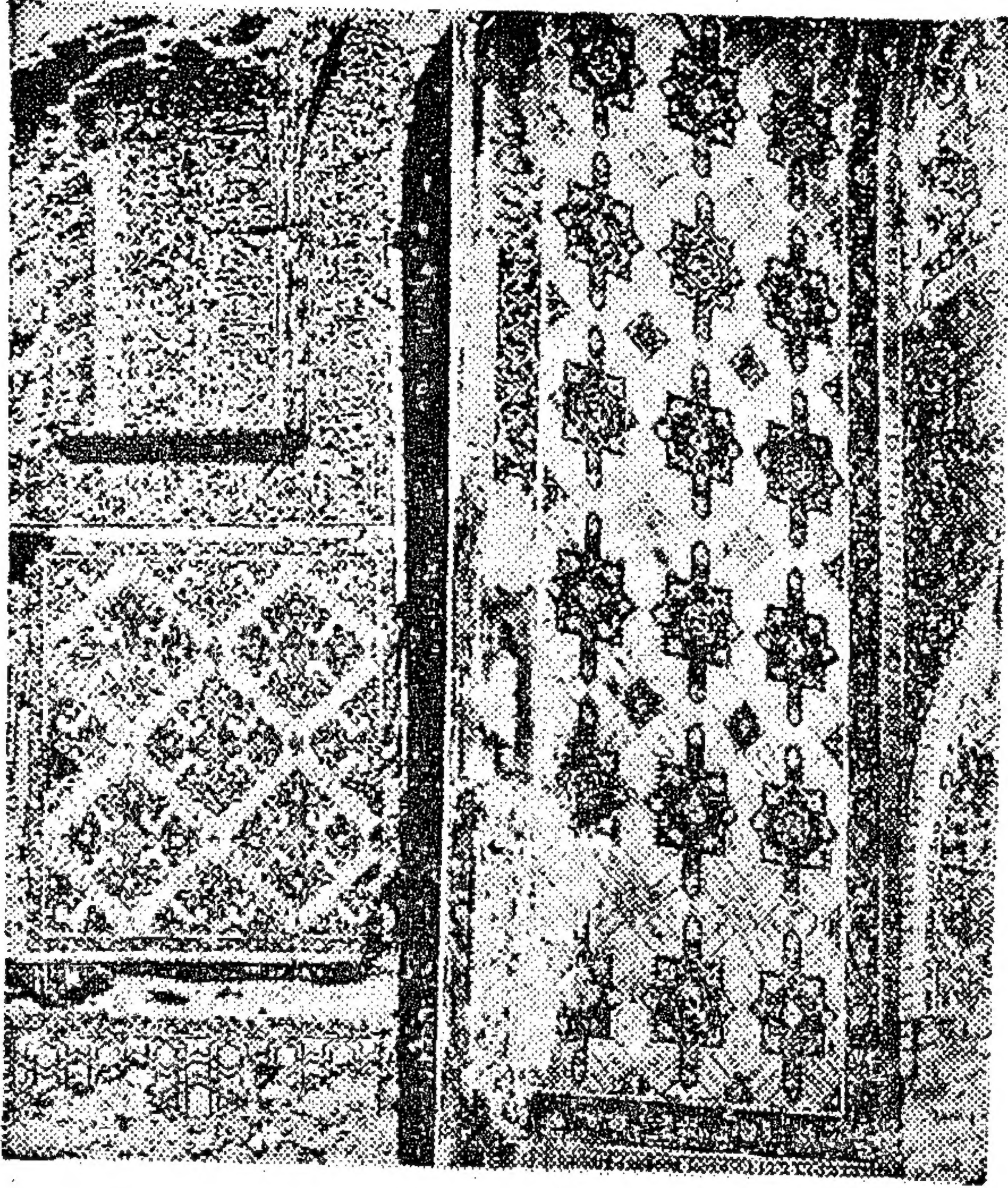
قبة جامع نرامين



احد مقرنصات القبة بجامع نرامين

من أن يكون فناً مبدعاً وتعتبر الطرز الكتابية بالمسجد من أجل العناصر الزخرفية التي تزدان بها الواجهات . ومن بين هذه الطرز الكتابية طراز يسجل اسم السلطان الذي أمر بإقامة هذا الجامع واسم المهندس الذي أشرف على بنائه أما الطرز الأخرى المنقوشة داخل الجامع وخارجه فمعظمها يتضمن آيات قرآنية ، منها نقش كتابي على مدخل ايوان بيت الصلاة نقرأ فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .



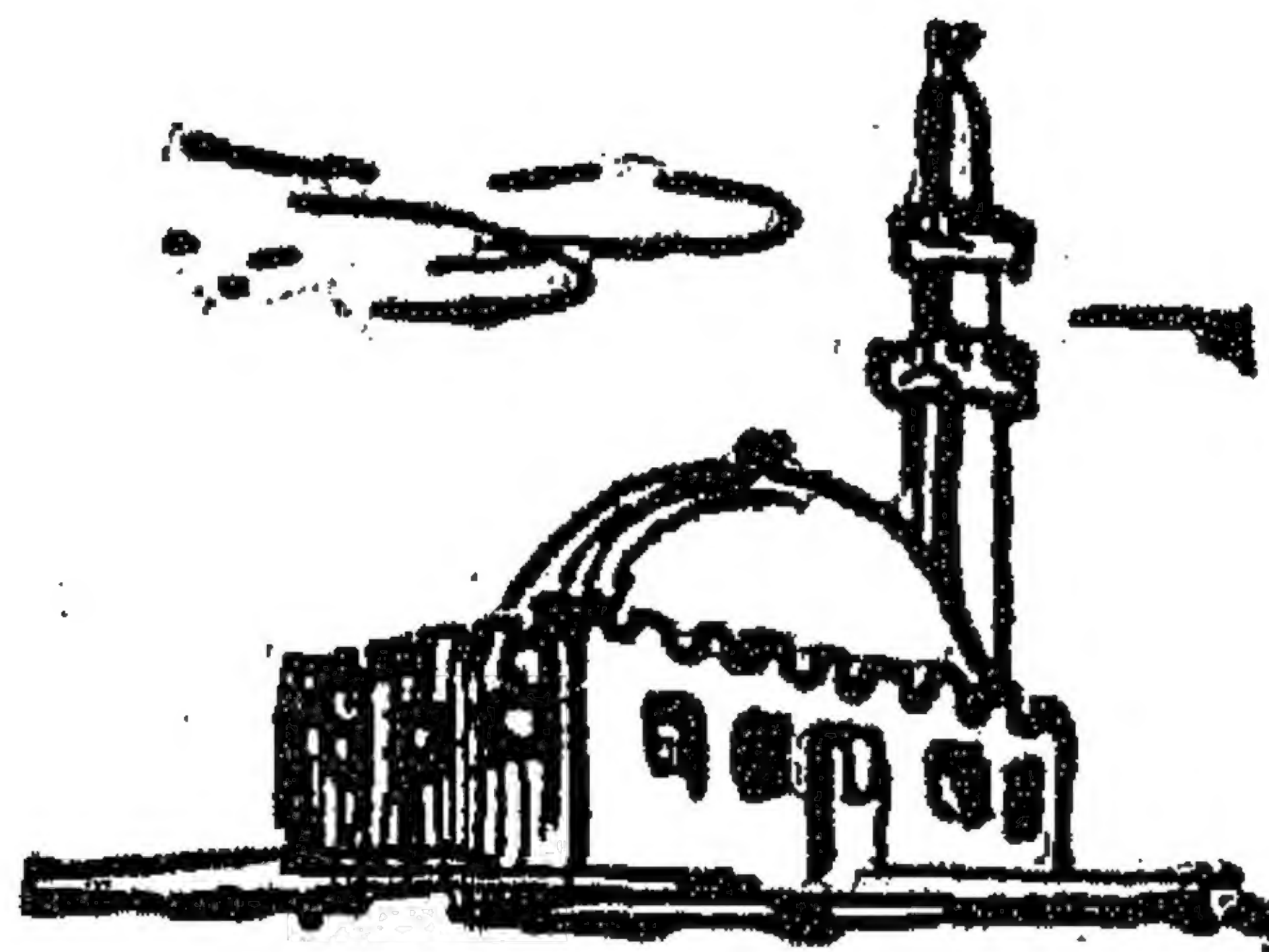
تربيعات خرفية بالجامع الأزرق بتبريز

كلها بالخزف ، فقد كانت تبريز إحدى المدن
الإيرانية التي اشتهرت بصناعة الخزف والقاشاني
ولها في هذه الصناعة تقاليد غريقة .

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم

كما تذكرنا الممرات التي تقع بين أكتاف القبة
الوسطى بالممرات التي كانت تطوف فيها المواكب
الزرادشتية . وينتهي الجامع بقاعة مغلقة فتحت
فيها جوفة المحراب . وتنتصب في ركني الواجهة
مئذنتان على هيئة برجين صغيرين .

وأهم ما في الجامع تربيعاته الخزفية المزججة ،
فكل أجزائه مغطاة بأروع أمثلة للقاشاني ،
أو الفسيفساء الخزفية ، الذي يميز بألوانه الزاهية
الآلأزرق والأخضر والأصفر ... وقد استخدم
التذهيب في بعض أجزاء الجامع . وتشف زخارف
هذا المسجد بمختلف ألوانها وأناقته وتنوع
تقاسيمها وروعة ترتيبها وتنسيقها عن حقيقة بانيه ،
فقد أقيم هذا الجامع من مال أميرة . ولا يمكن أن
تفرق بعض التكوينات الزخرفية عن نسيج من
الحرير أو ديساج موشى ، فهي تعكس مظهرها من
الثراء الزخرفي والأرستقراطية . وينبغى أن نذكر
في هذا المقام أن جدران جامع تبريز كانت مغطاة



مساجد من الهند

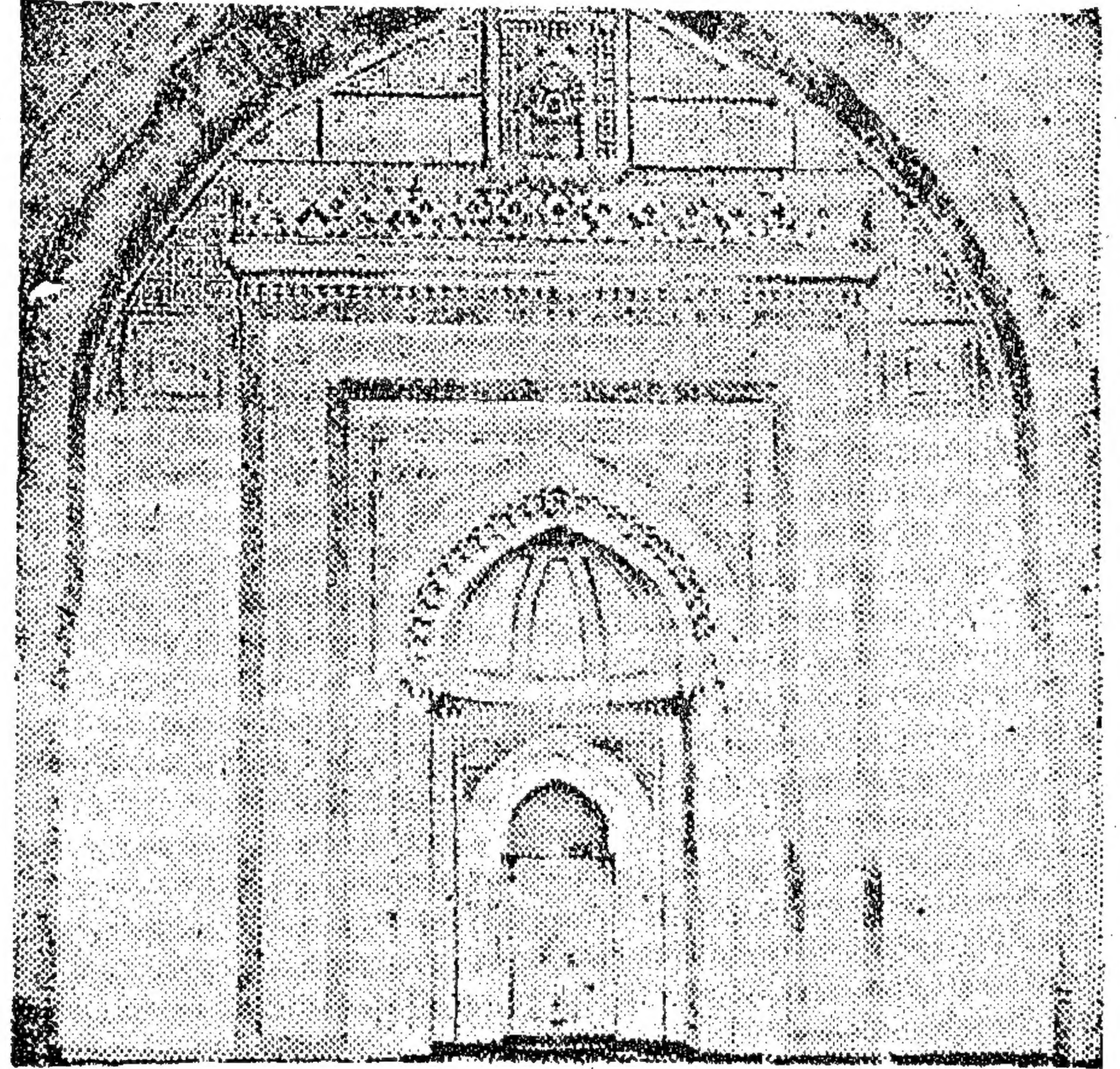
من العصر المغولي

شاه أكبر بين عامي ١٦٣٠ - ١٦٤٨ م ليكون ضريحا لزوجته « ممتاز محل » ، ومنها حصن أجرا الذي أقامه شاه أكبر عام ١٥٥٥ م ، وحصن دهلي الذي شيده شاه جهان ، وغير ذلك من القصور والحصون والأضرحة . أما عن مساجد الهند في العصر المغولي فلم يتبق لنا منها آثار كثيرة . ولقد قام شاه بابر ، مؤسس دولة المغول في الهند ، ببناء ثلاثة مساجد خلال خمس سنوات من حكمه قضاها في حروب مستمرة . ويبدو أن السلطان كان متأثرا بالطراز الايراني المغولي الذي شاهده في هراة وسمرقند ، حيث عاش سنين طويلة قبل أن يقوم بغزو الهند .

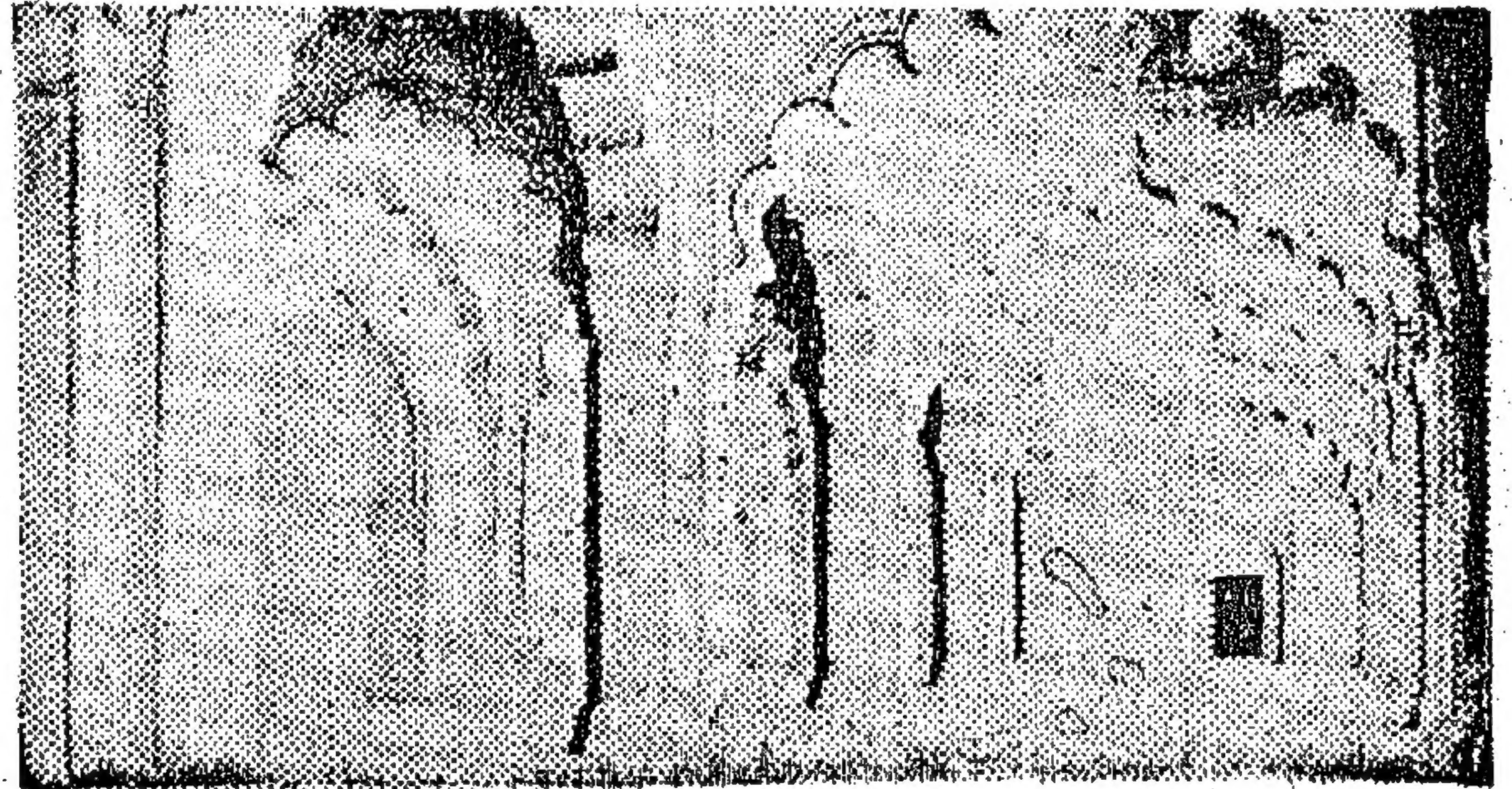
وآثار المساجد المغولية في الهند تكشف لنا عن مدى تأثير العمارة الهندية المغولية بالتقاليد الايرانية الى جانب التقاليد الهندية المحلية . ومن أمثلة المساجد الهندية الباقية جامع شيرشاه ، أسسه الشاه همايون بن بابر عام ١٥٤٥ . وتتجلى فيه التقاليد الايرانية ، وتسود زخارفه روح من البساطة بالنسبة لزخارف المساجد الايرانية . ويقتصر ايوان الواجهة على عقد زخرفي يلتصق بالجدار . أما المحراب فجوفه داخل جوفه ثانية داخل جوفه ثالثة تعلوها نصف قبة ، ويحيط بها عقد مزين بالفصوص ... كذلك تبقى مسجد اللؤلؤة بحصن أجرا الذي أسسه شاه أكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥) بالحجر الرملي الأحمر على نهر جمنا . ويمتاز هذا الجامع بعقوده المفصصة المدببة في أعلاها .

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم

أفتتح الامبراطور بابر حفيد تيمورلنك مدينتي دهلي وأجرا عام ١٥٢٦ م ، وقامت على يديه امبراطورية المغول في الهند . وقد دام عهدها ما يقرب من ثلاثمائة وثلاثين عاما . وبرز من أباطرة المغول في الهند شاه أكبر وجهانجير وشاه جهان . وقد خلفت من هذا العصر عدة آثار هامة منها « تاج محل » الذي شيده الامبراطور شاه جهان بن



محراب جامع شير شاه بالقرب من دهلي



مقود بيت الصلاة بجامع اللؤلؤة (أجرا)

كتاب الشعب

٤٨ صحيح البخارى (٤)	١٩ أساطير من الشرق	١ تفسير جزء عم
٤٩ دائرة معارف الشعب (٣)	للأستاذ سليمان مظهر	للأستاذ الامام محمد عبده
٥٠ أساطير من الغرب	٢٠ المصحف المفسر (٤)	٢ قصة السموات والأرض
للأستاذ سليمان مظهر	٢١ عالمنا الذى نعيش فيه	للدكتور محمد جمال الفندى
٥١ صحيح البخارى (٥)	للأستاذة فاطمة محجوب	والدكتور محمد يوسف حسن
٥٢ دائرة معارف الشعب (٤)	٢٢ المصحف المفسر (٥)	٣ قصة الجنس البشرى (١)
٥٣ خامس الراشدين (١)	٢٣ كيف نعيش اليوم	للدكتور هندريك فان لون
عمر بن عبد العزيز	للأستاذة فاطمة محجوب	٤ قصة الجنس البشرى (٢)
للأستاذ أحمد الشرباصى	٢٤ المصحف المفسر (٦)	٥ اعرف نفسك
٥٤ صحيح البخارى (٦)	٢٥ صلاح الدين الأيوبى	للدكتور يوستاس تشسر
٥٥ دائرة معارف الشعب (٥)	للدكتور جمال الدين الرمادى	٦ تفسير جزء تبارك
٥٦ خامس الراشدين (٢)	٢٦ المصحف المفسر (٧)	للأستاذ الشيخ عبدالقادر
٥٧ صحيح البخارى (٧)	٢٧ تاريخ الجبرتى (١)	المغربى
٥٨ دائرة معارف الشعب (٦)	٢٨ المعجم المفهرس (١)	٧ الطب للشعب
٥٩ فن التفصيل والحياكة (١)	لألفاظ القرآن الكريم	لفريق من الاخصائيين
للأستاذة بثينة الكفراوى	للأستاذ الشيخ محمد فؤاد	العالميين
٦٠ صحيح البخارى (٨)	عبد الباقي	٨ جان كريستوف (١)
٦١ دائرة معارف الشعب (٧)	٢٩ تاريخ الجبرتى (٢)	رومان رولان
٦٢ فن التفصيل والحياكة (٢)	٣٠ المعجم المفهرس (٢)	٩ أشغال الصوف (التركى)
٦٣ صحيح البخارى (٩)	٣١ تاريخ الجبرتى (٣)	للأستاذة بثينة الكفراوى
٦٤ دائرة معارف الشعب (٨)	٣٢ المعجم المفهرس (٣)	١٠ جان كريستوف (٢)
٦٥ هذا هو الاسلام	٣٣ تاريخ الجبرتى (٤)	١١ على هامش التاريخ المصرى القديم
للدكتور محمد غلاب	٣٤ المعجم المفهرس (٤)	للأستاذ عبد القادر حمزة
٦٦ صحيح البخارى (١٠)	٣٥ تاريخ الجبرتى (٥)	١٢ مائدة الشعب (١)
٦٧ دائرة معارف الشعب (٩)	٣٦ المعجم المفهرس (٥)	للأستاذة بسيمة زكى
٦٨ هوايات مريحة	٣٧ تاريخ الجبرتى (٦)	ابراهيم
للأستاذ محمد احمد حسن	٣٨ المعجم المفهرس (٦)	١٣ مائدة الشعب (٢)
٦٩ صحيح البخارى (١١)	٣٩ صحيح البخارى (١)	١٤ المصحف المفسر (١)
٧٠ دائرة معارف الشعب (١٠)	٤٠ تاريخ الجبرتى (٧)	للأستاذ محمد فريد وجدى
٧١ تقويم الشعب	٤١ المعجم المفهرس (٧)	١٥ نبي البر (المختار من سيرة
للأستاذ أحمد	٤٢ صحيح البخارى (٢)	ابن هشام)
٧٢ صحيح البخارى	٤٣ دائرة معارف الشعب (١)	للأستاذ ابراهيم اليبارى
٧٣ دائرة معارف	٤٤ تاريخ الجبرتى (٨)	١٦ المصحف المفسر (٢)
٧٤ صحيح البخارى	٤٥ صحيح البخارى (٣)	١٧ فن الحياة
٧٥ مساجد ومعاد	٤٦ دائرة معارف الشعب (٢)	لأندريه موروا
٧٦ دائرة معارف	٤٧ تاريخ الجبرتى (٩)	١٨ المصحف المفسر (٣)
٧٧ صحيح البخارى		